حسن إمامي
الساعاتي
رواية

حسن إمامي

الساعاتي

رواية

- المؤلف: حسن إمامي
- الطبعة الأولى: 2020 م
- جميع الحقوق محفوظة
- الإيداع القانوني: 2020MO5354
- ردمك: 978-9920-32-768-8
- مطبعة وراقة بلال – فاس / المغرب
- الهاتف / الفاكس: 03.86.61.35.05
- الواتساب: 57.37.23.14.06 / المحمول: 55.70.68.61.06
- العنوان: رقم 204 شارع المدينة المنورة حي الأمل / النرجس - فاس

الإهداء

ثريا الروح،

مصابيحها المشعة إليكم

باقات بوح وحنين

زياد، محمد أمين، غزلان،

وأفراد أسرتي الكبيرة.

حسن إمامي

الساعاتي

مضرجا بدمائه، بكفه الأيسر يقبض على عمود المصباح الكهربائي المنتصب فوق رصيف الشارع، بينما كان الأيمن ضاغطا على الجرح الغائر في بطنه.

عيناه جاحظتان، محملقتان في السماء مرافَقةً لغرغرة تنفس، مركزتان على تشكيل صباغة العمود التي زحف على تواجدها الصدأ فانتشر ملتهما جزئيات الطبقة المصبوغة، مفتتا وصادًّا لها بعد أن تمكن من سُمك العمود الحديدي انتشا را واعتمارا وأكسدة.

وهل كانت اللحظة للتأمل والاستنتاج؟

استغرب لنظره اللاواعي حينها، استحضر اغترابه عن الشارع الذي قصده راجلا تجاه دكان الساعاتي المختص في إصلاح ساعات الجدار القديمة والتحف النادرة التي تحتويها.

قد يتذكر قبل ولوجه هذا الشارع وهذا الدكان أنه لم تطأ قدماه هذا الحي منذ أكثر من أربع سنوات. حياته اليومية التي ارتبطت ببرنامج أصبح عرفا بل أعرافا ودوائر قيام بمهام خارجة عن هذه الهوامش التي

أقصاها وسطُه من التداول سواء اقتصادا أو اجتماعا أو ثقافةَ حوار ونقاش.

شعر بدفء السائل الأحمر الذي ينبلج من راحة يده. بعض قطراته التي بللت ركبته اليمنى، هذه التي جعلها متكأ لجسده المائل جهة العمود، القابض على قَدَرٍ ونتيجةٍ محسومة بما وقع له في دكان الساعاتي.

اعتصر الدمع في عينيه والسؤال في ذهنه:. لماذا؟

لم تسعفه أناه في التعليل أو في إيجاد إجابة آنية. تكرر السؤال وأداة استفهامه الوحيدة: لماذا؟

لم يعد سرواله الصيفي الأزرق في لونه الشفاف المعهود. تعرقٌ جسدي وقد لفّه رطوبةً باردة، دمٌ قانٍ وقد أرسل ريشته غير المرئية في قذف بقع ومسالك لتوقيع حضوره وبصمته. هذا الدم وقد أصبح أداة توقيع خارجية كذلك لهذا الجسد ولرحلته. هذا الدم وقد يرسم له قصيدة شعرية أخيرة، وهو الذي أحب الشعر في بعض المناسبات القليلة فيما مضى، وأحب الرسم في أخرى، وأحبّ الساعات الكبيرة والتحف النادرة دائما. وكأنها قصيدته الأخيرة أو رسمُ شاهدِ قبره الذي سيخلّد لاسمه بعد أن يغيب:

. قد كنتُك، أنا دمك. قد كنتك، توازنك المطلوب. إنما اعلم ! اعلم أنني لم أخنك، رغم سيجارتك الشقراء أو الصفراء الشاحبة. رغم كأسك التي قرعتها في انتصاراتك كما في عثراتك. رغم تُخمتك التي كنت تتجاوز بها حدود اللائق.

ويحذرك الأطباء، حراس جسدك، أصحاب وصفاتك الطبية وعيادات زيارتك وتفقد حالتك الصحية .

اعلم أنني لم أخنك، رغم إنذار الأطباء لك بأن ما تبقى لك من حياة اخترق شراييناك إنذارا وسرحانا. ورغم ذلك وكل ذلك، لم أخنك. خانتك طعنات في دكان ساعاتي أو هي طعنة واحدة. أنت أدرى بها. خانك المبرد الأملس والحاد. لا. لم يخنك الساعاتي. ستسخر من رأيي وأنت الضحية الآن. ستقول: ومن طعنني أيها السافل؟

يمكنك أن تشتمني. إنما أنا دمُك. منك. كلانا أصبحنا سافلين. لا تنزعج لقلقي بسببك وعليك. اهتم بالجرح الغائر وسأهتم أنا بتحدّيه. ربما إذا انتصرتُ سأتحرر منك ومن جسدك وكيانك وشخصك. لا تنس أن الدم يتفاعل مع الشخصية والنفسية والعقلية كذلك. يترجم حالاتها، وأنا هنا أترجم حالتك .

لكنها ترجمة في أبشع الحالات .

أنظر إلى هذا الجمهور الذي كلما هرول وأسرع قاصدا ساحة ودائرة حادثتك، كلما تباطأ اندهاشا وارتيابا وخوفا من الاقتراب. قريب بعيد بعيد قريب. آه منك يا خنساء. وكأنك رسمت للجروح خطها الوجودي والتاريخي في الأجساد والأنفس. وأعلم أنك لا تدري ما قالته الخنساء. هي وقد قامت برثاء أخويها، وأنت؟ ماذا سترثي؟ حالك البئيس الآن؟ أم مجدك الذي بنيتَه بالحظ والخوف، بل الرعب الذي هرول بك صعودا إلى أعلى رقيٍّ؟ وها هو يجعلك تحن إلى التراب، وإلى مهدك البدوي والفلاحي الأول.

ها هو الساعاتي واقف أمام باب دكانه. بوزرته الزرقاء القاتمة، ونظارته التي ابيَضّ إطارها ففقدت لونها البُنّي. يداه فارغتان من كل أداة. يقف ويتأمل وينتظر مع المنتظرين، ويشاهد التطور الدرامي في جسدك ودمك المراق، في أفق ما ستتوج به أنت هذا المشهد من أنين ألم وصراخ مرافق. وكأن الطعنة مجرد جرس لبداية المشهد المرتبط باتكائك على عمود الكهرباء هذا.

يرن الهاتف في جيب سروالك الأيسر، ويدك لا تستطيع ترك العمود الحديدي الصدئ. وهل ينقذك الجواب على رنة الهاتف والرد على المكالمة؟ لا تعلم علم اليقين حقيقة الجواب. ربما لأول مرة تعترف بالتردد وبالخوف من الخطوة التي ستختارها. وتجثو على قدميك.

هل كان ذلك انهيارا في تدرجه أم خطوة لتحرير يدك حتى ترد على الهاتف؟طيب. اعتبر المسألة جامعة بين الاحتمالين. أجب على الهاتف رغم أن الدم المتدفق زاد في انبلاجه من بركان هذا الجسد:

- ألو. الحقوا بي في شارع المقاومة قرب الساعاتي !

وكأنها بصمات لأناملك وقد وقّعت فوق لوحة بيضاء كانت هي قميصك الحريري الذي اخترته لمسحها به.

مالت عيناك مرفوعتان مرة أخرى فوق. إنما هذه المرة لم تستطع امتلاك زرقة السماء. امتلكت فقط دائرة رؤوسٍ وأوجه وملامح وأجساد أحاطت بساحة وقوعك جريحا غريبا. امتلكت لون البياض الذي سرعان ما تحوّل مع ألوان قزحية غمرها سواد أخير. هل تحنّ لراحة كبيرة؟ سأساعدك عليها. راحة هي بطعم الخلاص الذي ينشده كل كائن بعد تعب هذه الحياة .

ولِمَ الاندهاش. لِمَ تركت شفتيك مشدوهتين، فاغرا فاك استغرابا؟ كبُر عدد الجمهور الحاضر هنا. بعضهم يصور، نعم، وقد أسرع في التقاط صورة أو شريط فيديو قصير. وكأنك بطل فيلم سينمائي يتم تصويره وعرضه مباشرة على الجمهور، أو هو البث الحي لتلفزة الشارع وقد اخترت أن تكون سيد المشاهدة فيه. بعضهم يهاتف، وكم هو أملك

في أن تكون هذه المكالمات اتصالا بالطوارئ وبالمستشفيات وسيارات الإسعاف. لكنها سيارة إسعاف واحدة تكفيك من أجل الإنقاذ. ربما أخّرتَ التفكير في احتمال اتصالهم برجال الأمن والشرطة. أيهما أولى، حضورهم أم حضور سيارة الإسعاف؟ ربما إذا فاوضت الساعاتي لحظتها أمكنك أن تسمع رأيه الذي سيكمل المشهد، والذي لن يجيب على السؤال:

- لماذا وقع ما وقع؟

تصاعدت الأصوات وتداخلت حتى أصبحت ضجيجا لا جدوى منه. أغمي
عليه بهدوء واستسلم لرنين وصوت سيارة الإسعاف، بدا أنها لرجال
المطافئ، آتية من زاوية خلفية تتقاطع بين شارع المقاومة وزنقة
بوخاريست. وكان الأمل الأخير.

كان لطف الله أول المطلعين ربما على شريط فيديو قصير بثّه أحد أصدقائه مباشرة على صفحة الفايسبوك. قطع المسافة هرولة في خمس دقائق تقريبا، من زنقة مدريد حيث مقر سكناه، عابرا رصيف شارع المقاومة حتى محل الساعاتي الذي يعرفه جيدا كما يعرف أولاده بحكم مجايلته لهم ومصادقته لبعضهم. استطاع أن يلتقط المشهد

ببصره مسجلا لقطات امتداد جسد المغمى عليه الذي تلوّن لباسه الأبيض والأزرق السماوي بلون الدم والتراب، باحثا ببديهة ذهنية عن الكلمة المناسبة والتي لفظها فعلاً، قبل وقع الاسم:

- تلطخ.

واستفهم:

- اللطخ؟

- هذه جريمة إذًا.

- أواه !

كان وصول سيارة الإسعاف بعد دقيقة من حضوره. وقفت سيارة شرطة بلونها الأبيض المخطط بالأخضر والأحمر وضوئها المتموج فوق سطحها الأمامي.

لم يكن لها صوت مدوٍ ولا صفارة صادرة. بهدوء نزل ثلاثة رجال شرطة. عمد أحدهم إلى ملازمة جهازه اللاسلكي، فيما استعمل الثاني هاتفه النقال. بينما تكلف الثالث بإبعاد دائرة المتجمهرين بعيدا عن الضحية الملقاة فوق الرصيف مغمى عليها بجانب العمود الكهربائي. بقيت آثار

دم على هذا العمود فيما البقعةالأرضية تحولت من أحمر قان إلى لون لا يحتاج إلى تصنيف لوني معتاد الآن.

بإشارة من الساعاتي دخل شرطيان إلى الدكان. استغرقا خمس دقائق وزيادة تباطأ خلالها رجال المطافئ في وضع الضحية فوق مطرح الإنقاذ وجعله داخل سيارة الإسعاف. لكن محاولة إيقاف النزيف كانت قد بدأت مع وضع ضمادات معقمة ومع ضم أطراف الضحية الجريح ووضع جهاز تنفس اصطناعي. كل ذلك مع توخي الحذر من كل حركة غير مناسبة.

يرفع لطف الله عينيه مع سماعه للتعليقات: يا لطيف، يا لطيف. اللهم الطُف بنا !

يتوجس من تلاقي حروف اسمه مع هذا الاستلطاف والعياذ بالله. يتحاور مع دواخله: لطف الله غير مرتبط بالكوارث والجرائم فقط. ويتساءل إن كان عليه أن يتصل بصديقه عبدالله بودحان، ابن سي علي بودحان؟ هل هو على علم بما وقع قرب دكان أبيه؟

يقف سي علي بودحان داخل دكانه مع الشرطيين في هيأته النحيفة، لكنها دالة على صلابة عود وتماسك بنية. ترى ذلك في بريق عينيه الصافي والذي لم تؤثر عليه مهمة ومهنة الساعاتي. شارب رقيق مهذب يسمح لابتسامته السمحة، في العادي من الأيام، بلمعان أسنانه

البيضاء التي صففها له مركب الأسنان وصانعها، صديقه القديم المجاور للكنيسة القديمة في حي المحيط، هذه التي تحولت إلى مركز ثقافي يحمل اسم مناضل كبير هو المهدي بنبركة. قسماته التي لم تتغير. كل الأجيال ترسم ذاكرتها وتطمئن لها باستحضار سي علي بودحان كشاهد على مراحل زمنية أو مُعين على إشارة طريق أو دليل وصول معلومة. قد يحتاج أحدهم إلى خريطة يوضح بها مسار حكيه ومكانه، فيقول:

- ".اسمع ! حينما تصل إلى دكان سي علي بودحان...
- آه، قرب مقهى بومالك؟

- أي مقهى؟ مقهى بومالك حديثة العهد. محل علي بودحان هو أول دكان ساعاتي في شارع المقاومة.

- اسمع يا هذا ! يكفي أن أجعل محرك البحث في الأنترنيت فيعطيني المكان الذي أبحث عنه.

- لك ذلك، لكنك لن تصل بدون دليل من سكان الحي والمحيط. ومحل سي علي مشهور جدا".

تكون مثل هذه الحوارات بداية توثيق لما يريده المتكلم في قوله. واسم سي علي مشهور كذلك باسم عائلته. هي أسرة كبيرة ومتفرعة في مدينة الرباط، كما في منطقة سوس جنوب المغرب حيث تعود لجذورها الأولى هناك أو هنا. ثلاثة إخوة وأربع أخوات. مصاهرتهم مع بني عمومتهم وعشيرتهم المنحدرة من قبيلة آيت باها جعلت نسيج التجارة والاجتماع مشهورا بمدينة الرباط. وقد تحول هذا الاقتصاد مع تطور العقود من التجارة إلى العمران والفضاءات الاستهلاكية الكبيرة. وإذا كانت مدينة الرباط حصنا مشهورا أسس منذ القرن الثاني عشر الميلادي من طرف الموحدين، فإن حصن سي علي بودحان سيكون هو هذا التماسك الأسري المتين والذي ضحى به من أجل أسرته الكبيرة والصغيرة. عن عمر يناهز الآن الثلاث وسبعين سنة سيكون الحدث صدمة ودهشة واستغرابا. لن يكون بنفس وقع المتجمهرين حول ضحية الطعنة التي وقعت داخل دكانه، دكان المسمى: الساعاتي سي علي بودحان. هو وقعٌ دوّى وسيُدوّي في النفوس والعقول بحجم دوّي مدفع كبير يطلق كراته المتفجرة تباعا. وكأنه البرج الكبير بمدفعيه الذي لم يوظف يوما للدفاع والقتال. ذلك البرج الموجود أسفل حي المحيط قبالة البحر والذي بُني في عهد الحسن الأول نهاية القرن التاسع عشر.

رغم أن حرفته لا يسمع لها ضجيج كبير، فقد تستغرق الأصوات لحظات التواصل والتفاوض بين شراء وإصلاح، وقد يدوم الحوار مدة تحقيق إقناع أو توضيح منطق أحدهم في الاستفسار والطلب والتحديد للثمن النهائي. كل هذا ألفه أهل الرباط عموما وساكنة حي المحيط خصوصا في تعاملهم مع سي علي بودحان.

قد تسمع صوت آلات أو أدوات مستعملة أو تكات ساعات أو رناتها خلف بندولها، ذلك الرقاص الذي يبرع سي علي في إعادته كجسم سليم معلق ومتحرك متأرجح في ذبذباته ذهابا وجيئة بتأثير الجاذبية كهذا الرقاص الموجود في ساعة الحائط الكبيرة. أصعب محطة عنده تكون في البحث عن البندول المناسب للساعة الحائطية المناسبة له. توازن بين الجسم والحركة، بين الوزن والإيقاع، إيقاع زمن دقيق يسعف في ضبط الثانية والدقيقة وفي اختيار الرنة المطربة حين وقوف العقرب الخاص بالدقائق على رقم ستة أو على رقم اثني عشر.

لا يرتاح سي علي لأي رنة خصوصا وأنها متعلقة بأدوات حديدية ونحاسية وفضية أو معدنية أخرى، بأحجام وقضبان موسيقية معلقة وراء كل بندول. قد يعتبر إحداها مبحوحة بوصف قريبٍ للإنساني، الكائن الحي، وقد تكون أخرى معلولة، ما يعني أنها ستعطل سلامة الضبط الزمني لساعة الجدار التي يجب أن تعلق مستقيمة أو فوق

أرضية متوازنة حيث لا ميلان ولا انحدار. مهمة صعبة وصامتة يتحمل عبء إنجاحها سي علي بودحان مثلما يتحمل عبء الجهل المركب عند الناس حينما يحاجّونه في عملٍ يتقنه ويدرك قيمة إتقانه والنجاح فيه. عمل يدرك سلامته، لكنهم بجهلهم يعرقلونه أو يتسببون في عطبه بسرعة وعن جهالة .

وطبعا يؤرقه كل هذا. يؤرقه أن يسمع من زبون أنه واظب على استعمال المفتاح المجوف الخاص بالنوابض الملولبة المتحكمة في حركة العقارب وفي دوران عجلات رقيقة جدا ومسننة تضمن تبادل حركاتها في توازن مع أخريات. استعمالٌ حتى حده الأقصى والذي يتقن بعضهم إفسادَ الأشياء في القيام به. لا حقائبهم تبقى سليمة حين جعل الملابس فيها، ولا أحمالهم تراعي درجة تحمل السيارة أو الدابة لها... ولا الساعات يحترمونها ! يجعلون تدوير المفتاح إلى حد أقصى تسمع معه طقطقة الآلة الداخلية:

(. أَلَم أوصيك بعدد دورات المفتاح؟ يجب أن تعلم أن لكل ساعة نابضها الخاص، حتى اليدوية منها. لكن للأسف من يجهل قيمة الشيء يجهل طريقة استعماله.

- هل تعيّرني آ سي علي؟

- لا أعيّرك. فقط أتحسر على ضياع جهدي في إصلاح الساعة. نجّاك الله من ضربة البليد.

- وما تزال تزيد !

- أترى لو أعطيت سيارة لغير متعلم للسياقة؟

- سيتسبب في حادثة سير لا محالة.

- كذلك هي حوداث الساعات يا أخي. أترى لو تعطلت العقارب وتأخرت في ضبطها لدقائق؟ إذا كان هناك موعد عند صاحبها بقي دونه ودون قضاء مصالحه أو مصالح الناس فيه ومعه. إذا كانت هناك طائرة ستحلق إلى دولة أخرى، وصلت الطائرة إلى وجهتها وبقي صاحب الساعة المعطلة دون وصول. والسبب؟ سوء ضبط الساعة).

لن يكون هذا الكلام مع أي كان. قد يتشارك فيه مع مَن ألِفَهم واستطاعوا مصّ غضبه وتفهّم سبب توتره. ما دام طبعه ليس هو الغضب دائما. طبعٌ يحتاج إلى تتبع سيرة عقوده السبعة التي عاشها من أجل فهمه. وما هو أكيد هو أن جل من يعرفه بالرباط المدينة يدرك أسرار شخصيته المتصفة بطابع الهدوء وعدم الانفعال.

لطف الله الذي ألِف منذ صغره المرور بجانب دكان سي علي بودحان، ذهابا وإيابا إلى مدارس تعلمه وملاعب رياضاته، كان يقف أمام واجهة الدكان، الباب الموارية والواجهة الزجاجية التي رغم بُنّية لون خشبها وخلفيتها الجدارية المعتمة بفعل النور الضئيل الذي يسعفها، كانت تشرق بتحف نادرة لساعات جدار أو تزيين رائعة. كان يرى فيها دقة نحت وصنع، بصمات فنانين أتقنوا وأبدعوا. يدهشه اللون الأصفر النحاسي، وذلك الفضي الذي لا يترك لخدش أو نقص مجالا في لمعانه وصفائه.

يتذكّر حوارا لأبيه مع السيد علي بودحان، وهو ما يزال طفلا صغيرا. يستغرب لرسوخ فحواه كل هذه السنين. ساعتَها كان سؤال السيد إبراهيم الحنفي، والد لطف الله، حول سرّ اهتمام السي علي بالتحف والساعات. لا ينسى ذلك الجواب الملخّص:

- قيمة الزمن والتاريخ والذاكرة وجمال العيش، عناصر مهمة ودافعة لهذا الاهتمام.

من أين أتى السي علي بهذا الجواب البليغ والمركز والجامع؟ سؤال حيّر مسار لطف الله الذهني في البحث عن جواب له.

ولأنه منذ صغره، منذ كان طفلا، كان معجبا بالساعات كآلاتٍ، معجبا بتقنيات تركيبها، مندهشا لسر حركتها وأشكالها، كان التحدي عنده يبدأ مثلما يبدأ عند هرّ المنزل الذي إذا ما رأى قطعة لحم أو قديدٍ خطّط للانقضاض عليها وحملها لركن قصي وخفي في المنزل أو فوق سطحه العلوي الذي تنفتح منه بوابة نشر الغسيل، يتسلل بالساعة الجديدة ذات المنبه الجديد والشكل الجديد، وبعد أن فرحت العائلة بالديكور الجديد الذي يزين صالون المنزل أو غرفة نوم والديه، يغلق باب غرفته فيظن الجميع أن لحظة هدوء من صخب وراحة من ضجيج الصغار قد أنعمت عليهم، لكنه هدوء سرعان ما قد يحدس أحدهم لمفاجآته أو يكتشف صدفة كوارثه. وهي كوارث كانت بالنسبة للطف الله لعِبا واكتشافا، تفكيكا ومحاولة فهم لأسرار تركيب واستعمال وعمل هذه الساعات العجيبة. سيرتاح لرؤية مكوناتها مفككة ومجزأة، كل واحدة مستقلة في عرض ذاتها أمامه فوق بساط الغرفة.

كل اللُّعب الأخرى كانت سهلة في فهم طبيعتها وصنعها. إنما هذه الساعات وكأنما تحتلها أرواح، أو هي كائنات حية في نظر لطف الله. والأخطر إذا كانت واجهتها مزينة بلوحة تشكيل موحٍ بعوالم عجيبة لابد من الوصول لها إذا. ما السر الذي يوجد داخل أقوى ساعة منبه في الإيقاظ؟ وحتى في تلك التكة المتتابعة مع وتيرة الثواني؟

وكم كان الأمر يحوّل عالمه الذهني إلى فضاء للأحداث الأسطورية، خصوصا حينما كان يرى واجهات المقاهي والمقشدات والمخبزات وهي تعرض حلويات كبيرة بمناسبة رأس كل سنة ميلادية جديدة. كان يقف متأملا عجيب إبداعها، وكان يسحره منها ما تمّ إعداده على شكل ساعة يجرها في عربة "بابا نويل" بلحيته البيضاء ولباسه الأحمر وحذائه الأسود وقامته القصيرة. يتساءل لطف الله عن طبيعة بّابّا نويل هذا، إن كانت من الشوكولاته، أو كان حقيقيا يعرض منتوجاته كل سنة فيعود من حيث أتى بعد أن حضر وعرض حجم هذه الحلويات الكبير والذي يغري بالالتهام دون تفكير.

لعل غريزة الجوع التي تختلط مع فضول الاكتشاف جعلت حبه تجديدا لاكتشاف كل ساعة جميلة جديدة. الواجهات الأجمل، كانت بشارع محمد الخامس. فقد كانت تعرض لوحاتها المتنوعة والمتنافسة على الإغراء للجميع. كان لطف الله يحتاج وبشوق لإسراع الخطو مع زمرة أصدقائه كلما سنحت الفرصة.

يختصران السبل الموصلة إلى قلب الشارع الرئيسي داخل العاصمة الرباط .هكذا تبدأ الألوان والأضواء والأشكال. وحيث إن الاكتشاف يكون دائما جديدا، فإنه لا يقتصر على رؤية أشكال الحلويات فقط. كانت رؤية فئات من الناس متنوعة ومتفاوتة. يستحضر اللباس الراقي

والأجناس العديدة التي تتقاطر على هذه المحلات من أجل اقتناء طبق حلوى شهية. ولن تكون تلك التي يجرها "بابا نويل" بالضرورة.

في كبره، استجمع كم من نكتة حول هذه الساعة وهذا الديك العجيب الذي يخترق مشهدها ولا يكل من التقاط حبوب من فوق أرضيتها. وأكثر النكت واقعية كانت من طرف صديقه عبدالله بودحان حينما حكى له قصة مَن أخذ ساعة
الديك الأحمر من غرفة نومه ووضعها في المطبخ حيث أغلق عليها داخل طنجرة ضغط ووضع الصفارة على ثقبها.

- مسخوط هذا الفروج الأحمر ! إذا تسبب لك في الأرق كنت ضحيته المشتهاة في التكات السرمدية. تراها طريقة إعدام صينية !

يبحث لطف الله عن مستملحة لكي يرد بها على صديقه عبدالله:

- قل لي: ألم يحدث لك أن قمت بإطلالة من وراء الساعة أو التلفاز؟

- لماذا؟

- ربما تجد الزرع الذي يلتهمه الديك الأحمر.

- والتلفاز، لماذا؟

- هههه... كم من حسناء بحثنا عنها في صغرنا ظهر التلفاز. ربما تخرج من ورائه.

- مسكين. كنتَ تتفرج في التلفاز من خلفه. الحمد لله أنك لم تدخل في جوف صندوقه.

تنقلب المستملحة على لطف الله سخرية وضحكا. هزل لم يحدث ملل بسببه في يوم من الأيام. إنما التورط مع الديك الأصفر أو الأحمر جدٌّ ما وراءه جِدّ. أما عمليات التفكيك التي أصبح لطف الله با رعا فيها لدرجة جعله ذلك النابض النحاسي الرقيق متحركا داخل إطاره وخارج إطار ميكانيزم الساعة، والذي يكون الضحيةَ لِلَعِب لطف الله، فستكون صعبة في مرحلة استرجاع وتجميع أجزائها، خصوصا حينما يصل إلى مرحلة ضبط العقارب وجعلها في توازن تام ودقيق ومناسب مع حركتها في الساعة والدقيقة والثانية.

هكذا تكون الورطة التي تجلب للُطف الله صراخ الأم ووعيدها وتوعدها بعقاب الأب الذي قد لا يملك إلا التحسر والتفكير في مستقبل

هذا الابن الطائش والمغامر والغريب في تصرفاته. هذا الأب الذي سيفكر كذلك في التكلفة المالية لساعةٍ ضاعت وساعة ستشترى، قد يفكر الابن في غموض التجربة وفشلها وسبب عدم تقديم المحيط لمساعدات أو الإجابة على استفسارات من أجل حلّ عقدته مع جل الساعات التي يفككها، فيمَ عمله الطفولي الحالم: كيف سيعيد تجميعها؟ ولماذا تمتلك الساعة كل هذا العالم المحكم والمتحكم في البشر؟ أليست هي من تتوعده صباحا في فصل الشتاء القارس، فتدعوه مضطرا للاستيقاظ والذهاب إلى المدرسة بعد تناول فطور مستعجل إذا ما أسعفته الدقائق الغالية قبل الانصراف؟ كم من مرة تكون ساعة المنبه عدوًّا يحرم صاحبه أو صاحبته من دفء فراش ناعم فترميه لطقس عاصف ! هكذا أصبح لطف الله فيلسوف الساعة والديك.

وفي كل مرة تتجدد أمام واجهة الدكان حواريّاتُه الداخلية واستنتاجاته المتراكمة كمّا وكيفا. ها هي الأم تضع بصمتها الخالدة بعد أن تفوّق في دراساته العلمية:

- كانَ، الله يرضي عليه، مفتونا بالساعات وتفكيكها، وبعدها بمتابعة مرائب السيارات وعمل الميكانيكي المجاور لنا. أما ثيابه فكانت آلة تمزيقها هي ساحات وملاعب كرة القدم، نستقبلها

بالصابون والفرك والغسل. لم نرتح من مفاجآته حتى رأيناه وقد أصبح رجلا قويما وطالبا ناجحا. والحمد لله على هذه الساعة التي هي من فضله تعالى.

قد تعلق الجارة: الله سيسهل عليه بامرأة جميلة ورصينة في زواجه. آمين يا رب العالمين !

- الخدمة هي الأولى يا جارتي العزيزة. آمين يا رب العالمين.

فعلا هو حمد لله، يصدر كتعبير ودعاء ومناجاة كل مرة يرفع فيها كفّيه للسماء، بعد الانتهاء من كل صلاة أو قبلها حين رفع سبابته متمما وضوءه ومجففا بلل أطرافه. فعلا كان حالما. كان عتاب أمه كل حين تاركا العبارة كلازمة تعجبه كعتاب أخير:

- هذا الولد عندي مجرد حالم. يحلم ويتمنى ويعيش في الحلم.

وهو جالس مع صديقته "حياة النفوس"، مفترشا لهما فوطة فوق حجر مسنن قبالة المحيط الأطلسي، بجانب القصبة أو البرج الكبير كما يسميها أهل الرباط عموما والتي تجعل جلستهما بعيدة عن الأنظار، محتجبة عن الزنقة التي تنحدر مباشرة من المركز الثقافي المهدي بنبركة، كان غالب شرودهما مع الأفق ومداعبة أمواج البحر، يبدأ مع سؤال:

- بماذا تحلمين؟

- وأنت، بماذا تحلم؟

ويعجبه أن يستحضر صوت أمه ونداءها له: آ ذاك الحالم !

- فعلا أنا حالم يريد أن يصبح عالما. لذلك أدرس وأجتهد في الدراسة. أنا حالم بالنظر في عينيك، أسافر داخلهما فيحملاني كزورق فوق هذا المحيط الذي يقابلنا. أجدف برمش جفنيك وشفراتك، أقاوم تصاعد أمواج تنفسّك وآهاتك. ألا يكفيني هذا في أن أكون أكبر الحالمين؟

- اللهم اجعلني أثق بهذا الحالم المجنو ن ! أنا أريدك أن تغرق في عينيّ وتستقر في جوف فؤادي وقلبي. لن ينقذك أحد ولن تنظر لك أخرى غيري.

- وكيف أتنفس؟

- تنفس قبلاتي فقط.

- كيف أستطيع البقاء على قيد الحياة يا سفينتي وبحر سباحتي؟ كيف يمكنني التنفس وأنت البخيلة عليّ في القبلات؟ دعيني أتنفس الآن من فضلك. عافاك ! بالكاد تغرب الشمس ويسدل الليل ستاره، حينها أسترق بعض جرعات هواء وسباحة ماء.

- حيلتك لن تنفعك معي، وأنت تعلم هذا. قل لي: متى ستجيبك الجامعة على طلبك؟

- لا أدري. لو كان عندي عمّ مثلك له نفوذ لأجبتك الآن.

- دع عنك أسرتي الآن. أنت تعلم بأنني أستحق شهادتي ووظيفتي. حصلت على ميزات كبيرة وتفوّق في الدراسة والبحث ومرحلة التدريب والتمرن داخل المؤسسة البنكية التي أعمل فيها الآن. وأنا حالمة مثلك بمناقشة الدكتوراه بعد الماستر. ثم إن مسألة البنك تشغلني كثيرا. لم أعد مستريحة بالعمل فيه. أريد الانطلاق إلى نقطة أبعد مع آفاق هذا المحيط. تشير بيدها اليسرى تجاه البحر، فيما اليد اليمنى تضم لطف الله من خلف ظهره، بينما لايظهر من رأسها سوى شعرها الأسود اللامع، ما دام قد ضمها هو الآخر وحضن عنقها بلطف مسافر مع هذا الحلم داخل حلم

الغروب الذي يلفّهما بسحر حمرة خفيفة، ويعدهما بهمس وتنفس خاص:

- لطف الله !

- نعم يا حياة نفسي !

- غنِّ لي: الشاطئ. تعجبني كلماتها الرائعة ولحنها ومطربها:

أين يا شط لياليك الندیات الحسان؟

أين غابت أين واراها عن العين الزمان؟

فرغت كأسي وجفت من منى النفس
الدنان أين يا شط لياليك الندیات
الحسان؟

حينما يصف لطف الله بعض لقاءاته العاطفية لصديقه عبدالله، يلاحظ تقلص حرية الحلم وحدوده المقيدة. يعلم صرامة سي علي بودحان في تربية أولاده، وهو الذي ترعرع مع عبدالله منذ صغره. اشتركا في مرحلة الطفولة والصبا والشباب. عايش كل منهما أحلام الآخر وما تحقق منها وما انكسر أو استحال إنجازا. وطبعا، لدائرة العواطف مساحة كبرى في البوح والاستشارة والاستعراض كاستحقاق وكمنتظر.

محل سكنى عائلة بودحان بشارع عبدالكريم الخطابي. شارع موازٍ لشارع المقاومة. قد يلعب الصديقان جولة شطرنج فيوزعان الأدوار بين المعسكرين. قد يوظفا رمزية أسماء الساحات والشوارع والأزقة والمؤسسات على كل بيدق ومحطته ودوره في مراحل اللعبة أو الجولة. وقد يشاكسان في صراعهما دفاعا عن أنثى، عن معشوقة، عن حلم. إنما كل جولة تكون فيها محطات قوة ومحطات ضعف. كذلك هي الحياة. كذلك هي التأوهات والمشاعر المرافقة ،لحظاتٌ تفجر بركان المشاعر مع الأنفاس:

- ألا تلاحظ أننا نتقاسم نفس الأدوار وقدر الأسماء والعناوين؟

- كيف ذلك يا عبدالله؟

- لاحظ معي: سجن لعلو الذي يرسو فوق ربوة مطلة على بحر القراصنة من جهة، وعلى مسار شارع الجزاء الأكبر من جهة أخرى. وكأن منتهى الجزاء هو هذا المقام السجني.

- أين تسكن الآن؟ ألست في شارع المقاومة بموازاة مع رائدها السيد عبدالكريم الخطابي[1]؟ لم تصل بعد إلى ساحة الشهداء. قم بالتضحية بذلك الحصان المسكين. يبدو أنه سينقذ مَلِكتكَ. شهيد الحب. يا سلام.

- بل شهيد الواجب. لعنة الله على هذا الوزير. سأترك لك الحصان. ولكن لا تنس. مَلِكُك مهدد بعد خطوتين. دبِّر أمرك. لن أرحمك يا عبدالله.

1

• .يجب التمييز بين تسميتين: عبدالكريم الخطابي ومحمد بن عبدالكريم الخطابي. الاسم الثاني)محمد بن عبدالكريم الخطابي 1882/1963م، هو لرائد المقاومة شمال المغرب بجبال الريف ضد الاستعمار الفرنس ي .مثقف وديبلوماس ي استطاع هزم الإسبان في معركة أنوال الشهيرة سنة 1921. أما عبدالكريم الخطابي فهو والده وهو المقاوم والقائد لقبيلته ضد الاستعمار. توفي مقتولا بينما كانت وفاة الابن بعد ذلك بمدة طويلة بالقاهرة، بعد طلب اللجوء السياس ي في مصر واستقر هناك لسنوات عديدة وجديدة في النضال.

تتوقف جولة الشطرنج وتنسكب الدموع من عيني عبدالله فجأة، ليس بكاء، بل لكثرة الضحك المتفجر الجديد. عبدالله بودحان وإن كان يمارس رياضاته، لكنه لكثرة حبه لطواجين سمك السردين والتي قد يتناولها ليلا بعد منتصفه، أصبح أضخم مع وزن زيادة وخدين عامرين متوردين تغطيهما لحية سوداء تزيد من ربعته وغلظة بنيته. بخلاف أبيه علي بودحان، كان عبدالله بدينا مربوعا يميل لشبه أمه وأخواله.

- ما الذي يضحكك أيها الأبله؟

لاحظ معي: اتجاهات السيارات تأتي من شارع المقاومة، المدار في ساحة الشهداء، الرجوع مع شارع عبدالكريم الخطابي، محطة الوصول مركز المهدي

بن بركة. المركز مؤسسة كنسية قديمة وكبيرة. وكأن احتضان الشهيد[2] الأكبر مؤسسة غريبة عن المحيط كذلك.

2

- تعلَم ! سأجعلك تخسر المبا راة: كش مات ! Echec au roi . ما بقي لك سوى منحدر زنقة روما والغرق في المحيط.

- ولد الحرااااام ! أنت تجلس مع خليلتك للرومانسية، وأنا ترميني للغرق.

- . نريد اصطياد سمك سمين نولم به حي المحيط. ستكون جثتك وجبة دسمة للجميع حول محيط المركز الثقافي. تجار المستعملات وتجار الخضر ومحلات السانيتير.

صخب ضحك عبدالله مغاير للهدوء والثبات الذي يتطلبه مناخ جولة شطرنج في أن يكون كاملا وتركيزا. مخالف لما هو عند أبيه سي علي بودحان. يغلب على الأب الابتسام ويغلب على الابن الصوت الجهوري والضحك الجنوني.

طلع الولد لأمه.

• . الحديث هنا عن الشهيد المهدي بن بركة طبعا، والذي اغتيل بالديار الفرنسية بعد ان اختطف من مقهى ليبّ بشارع سان جيرمان بالعاصمة باريس، باشتراك بين أجهزة مخابرات دولية.)1920/1965م(. قائد سياس ي ومناضل أممي كانت له كاريزما سياسية وحزبية وحضور في تقوية التضامن بين الحركات التحررية ومؤتمرها في القارات الثلاث قبل اغتياله.

هكذا هي عبارة عابرة ينطق بها جل من يلاحظ الأب والابن ويقارن بينهما.

كان على عبدالله بودحان أن يتأقلم مع عالم التجارة الجديد. انتظر سي علي مدة دراسته ونيله للشهادة الجامعية التي يريد. وكانت الخيارات متعددة أمامه. اختار منها الذهاب إلى بلد أوربي ليتمم دراسته. قضى سنتين هناك، وحصل على ما يريد. حين عودته إلى العاصمة الرباط، انتظر مع المنتظرين. شاهد عناء إعطاء الاعتبار لديبلومه. لكنه عاد للخيار الذي اقترحه عليه عمه عبد الملك بودحان. طلبٌ بسيط عليه أن يترجمه في مهمته والذي يتجلى في كيفية تحويل ممتلكات الأسرة الكبيرة إلى مجال تدبير استثماري معاصر. وهو الذي حصل كذلك وبالموازاة على ديبلوم في التسيير المقاولاتي.

إنهم الإخوة بودحان. من يرى سي علي يظنه حرفيا وساعاتيا يتوقف عيشه ورزقه على إنجاز الطلبات وبيع الساعات. لكنه الطفل الذي هاجر من الجنوب في اتجاه مدينة الدار البيضاء، وشاء له القدر أن يرسو كنورس بمدينة الرباط. قصة هجرته يمتلك أصدقاؤه بعض أسرارها. فلسفة مشيهم بعد صلاة الفجر والتي يبدؤونها من ساحة الشهداء مرورا بساحة باب الأحد، ثم اختيارهم الذي ينوع بين المسارات كل مرة. لكنه يلتقي في الرجوع من جهة شارع النصر حتى تقاطع الشارع

المؤدي إلى المحطة الطرقية للحافلات (القامرة)، والشوارع الثلاثة التي ستعود بهم إلى حي المحيط. يتجنبون مع كل هذا المسار الطريق الساحلي الذي تزحف عليه رطوبة المحيط الأطلسي والتي تفسد جهاز التنفس غالبا.

واكبوا طقسهم في المشي لسنوات عديدة بحسب الظروف والأحوال. كانوا خمسة، وقد يتقلص العدد أو يزيد بعض الأحيان. لكن خمستهم فرشوا سيرة حياتهم على مدار الشوارع والطرقات التي عبروها راجلين عبر هذه السنين.

وما الذي يتبقى لهم بعد أداء صلاة الفجر وقراءة ما تيسر من القرآن الكريم؟ بعد انبلاج نور الصباح خلال بداية مشيهم؟ صفاء روحي وانتماء لجماعة مصلين، استغفروا ربهم وطهروا أنفسهم وعرضوا سيرتهم خلاله. لعلّهم يكونون واضحين وصادقين أمام خالقهم الذي يبارك صحبتهم ووفاءهم، حيث لا يبقى من المدينة سوى هدوئها وصفائها كل صباح، سوى مصابيحها التي تصبح أجمل حينما تعبر لهم عن مشاركتها في قصة كل صباح بأنوارها، وبخطواتهم وظلالهم الملائكية وحواراتهم الآمنة من كل ما تسجله أنوار المدينة من أفعال الناس وتدابيرهم المعبرة عن نواياهم خلال الفترات الليلية.

هكذا تكتمل سيرة سي علي بودحان في عقده المتجاوز للسبعين. وكأنه الأمس القريب وليس بداية الستينيات من القرن العشرين، حيث كان صبيا جاء للبحث عن عمل أو لتعلم حرفة. لكن الجل يتساءل عن سر اختياره لمهنة الساعاتي. في إحدى أجوبته السيرية يلخص ذلك السرّ في كلمة واحدة:

- الوفاء والحفاظ على الأمانة.

الأسرة التي طرق بابها مرافقُه ووليُّ أمره حين مجيئه لمدينة الدار البيضاء أولا، كانت قد سافرت خارج البلاد قبل يومين من مجيئهما. كانت أسرة يهودية من بين يهود عرفوا نزوحا خارج بلاد المغرب. لم يسأل عن السبب. لكنه نظر إلى مرافقه الذي يرعاه كعم له وكراشد من قبيلته يعمل على إيجاد فرص شغل وعمل وتجارة لبني عشيرته وقبيلته. وكان الحسم في الذهاب إلى العاصمة الرباط بعد ذلك. ربما سيجد أسرةً أصولُها من سوس ستحتضن هذا الصبي الجديد.

ستكون ليلة مقمرة وصافية، وسيكون المناخ معتدلا وقليل الرطوبة حيث يصبح التنفس سهلا مع الكلام. وكان الصباح الذي تلا هذه الليلة هو الذي جرى فيه حديث سي علي عن قصة مجيئه للرباط بلسانه مع جماعته من الأربعة وهو خامسهم طبعا:

- كانت لغتي العربية محدودة في التواصل. ما حفظته وتعلمته من القرآن الكريم بقي راسخا بلغته العربية الفصحى. لكنني احتجت إلى الدارجة وإلى اللغة الفرنسية أكثر. حي المحيط سنوات الستينيات ليس كما هو اليوم. شوارعه كانت تعرف حركات سياسية ساخنة، وكانت التناقضات تميز أناسه أكثر. أما اليوم فقد تدنّى مستوى كل شيء. ما كان رُقيا آنذاك أصبح يمارس بشكل مبتذل اليوم.

رافقت التربية ذلك الرقي، وكما ترون اليوم، رافقت الرداءة هذه الأشكال من اللباس والسلوك وطريقة العيش. لم أتخيّل في يوم من الأيام أن تصبح المدينة أكوام أزبال هنا وهناك. حتى الناس أصبحوا وكأنهم ينتقمون من الرقي ومن نظافة المدينة.

تركت قريتي الصغيرة وما تزال رائحة التراب والدوم تملأ خياشيم أنفي. كنس الأم وأثاث منزلنا الصغير والبسيط، كلها أمور كانت جميلة. حينما تمتد يدها في الكنس للمسالك المتربة حتى منحدرات الطريق المشترك ومدارات الأشجار والسدرات، أكون مقرفصا فوق صخرة بجلباب قصير بالكاد يغطي ركبتي حين جلوسي، حافي القدمين، متأملا عملها اليومي، والدجاج الذي يقصد الأرجاء بحثا عن قوته وفي نفس الوقت في تنقية لهذا المحيط من كل الديدان والحشرات والزواحف،

وبسمة الأم وهي مطمئنة لسلامة دائرة جلوسي من كل ما يخيف أو يهدد كهواجس... ياه ! حنين يحملني على ذرف الدموع حين أرى اليوم إحداهن أو أحدهم يرمي ما كنسه فوق الرصيف أمام منزل أو دكان، وصندوق القمامة لا يبعد عنه سوى بأمتار.

وأنا طفل صغير، شحنته محركات الحافلات والشاحنات والسيارات القليلة آنذاك، والتي أكتشفها أول مرة في الطريق وداخل مدينة الدارالبيضاء ثم الرباط، ما تزال صورة شاحنة موسيو مونيي الزرقاء لاصقة في مرآة ذهني بجانب كنيسة سانت جوزيف.

اشتغلت معه وأنا صبي صغير. كان الدكان الأول بشارع الكنيسة والذي أصبح اليوم يسمى شارع عبدالكريم الخطابي. خلفه كان محل سكناه وعائلته .

أما حديقة المنزل فكانت مواجهة لشروق الشمس بالزنقة الجانبية، وبها غرفة صغيرة آوتني واحتضنت آمالي وأحلامي كصبي سوسي جاء إلى مدينة الرباط.

اشتغلت بنظافة الدكان وحمل سلعته وترتيبها. تكلفت بسخرة المنزل والتي بدأت تتسع مهامّها إلى شوارع أخرى وأحياء اكتشفتها هي الأخرى. أما يوم الأحد فكنت أخصصه للمشي والتجوال والاكتشاف. كلما

استرحت بجانب جماعة التقطت ما يفيدني لكي أتأقلم وأتعلم من دروس الحياة في مدينة الرباط.

بعد أربع سنوات، قرر موسيو مونيي مغادرة بلاد المغرب. لم يبِع منزله ولا دكانه كما فعل آخرون. باع الشاحنة نعم. قرر إغلاق المحل والبيت وترك لي مفتاح الحديقة وغرفتها الصغيرة. حينها انتقلت إلى المحل الجديد للعمل عند السيد فارغاس. وكانت رحلتي بين الفرنسية والإسبانية. وكانت العوالم الجديدة التي ستفتح عيني على مدينة الرباط الكبرى وعائلاتها وأحداثها.

يلتقي السيد فارغاس بأفراد من عائلة باركاش الكبرى ويتبادل معهم الحديث حول التسمية والأصل. يتباهى هؤلاء بأصلهم الأندلسي ومجدهم التاريخي، في حين يدعوهم السيد فارغاس إلى حب جديد وتاريخ جديد:

(. سأستضيفكم في الأندلس إن شاء الله Si Dios quiere . نحن من تسمية واحدة كما ترون. ربما نكون من شجرة واحدة هناك).

حينها أدركت أن الرباط أقوام وأنا قوم واحد. أبناء عمومتي كانوا قلة بالعاصمة، لكن السنين غيرت خريطة كل شيء لا بالنسبة للناس ولا بالنسبة للعمران.

ها نحن قد صلينا وأدينا واجبنا تجاه ربنا هذا الصباح. لا تقبل الصلاة بدون نية، بدون صدق، بدون وفاء بالأمانة: أصبحت في مقام أولاده الذين هاجروا مع زوجته إلى أوربا. أصبحت ذراعه الأيمن في كل شيء. حتى الطبخ، كنت أعدّ له طاجين السمك الذي يحبه، وأغسل الأواني وأنظف المنزل، إلى جانب مهام الدكان. كان موسيو فارغاس ساعاتيا ماهرا. حين يبوح لي بسر بقائه بالمغرب أشعر بقشعريرة وغيرة من هذا الحب وهذا الصدق الذي تحمله كلماته:

(لم آت إلى المغرب كمستعمر أو معمر. لم آت لاستغلال خيراته. بالعكس ،بلد المغرب آواني وحضنني حينما نزحت من بلادي الإيبيرية والأندلسية الإسبانية. لم نكن نطيق ديكتاتورية نظام الحكم؟ ربما نفس الأمر الذي جعل عائلات باركاش ومولينو وغيرها تضطر فيما مضى لمغادرة الأندلس، حملني أنا كذلك اليوم أنا: فارغاس خوس . فارق واحد فقط هو الدين. لعل المسافة التي توجد بيني وبين الدين ستلاحظها عند مغاربة كثيرين. انظر إلى حانات حي المحيط، إلى رواد القمار وسباق الخيل، إلى قراصنة المال والإدارات الجدد، كلهم بعيدون عن الدين أكان إسلاما أم مسيحية. أوصيك دائما وأبدا: إياك وشرب الخمر أو لعب القمار. باب اللذة الجميلة، لكنه منحدر الغرق مثلما ترى هذا المنحدر المؤدي إلى شاطئ المحيط ومياهه وأمواجه. انظر: قبل

الغرق، هناك الارتطام ثم التلاطم بين الأحجار والأمواج قبل أن تغرق وتأكلك الحيتان).

كانت زيارة عائلة مونيي لبلاد المغرب بعد سنوات عديدة. كنت قد تزوجت منذ مدة في مناسبة عيد الأضحى حين ذهابي إلى بلاد سوس. تركت زوجتي هناك مع أمي وأهلي، ولم تكن الزوجة سوى ابنة عمتي التي تقطن بنفس الجبل والقرية غير بعيد عن أغادير، مدينة الزلازل. لا يسأل الناس عن السر الأكبر وراء نزوح أهل سوس إلى أقاليم عدة. وهو سرّ لمستُه عند من هاجر بعدي. من عاش الزلزال يشعر به طبعا. أن تهددك الطبيعة بالفناء وأن تنام وأنت قربان مقدم لها في عز نومك كسمكة سيبتلعها حوت كبير فتح فمه للموجة الكبيرة التي تتقاذف السمكة الصغيرة، هي صورة الخوف الذي ملأ قلوب الناس رعبا وحوّل نومهم إلى كوابيس.

الرعب الذي امتلكنا بعد ذلك الزلزال كأنه يوم القيامة في قلوبنا، لأنه شتتنا في هذا الكون فلم نعد نصدق أننا سنلتقي يوما. ما يزال سي لحسن السوسي حيا. ذلك التاجر القديم قرب زنقة نيويورك. سي لحسن فقدَ عددا كبيرا من أفراد أسرته في زلزال أغادير. تكون المسافة قصية في القلب أكثر مما هي قصية في الطريق.

أستحضر الآن سرّ اهتمام ذلك العم الذي رافقني وبحث لي عن حياة جديدة بالعاصمة الرباط. ربما لم تعد منطقة سوس كافية لجميع أبنائها. عليهم أن يسرحوا في بلاد الله الكبيرة. لقد تعلمت أنّ سُكون القلب هو السكن الكبير. كان السكون بذكر الله والتعلق برجائه، والحمد لله.

سألت عائلة مونيي عني حين زيارتها للسيد فارغاس، إذ لم يجدوني في سكنى الحديقة. أخبرهم بسفري وزواجي وزيارتي لأهلي وزوجتي. انتظروا رجوعي بعد عشرة أيام ليعلنوا لي الوصية التي تركها موسيو مونيي قبل وفاته وبعدها .

استلمت المنزل للسكنى بينما بيع المحل التجاري، ولم يكن المشتري سوى موسيو فارغاس. كانت قدما زوجتي مقدم سعد عليّ وعلى حياتي الجديدة. بعد سنة من ذلك أتت هي وأمي معي إلى مدينة الرباط، وكان مولودي الجديد الذي أفرحني .

سميته (سعيد) تيمنا بسعدي، هو البكر الآن. أما آخر العنقود فهو عبدالله .

وفرق بينهما طبعا. تلاحظون حمق شباب اليوم وأفكارهم الغريبة.

يعتبر حي الرياض الأفق الجديد للعاصمة الإدارية الرباط. يرتبط بعالم المال الجديد وعالم المؤسسات الاقتصادية والقانونية والتجارية. حتى التمثيليات العالمية في سفاراتها وقنصلياتها ومرافقها ومؤسساتها الثقافية وغيرها وجدت في التوزيع المحكم لهذا الجزء من العاصمة الرباط متنفسا لتطوير حيويتها الديبلوماسية والثقافية وأنشطتها ودوائر تفاعلها.

هكذا أصبحت هذه المدينة تتنفس من جديد. كانت في حاجة إلى إعادة تشكيل خريطتها بما يناسب مكوناتها، ومستويات عيشها، وتناقضاتها. لكن هذه الصورة الجميلة لحي الرياض ولتطور المدينة لم تسلم من جدلية التناقضات ومن اختراق ما هو خارج عن القانون مما هو داخل في حدوده المطلوبة.

كان معروفا بمكتبه الجديد. اختار له حي النخيل، ذلك الشارع الراقي والذي يضاهي الشوارع العالمية في أناقته ورقيه وفضاءاته وشساعته. طلعتُه الأنيقة كانت دائما في بذلة متجددة بألوان مفتوحة ومواكبة للموضة، ربطات عنقه اللامعة وياقات أقمصة تسجل هي الأخرى مع أحذيته لماركات عالمية كذلك. تشرق من عينيه العسليتين

ابتسامة تجعل احمرار خديه أجمل ما يناسب شعره المائل إلى حمرة خفيفة. كما أن ابتسامة شفتيه تحدث جاذبية وفضولا ورغبة في اكتشاف شخصيته ووسامته والتعارف معه والتعامل.

من يكون السيد عمر بدوي هذا؟ جلسةُ مكتبٍ يستقبل زبناءه فيه، مستوردٌ من شركة إيطالية، ويفتخر بجعل صورة كبيرة خلفه باللونين الأبيض والأسود. جدارية هي، تجرد الناظر لها من كل ما شغل به ذهنه، من يوميٍّ وصخب وحركيةمدينة: (سيارة فيراري من النوع التقليدي الرياضي ذات البابين فقط، حيث يقف بجانب بوابة السياقة رجل أنيق يحيي الملتقط للصورة بقبعته البيضاء ذات الياقة السوداء العريضة. بينما اليد اليمنى في وضعية تأهب لرفع تلك القبعة في اتكاء صاحبها بمرفقه على سطح السيارة. تمسك اليسرى سيجارة رقيقة ينفلت منها دخان أبيض قد يترجم الابتسامة ليعبر عن حب للحياة وامتلاك لنعيمها ورغبة حتى في الممنوع فيها تذوقا ومغامرة، مغامرة تجعل دخان السيجارة المنفلت يرتقي لسحابة خفيفة بيضاء تخترق زرقة السماء. وطبعا هي اللوحة وما أتاحته من تشكيل مع الصورة).

كيف لا يستنتج الناظر للصورة أو اللوحة كل هذا وبطلها يجعل ساقا أمام أخرى حيث تصبح اليمنى راقصة واليسرى عمودها المتحكم في الحركة. وهل تم الإشباع في تأملها؟ قد لا يتحقق فعلا، خصوصا إذا

ما كان الحوار مع السيد عمر بدوي طويلا وممتدا في مواضيع شتى قد تخص مجال العمل والخدمات مثلما قد تخص حديث الحياة ومرافق الأندية وجماليات العيش فيها.

فوق مكتبه ما قد يوحي بالتشابه بين هذا الفنان أو الممثل الإيطالي المشهور وبين السيد عمر بدوي صاحب الشركة والمكتب العصري الفاخر. قبعة أجمل وعلبة سجائر مسجلة بماركة أجنبية مستوردة ورائحة دخانها التي تسجل حضورها بعطرها الخفيف حيث لا يترك نظام التهوية مجالا لاختناق فضاء المكتب بها. واجهة المكتب الزجاجية والمكشوفة على الشارع الكبير الذي يتبادل معها منظرا عاما وفرجة ممتعة لعالمين: عالم مكتب شركة السيد عمر بدوي، وعالم شا رع النخيل بحي الرياض.

كان السيد عمر حريصا على الظهور بالمكتب كل صباح. يقف خلف جداره الزجاجي متأملا السماء كما خيالاته التي تسبح فيها حلما ومغامرة وتحديا. وبالنسبة لبلد في طور النمو، كان السيد عمر فأل خير في جلب العملة الصعبة وفي تمتين اقتصاد وتجارة مع أسواق وشركات أوروبية رفيعة، وكذلك في حسن اختيار مشاريع البناء والعمران ومواقعه الاستراتيجية. يدخن سيجارته التي يفتح لها نافذة صغيرة لكي تنفلت عصافيرها البيضاء أو الرمادية فتخترق الهواء الخارجي. قد

يستغل هو الآخر هبوب نسيم هواء عبر ما هو موارب منها فيستنشقه بملء رئتيه حتى يحقق ذلك الشعور بأنه استفاد من صباحه ومن سيجارته ومن مدينته. قد تكون العشر سنوات التي ألف فيها حي الرياض مكتب السيد عمر بدوي كافية لكي تحقق التعارف وتبادل المصالح واكتمال ملف شخصيته ونشاطه وموارده كما مخارج معاملاته المالية والتجارية والضريبية.

ومثلما يحاول ألا ينام إلا بعد أن تكون غرفته صافية من كل أعقاب سجائر أو رمادها أو رائحتها الخانقة بعض الأحيان أو من بقايا طعام أو كؤوسٍ نصف مفرغة، مثلما يحاول كذلك أن يكون مكتبه وأوراقه وملفاته وتوقيعاته بنفس درجة الحرص والحذر.

أما المدينة القديمة بالعاصمة الرباط فقد يأتيه الحنين إليها، لكنه يؤجل كل مرة ولوجها كما زيارة الأحياء المحيطة بها، ومنها حي المحيط طبعا المجاور للمحيط الأطلسي ولأسوار المدينة العتيقة. ربما سلوكه اتجاه المطار إما بمدينة الدار البيضاء أو الرباط سلا يكون أكثر من سلوكه اتجاه وصوب الساحل الأطلسي وعوالم عيش الناس فيه.

إنه لا يبالغ في كل هذا حينما يكون في حكيه عنه لأحد مجالسيه. إنه عمر البدوي المغربي الذي تغرّب مدة طويلة وعاد لأجل بلده، ولأجل مشاريعه داخله.

تهمُّه النخبة الديبلوماسية، والمنتخبة والغنية التي لها علاقة بأعماله أكثر.

جناح بيع السيارات الرفيعة مرفأ كبير يمتد خلف المكتب وخلف الأشجار الخضراء الرائعة في بهاء أوراقها وتراقص أغصانها. أما فضاء المكتب ومهامه فهي للخدمات المختصة بطلبات السفارات والقنصليات والمقاولات التي تريد الاستثمار في بلد المغرب. وطبعا سيكون التحدي مرتبطا بكسر الحدود التي ترسمها السياسة وحذرها، بكسب الثقة في إنجاز أعمال الصيانة والتركيب لأجهزة إنذار وكاميرات المراقبة وتجهيز يوافق مستوى مرافق عوالم حي الرياض.

ستكون اللعبة شيقة حينما يلج بعض رجال المال والأعمال ونسائهما مكتبه تلبية لفضول أو تحققا مما سمعوه أو مباهاة في نيل خدمات تضاهي مستوى العيش الديبلوماسي المنتشر في العاصمة الرباط. يشعر بأنه الرقاص الذي يتقن لعبته، حيث يُجهد محاولاته تمايلا ويوقع ضرباته وتكّاته كبندول آدمي يمتلك سحر عوالم ساعة جدار كبيرة معمرة في زمنها الحركي والإيقاعي.

وتمتلك السيد عمر بدوي رائحة الخشب. يحبها كثيرا. هل لكونها رائحة مكتبه أم سيجارته التي مصدرها خشب وورق ونبات ومكونات

طبيعية ومزهرة؟ هل لكونها رائحة طفولته التي ابتعد عنها بآلاف السنين بقياس الذاكرة المطمورة التي لا يستحضرها إلا قليلا؟ وحده يعلم السر وما يخفيه فيه. فعلا، هو الآخر له ساعة جدار كبيرة في لون أسود وخشب بجودة كبيرة، تقف في زاوية من غرفة جلوسه، مقابلة لشاشة تلفاز كبيرة في الزاوية الأخرى.

هي هوايته في حرصه على صيانتها وتجديد عمل بندولها وتنظيف مكوناتها من كل ما قد يعلق عليها. دائرتان ترتسمان فوق ساعة الجدار الماثلة أمامه، الأولى كبيرة تحمل توقيع ألبيرتو موري في أرضيتها، والثانية صغيرة أسفل منها مهمتها في الحرص على اكتمال دورات عقرب الثواني واكتمال الدقيقة معه. ورقاص ساحر أعرض وأقصر، مهمته ذلك الميلان المنحني لجهة الشمال. الحروف البارزة في الدائرة الصغرى: E . S. O.N . ترمز للجهات الأربع في الاتجاه. وحينما ينحرف العقرب عن حرف شN الدال على الشمال مع كل تموقع جديد للساعة الجدارية، يدون السيد عمر بدوي ويوقع ضحكته التي تترجم حكمه عليه:

- فعلا، إنك عقرب أحمق أو إنك عقرب ماكر، تخون المكان وصاحبه.

أما الدائرة الكبرى فأربعة أرقام رومانية كبيرة: III و VI و IX وXII. عقرَبا الساعة والدقيقة منتظمان ومحترمان لحركاتهما كعسكريين ملتزمين بدورياتهما المتجددة.

ساعة جدارية تجمع بين مرحلتين تاريخيتين من تطور نظام الساعات واختراعها وتقنياتها. بين مرحلة ميكانيكية ومرحلة نظام الكوارتز، قبل أن تأتي المرحلة الرقمية المبرمجة بالبطاريات، والدقيقة في صنعها بفضل المعامل الإلكترونية العالمية المتطورة اليوم.

هكذا اطلع على معلوماتها وصُورها الأربع في المطوية أو الكاتالوغ الخاص بها حينما قرر شراءها في مزاد مغلق بمدينة ميلانو الإيطالية. خطوة زادته ثقة مثلما زاد ته ثقة المتعاملين معه في الصفقات القائمة والآتية بعدها. ساعة جدارية دخلت ومرت في ظروف عادية مخترقة كل مراقبة وبعيدة عن كل توجس من قيمتها وحقيقتها. استطاع السيد عمر بدوي أن يبعثها مع أحد المغاربة الذين يدخلون المغرب بسلع وتجهيزات مستعملة قديمة يعيد بيعها بالأسواق المغربية وأرصفتها. لم يَبدُ عليها أي شيء يميزها، خصوصا وأنها أفرغت من بندولها وكل العلامات التي تظهر توقيعها. تربعت داخل جوفها مواد غذائية معلبة كالبن والمكرونية وغيرهما. قد تسخر الجمارك من هؤلاء الذين ينقلون

حتى المتلاشيات والنفايات الصلبة. والساعة اعتُبرت شيئا غير صالح للاستعمال وحصلت على تعليقها الخاص:

- خلّصتم أوروبا من جميع أنواع النفايات. تبارك الله عليكم !

كم كان السيد عمر بدوي يتمنى أن يجعلها بتوقيعه باسمه، وبحروف مائلة وخط روماني قديم بدل اسم روبرتو موري. لا يهم أرق هذه الأمنية إذا لم يتحقق في حينه، فقد وعدها بذلك في اقتناء تحفة أخرى تكون ساعة جدار طبعا وينقش عليها حروف اسمه. لكن الأمنية جلبت معها حادثة المبرد الذي اخترق بطنه، وجعلت حبه لساعات الجدار العتيقة منصهرا مع رغبته في الخلود والتي ستسجلها باسمه بعد مماته.

في طوله الذي يسجل المتر وتسعة وسبعين سنتيمترا، يجعل صفحة يده اليمنى فوق سطح الساعة الخشبي الناعم والأملس والذي ينقصه طولا بأربع سنتيمترات تقريبا، ويجدد العهد الوجداني الصامت والمعبر عن افتتانه بساعته وتحفته النادرة.

ربما كان حلم شمس الأصيل أحلى وأشهى ما تمنته حياة النفوس في حياتها فتحقق به ما يملؤها سعادة ومرحا وغرقا في العشق. انتظرت في وظيفتها الجديدة أي جديد سيحفزها على الاستمرار وعلى العطاء أكثر. مرت ثلاث سنوات، وها هي في نفس درجات التسلق الأولى. تجلس أمام مرآتها وتنظر إلى جفنيها المتهدلين.

رغم أن حسنها ازداد نضارة، لكن التعب امتلك عينيها وبصمات يديها، وامتلك روحها أكثر. ميزة التوظيف السريع الذي استفادت منه لم تسعفها في الخروج من دائرة المهام الشاقة اليومية التي تسرق منها ساعات شبابها. ثمانية آلاف درهم كراتب شهري لم تعد كافية لتغطية مصاريف امرأة أو بالأحرى فتاة في عز ريعان شبابها. فتاة ترتقي في اختيار لباسها وعطرها وأحذيتها، ترتقي في أسلوب عيشها الذي خلط عليها الأوراق الطبقية وأوساط العيش المناسب لها.

كان عمها الذي شغل منصبا إداريا مهما صاحب نفوذ وعلاقات. لكن هذا العم تقاعد الآن، ولم تعد له نفس الهيبة التي كانت من قبل. يستنتج كل واحد هذا الأمر. لقد كان الناس يتعاملون مع المنصب، أما الشخص فلم يعد له أي دور الآن. استفادت حياة النفوس من توصية

عمها في توظيفها بوكالة بنكية في أرقى حيّ بالمدينة، لكنها الآن لا تمتلك سوى كفاءتها وقدرتها على تحقيق الأفضل في مهنتها وحياتها. وحرقتها دائما مستوى عيش أسرة عمها الراقية بالمقارنة مع مستوى عيشها البسيط والمقاوم لظروف الحياة وأزمات المجتمع داخل شارع أراد أن يكو ن بتسمية شارع المقاومة والكفاح.

من بين زبناء الوكالة المهمين، والذين تخدمهم باستمرار ودقة وابتسامة، يوجد السيد عمر بدوي. منذ أكثر من سنتين ألفت حياة النفوس هذا التفاعل مع شخصيات متنوعة وراقية. قليل من الموظفين كثير من الديبلوماسيين والمقاولين من الذكور وا لإناث. لكن عمر بدوي دأب على توقيع لمسات حضوره بصوته الذي يعم القاعة بنبرة متميزة وبدلات أخاذة بألوانها المتناسقة ومبادراته بتقديم هدايا في مناسبات رأس السنة الجديدة أو بعد نجاح صفقة من صفقاته. هدايا لم تأخذ طابع رشوة يوما ما، ما دامت تتم في إطار خارج الصفقات وتصفيات إجراءات وتتبع ملفات.

نظرته لها، وهجومه على خجلها الحذر وليس المرَضي، سؤاله لها عن أحوال العمل وخصوصيات العيش اليومي بالعاصمة والوكالة، أمور قربت بين الطرفين في التعارف ومزيد حوارات ومناقشات. حينما أتيحت فرص تناول وجبات غداء أو فنجان قهوة سريع بإحدى المطاعم القريبة

من البنك ومن مركز النادي الرياضي، كان التقرب إلى واقع كليهما وظروف عمله واشتغالاته. كانت ترقية حياة النفوس في عملها البنكي مرتبطة بطلب الانتقال إلى مدينة جديدة وصغيرة بعيدا عن الرباط وعن حي الرياض، هي مدينة تيفلت. كان قرارا صعبا جعلها تضحي بأمل تطوير وضعها من أجل الحفاظ على هذا العيش الأنيق ومناخه الجميل .

اقترح عليها السيد بدوي تقديم الاستقالة والاشتغال معه في مكتبه وإدارته.

الابتداء براتب خمسة عشر ألف درهم، وبفسحة وقت تمكنها من التفرغ للدراسات الجامعية أو المهنية العليا إذا أرادت ذلك. كان على حياة النفوس أن تفكر مليا في الخطوة المناسبة والقرار المناسب كذلك. كان عليها أن تتابع موظفين وموظفات قرروا الهجرة خارج المغرب. ما يهبه التوظيف لا يكفي لتطلعات الرقي في مستوى العيش وتكوين أسرة وتربية وتعليم للأولاد بشكل أرقى. أمامها نماذج أسر تعاني ظروفا صعبة في تربية وتعليم أولادها. تكلفة متزايدة وقروض متتابعة، وفي الأخير، لا يجدون من حلول سوى في بعث أولادهم خارج المغرب وبتغطية مالية مرهقة تصل إلى عشرات وعشرات الملايين ومعها ربما بيع منزل السكن لأجل تغطية سنوات الدراسة بالخارج. أمامها السيد عباس باهي،

الموظف البنكي الذي باع شقته بحي أكدال وبعث ابنه إلى الولايات المتحدة لكي يتمم دراسته هناك، في حين انتقل هو وزوجته لشقة مكرية.

تندهش لاستنتاجاتها ولحدسها الذي يضيق آمال المستقبل الشخصي لها .

كيف ستكون وضعيتها بدلهم؟ هل تملك ما يكفي لكل ذلك؟ هل سيسعفها زواج عادي في تحقيق مستويات الرقي الجديدة وشروط الجودة داخلها؟ تأتيها هذه الفرصة غير الملزمة طبعا. لكنها تفكر، وتشرك معها المقربين والصديقات وذوي الخبرة، تشرك معها لطف الله الذي لا يجد ما يبرر به تشجيعه لها سوى تمنيه لها بالمستقبل الذي يسعدها .

لطف الله الذي لم يسعفه الحظ في التوظيف بعد. يتابع بصمت داخلي هذا التباين في حظوظ العيش ويوميّه، ولا يملك سوى أن يتسلح بتوازن ضاغط على كل توترات قد تنتج عن هذه المقارنات. هو لا يعرف هذا الشخص الذي عرض عليها فرصة عمل جديد ولا هذه الشركة، لكنها ظروف الحياة الإدارية الجديدة المرتبطة بمؤسسات نوعية ظهر وجودها بالمغرب كما ببلدان أخرى. فروع لمركزيات مالية وخدماتية

عالمية اختارت المغرب من أجل العمل والإنتاج، واعتُبِرت شركة السيد عمر بدوي من بينها اجتهادا.

كان لطف الله بالمقابل والنقيض لمسار صديقته حياة النفوس يأخذ مسار المناضل الجديد. هذه المرة ليس داخل الكليات أو ممرات المدرجات والأجنحة. هذه المرة ستصبح وجهته مقر بناية النقابة التي آوت المتظاهرين في شوارع العاصمة الرباط. يرى بعينيه أصحاب ديبلومات مختلفة يطالبون بحقهم في الشغل وفي خدمة بلدهم. استحقاق لكفاءاتهم التي يريدون إفادة وطنهم بها، لكنها كفاءات لم ينصفهم أحد ما فيها.

قاوم في البداية هذا المنحى. لم يكن يريد توترا نفسيا قد يحبطه في الأخير. كان أمله أن يجد طلبٌ من طلباتٍ تقدَّمَ بها إلى إدارات ووزارات طريقَه إلى التلبية. ربما ستساعده صدفة إحدى المعارف لكي تتوسط له في الحصول على منصب ووظيفة. لكن هذه الآمال تقلصت مع الزمن. بل أصبحت ضئيلة جدا وتباعدت مع شرخ الواقع. يرى بعينيه زحف المستفيدين الجدد من الانتخابات والحقائب الوزارية. خطاب العدم وريع الاستفادة... هكذا تحولت لغته إلى قاموس سياسي مرتبط بتناقضات الواقع. حصان طروادة الذي سحق مسيراتهم لكي يولج وصوليين ووصوليات، "أولاد ساسة"، وقد وجد المناضلون لقبا مميزا

لهم، حصلوا على مناصب ومنح خيالية في مقابل أطر مهندسين وأطباء وقد هدّ حلمهم سقف بناية نقابة ميزتها أنها قريبة من ساحة النضال وحامية لهم من أي هجوم شرس ومفاجئ خلال اجتماعاتهم أو نومهم في بهوها وفضاءاتها الداخلية.

لن يورّط صديقته حياة النفوس في مشاكله التي أصبحت ملفات سياسية وخطابات وعود انتخابية. سيتمنى لها التوفيق في ما ستختاره كجديد في حياتها.

وله أن يناضل لكي يحقق التوازن العاطفي الجديد كذلك.

وكان قرار الآنسة حياة النفوس الذي أدهش عائلتها وجعلها توافق على العمل داخل شركة عمر بدوي. كانت انطلاقة ناجحة لكنها مستفهمة عند محيطها. عقدة التوظيف تعتبر من الأماني الكبيرة وشبه النهائية، إذا ما تحققت، لكن هذا التنقل وتسهيلات الحصول على سيارة جديدة وحجز سكن في حي جديد أقرب لحي الرياض وتسهيل عمليات الدفع لتكاليف الشراء لهما، أمور طمأنت من يراها ماديات منجزة، وأوجست خاطر وبال من يرتبط بحياة النفوس وجدانا وخوفا عليها من كل مكروه أو خطوات طائشة.

هل كان على حياة النفوس أن تجلس من جديد أمام المرآة وكأنها تكتشف نفسها وأسرارها وهواجسها لأول مرة؟ طبعا متغيرات كثيرة

جعلتها تعيد طرح مثل هذه التساؤلات على نفسها، تختبر وتغربل التخوفات والتأويلات والأحكام الجاهزة التي وردت في ذهنها أو مررها المحيط المجتمعي عبر أثير مسامعها. لم يبدُ على السيد عمر بدوي ما يثير كل تلك الشكوك والمخاوف. لم تصدر عنه تصرفات كبتية أو استغلالية لمنصبه ونفوذه... كان لبقا وسبّاقا إلى إزالة كل توتر أو توجس. جلسات العمل التي تحضر حياة النفوس اجتماعاتها ولحظات تشاورها واتخاذ قراراتها، وجبات الأكل أو جلسات عامة في فندق أو مقهى تحتفل بالمنجز في العمل والإدارة، تنال فيها حياة النفوس من طرف السيد عمر بدوي كل التقدير والتنويه والرفع من القيمة والمستوى والخدمة.

لكن الإغراء عطش يسكنها. تتساءل عنه وكيف يكون داخل كل هذا الذي يقع. ولا يقع. فمن يكون السيد عمر بدوي هذا؟ عدا صيت شركته وإدارته وأعماله الناجحة داخل الأوساط المالية والتجارية والديبلوماسية؟ سؤال احتاج من حياة النفوس للتعلق بالشخص وبحياته الشخصية.

حينما تجلس أمام مرآتها، تراجع قسمات وجهها وملامحها. تركز على إطار النظارتين اللتين احتلتا مدار محجري عينيها، واستدارة الكحل المقوسة والممتدة مع شفراتهما. لابد من تغيير إطارهما. تفكر في الشكل

المناسب. تستعين بصديقتها القريبة. بينهما سباق وتنافس يومي في تتبع أشكال الموضة وجديد اللباس والأناقة والعطور وغيرها مما يهم المرأة المعاصرة والمواكبة للعصر. تفكر في المبلغ الذي سمعته وفي إمكانية جعله أقساطا شهرية. لا يمكنها أن تقبل بإطار نظاراتي عادي أو مألوف، وهي التي تشتغل بحي الرياض وبشارع النخيل، وهي الت يغيرت مجال عملها من الخدمات البنكية إلى إدارة شركة حرة. منافسَتُها كامرأة تضاهي منافسةَ الشركات فيما بينها. وليست وحدها طبعا في هذا التحدي وهذا الرهان. ومن يفهم نفسيتها ويعرف شعورها ويقدره أكثر من ذاتها ومن مقرباتها اللاتي تبدين الحب والاهتمام بشخصها وصحبتها ومحبتها كما الغيرة والرغبة في الحصول على حظوظها في العيش.

- سيكون عليك أن تغيري اللوك وتسريحة الشعر. عملية تجميل طبعا.

- ومصاريف أخرى باهظة؟!

- لا يهمك ما ستصرفينه. المهم هو أن تكوني في أرفع شكل ومستوى. أنت الآن السيدة الأولى في حي الرياض.

- هه. من يسمعك يظن أنني إحدى الأميرات الفائقة الحسن والجمال.

- الحسن والجمال أناقة واهتمام. وأنت تمتلكين من جمال خلق الله ما يساعد على تحقيق تألق أنوثتك. اسمعي لنصيحة من تحبك وصديقتك نوال.

- شكرا لك يا نوال. لو أنك فكرت معي فقط في تقليص مصاريف كل هذا.

لا يكفيني الراتب الجديد له.

- أي راتب لا يكفي صاحبته يا حمقاء. الحياة باهظة الثمن. من أجل النجاح فيها لابد من تأدية هذا الثمن.

تفكر في مثل هذا الجواب. تقيس منطقه ومعادلته مع مجريات الحياة والأمور، يخدعها منطق المقارنة وتطبيق المعادلة. تتنهد حين تذكر حياتها العاطفية وتجربتها الشخصية فيها مع لطف الله. أي منفذ لها داخلها؟ لا تجد جوابا. كل شيء أصبح معلقا. حتى لقاءاتهما الأسبوعية انمحت. اكتفيا ببعض مكالمات هاتفية. سكنُها الجديد بحي أكدال، انشغالُها اليومي مع العمل الجديد، التزاماتهُا الشخصية... كلها أمور عقّدت العلاقة وجعلتها مبهمة في مصيرها حيث لم يكن لها من

وضوح طريق سوى تلك العواطف التي تباعد العقل معها. فعلا، فكرت في الثمن. ربما سيكون تضحية بهذه العواطف. ربما الحضور اليومي لشخص سي عمر، كما تسميه، انبهارها بشخصيته وباكتمالها، ميولها الجديدة نحو طيبوبته وثقته في نفسه واحتضانه المحترِم لشخصيتها، كلها أمور جعلتها تراجع أنثويتها وما تتطلبها في حياتها.

- سيكون عليّ أن أنهي علاقتي مع لطف الله. هو لطيف فعلا، لكن وضعي الجديد لا يسمح لي بالاستمرار معه فيها. ثم إننا لم نعد نلتقي منذ شهور عديدة. كيف له أن يوفر سكنا مثل هذا وأفضل منه، ومستوى عيش مناسب للحياة بحي الرياض وأكدال؟

ذرفت دمعا تحسرا على القرار الداخلي الذي ساعدتها المرآة على التصريح به. لمست بصفحتي يديها كتفيها العاريتين، في ضم استشعرها تضخم ثدييها واقتراب فترة المحيض. نوبة جديدة من التوتر النفسي رافقت المشاعر المنكسرة في دواخلها. في لحظة، انتفضت بعيدا عن المرآة وتوجهت إلى الحمام مستعينة بماء بارد في رش وجهها ومرافقها وانشغال مغاير عما سبق.

ها هي في التاسعة والعشرين من عمرها تقف على قرارات خاصة بمستقبلها بمفردها. لا تدري لماذا وضعت يديها على استدارة خصرها.

أهو سلوك فطري وعاداتي عند المرأة؟ تتذكر أمها وهي تقف أمام المطبخ وتناقش وتسأل وتقلّب الحقيقة من دونها مع محاورها، وهي تتدرج في كل حوار لكي تصل إلى النتيجة التي سترضيها في كل طلب أو سؤال. تقطب للصورة والتذكر والتشبيه. حياة النفوس ليست هي أمها. إنما ما الذي يجعل الحركة مشابهة. تطفو فوق سطح تحليلها عقد المرأة المعاصرة وبحثها عن الرشاقة والنحافة ومحاربة السمنة التي تهدد جمال المرأة.

من جديد تنمحي الأفكار غير المرغوب فيها باستحضار السيد عمر بدوي. يوم كان ذاهبا إلى "النادي الرياضي النخيل"، القريب من مقر الشركة، وحينما سألها عن النادي الذي تمارس فيه رياضاتها، وذلك الحرج الذي وجدته في الجواب:

- في الحقيقة، أكتفي بحصص المشي بجانب الشاطئ مرة كل أسبوع.
- لابد لك من ممارسة رياضات أخرى. السباحة مثلا.
- إن شاء الله.

للغد، وجدت بطاقات مجانية للاستفادة من أسبوعين داخل النادي الرياضي النخيل وتعليقا في ورقة صغيرة:

- إذا أعجبك عرض النادي فاعتبري نفسك عضوا فيه من الآن. أمتلك صلاحية إضافة مستفيدين داخله. لك ذلك.

كانت بخط يده، وبلمسة ذكورية متأنية في كتابة الحروف اللاتينية البارزة.

كيف استشعرت كل هذه الأحاسيس؟ فائح عطره ما يزال يعم المجال. وعَرضه ناعم وراقٍ تجاه امرأة وليس تجاه كاتبة أو موظفة معه في الشركة. هكذا ضمت ميولها تجاهه لهذه المشاعر التي زادت من عرض ابتسامتها وانشراحها وشكره على التفاتته ومبادرته وكرمه.

هو كرم متتابع. مساعدة على شراء الشقة. مساعدة قبلها على شراء السيارة. راتب محفز ومتصاعد. والآن هذا العرض المتميز واللطيف في ولوج النادي الرياضي النخيل. إنه لطيف فعلا. هكذا انمحت الحروف وانصهرت ولم تعد تجمع اسم اللطف مع من كان لطف الله، أصبح هذا اللطف مع السيد عمر بدوي. ولا تجرؤ بعد على إبداء مشاعر من نوع خاص. هي خطوة لا بد لها من ألف حساب. لم تكن لتعيرها اهتماما فيما سبق، خصوصا وأن ثقافة مجتمعها تجعل الذكر هو المبادر فيها. لكنها هنا وفي هذه الوضعية وجدت نفسها في حاجة إلى مساعدة على إبدائها والقيام بها.

تتأمل حياة النفوس جمالها. تتعبها المقارنات اليومية من خلال تصفح المجلات وعروض الأزياء أو من خلال استراق ملامح فتيات، آنسات أو سيدات.

تحتاج كل مرة إلى طمأنة قريبة من صديقتها نوال أو من صديقاتها الأخريات أو من أمها وأختها التي تصغرها سنا، أو من خلال ردود فعل المتعاملين معها في العمل أو في اللقاءات اليومية التي قد تكون مجرد صدفة قدرية متكررة. هاجس نجاح مطلوب في العمل وهاجس رقي مرتقب في الحياة، كلاهما يضغطان على نفسيتها ويسرعان من دقات قلبها وحرج ابتساماتها التي قد لا تترجم التوترات اللحظية المرافقة لبعض المشاعر.

هي ذي حياة النفوس، تسمية بلغة عربية جميلة، وبعبارة دالة على عمق في المعنى والنفوس. تركيبة اختلجت نفسيتها فلم تساعدها على التسلح بمجرد دلالة لفظ، بالأحرى دلالة مركبة قد يورطها السائل أو السائلة عن معناها. فبماذا تجيب؟ لكل مقام مقال طبعا، ودرجات الحرية في التعبير وإطلاق العنان للخيال ومزج الأماني بالواقع والحياة، أمور تجعل حياة النفوس مترجية أن ينادى عليها بعض الأحيان بمجرد اسم حياة. وترتاح حينما يسترسل النداء ب: حياة ...

حياة. حياة...

- ليتني عشت لنفسي فقط. هل أنا قادرة على العيش للآخرين؟ هل أكون جهاز أوكسجين معدّا لتنفس الآخرين؟

كل مرة قد يضحك المتلقي لمثل هذا اللوم والعتاب. لوم قدري وعتاب وجودي مرتبط بحياة النفوس وحياتها. لكن الأدب الذي تطّلع عليه يشفيها ويداوي تساؤلاتها. ما أسعفها في البحث عنه وسماعه حول اسمها.

منذ صغرها تزايد شعورها بالضغط وبالحاجة إلى حياة جديدة خارج إطار هذه الحياة، حتى تستحق تسمية حياة النفوس. لم تستعد يوما لتكون واهبة الحياة للآخرين ولا أن تكون لأجلهم فقط. كانت تخاف من فقدان نفسها. الشقة الصغيرة التي ما يزال أهلها يقطنونها، وأفراد الأسرة الذين ستكون هي خامستهم، والذين يعيشون معها داخلها منذ صغرها، كلها عناصر ضغطت على حياتها لتدرس أكثر ولتجتهد وتحصل على ديبلوم ووظيفة. وها هي الآن استطاعت أن تغير من وضعها في الوظيفة والسكن وطريقة العيش. تستطيع أن تفخر بها أمها وتخرج معها في تسوق أو تحضر معها في مناسبات أعراس وحفلات اجتماعية أو أسرية عائلية. حيث تكون البنت ذلك البرعم الذهبي الذي يعيد الحياة في الشجرة التي أنبتته وأنتجته، فتصبح الأم معتنى بها في اللباس

الجديد والمجوهرات الجديدة والمراقبة الصحية والسفريات الترفيهية والتعويض عن كل حرمان عاشته تضحية من أجل زوجها وأولادها.

شقة صغيرة كانت تضطرها لكي تكون مع أختها في افتراش جانب من الصالون المعد لاستقبال الضيوف. كل يوم كانتا تقومان بإعادة ترتيبه وجمع فراش نومهما، ونقل مستلزمات النوم إلى زاوية من البهو حتى تستيقظ الأم وترتب كل ذلك داخل غرفة نومها. أما الغرفة الأخرى فقد كانت تجمع إلى جانب مكتب خشبي بكرسيه، المعدان للمراجعة والدراسة، سرير نوم أخيهما الذي كبر ووصل إلى سن مراهقة فاحتاج إلى استقلالية أكثر .

كان الشعور بجعل الأفضلية للذكر يزداد مع جل المواقف والوضعيات التي يختبر فيها الأبوان داخل ميزان نفسية حياة النفوس. وكانت الحاجة للبحث عن بديل لكي تخرج من ازدياد هذا الضغط وهذا التوتر المعقد داخل الأسرة وداخل المجتمع.

كم مرة ناقشت مع لطف الله هذا التمييز الثقافي بين الذكر والأنثى، وكم من مرة كان لطف الله ينتصر لامتياز ذكوريته واستعداده للتضحية من أجل حياة نفسه حياة النفوس، شرط أن يكون هو البطل وهو المحبوب والمرغوب. وفي كل المرات كما في الحياة، وحتى لا يسقط

الإنسان في مرارات مقارناتها واستنتاجاتها، تكون السخرية التي تصهر الواقع وتجعله نكتة أو مسرحية مضحكة، يبرر بها الإنسان أو يخفف أو يغيب معها كل ضغط يؤزم النفس والعقل والسلوك.

هل كان لزاما على حياة النفوس أن تتسلح بكل هذه العُدة لكي تحسم أمر حياتها الجديدة التي اختارتها؟ لابد من خسائر مرافقة. عاطفيا، تخلّت عن العلاقة مع لطف الله، أسريا، تكلّفت بمشروع تجاري لأخيها فريد الذي لم يكمل دراسته بحي المحيط، جعلت أختها الصغيرة نجاة تعيش معها داخل حيها الجديد أكدال، وتدرس بكلية الحقوق القريبة من شقة سكنها. أما الأب الذي أعياه العمل والكدح وشرب السجائر، فقد اكتفى بتقاعده وراحته من تعب الحياة والجلوس بمقهى قريب من سكناه بحي المحيط حيث يتقاسم مع دائرة أصدقائه لعب الورق، (الكارطة)، وتبادل سلاح الكلام لهزم جبروت الزمن وقهر الظروف وهون الصحة. وكانت الأم هي السفيرة المتنقلة بين الحيين، حي المحيط وحي أكدال، وفي بعض المرات الزائرة المشرّفة لبنتها بحي الرياض سواء في الشركة أو في استضافة لوجبة غداء أو جلسة مقهى. ويكون الدعاء الذي يشحن حياة النفوس ويترجى لها ما تخفيه نفسيتها أماني: استقرار في حياة زوجية آمنة !

وهل حان وقت تحقيق هذا الدعاء؟

الظرف معقد نفسيا ومهنيا وحياتيا. هذا التسلق وهذه المنافسة في الرقي داخل المدينة العصرية، وخصوصا عند الأنثى، يجعل الزواج أكثر تعقيدا داخل العاصمة الرباط. وربما لا تعي حياة النفوس ولا تدرك سر كل هذا. لكنها تشعر بحدسها بأن الأمور أصبحت صعبة في التناول وفي التحقيق. تستغرب لغرابة نفسيتها عما ترويه لها أمها:

- كنت في طريقي إلى الإعدادية ذات صباح. التقاني أبي في الطريق. عملُه يبدأ باكرا بعد صلاة الفجر. ولأن بيئتنا فلاحية وبدوية، كانت أنشطة القرية بالقرب من مدينة الرماني تتم في الصباح الباكر، وبعدها تأتي حركة الذهاب للمدرسة:

- عودي للمنزل الآن. هناك ضيوف سيأتون بعد الزوال.

- والمدرسة يا أبي؟

- لا مدرسة اليوم. سألتقي بالسيد المدير وأشرح له.

كانت خطوبتي ذلك اليوم، وكانت نهاية التحاقي بالإعدادية، وبداية استعدادي للزواج ومرافقة أبيك إلى حي المحيط. يومها كان عمل أبيك مشرفا وكافيا ليوميّنا وسفرنا وتربية أولادنا. لكن الظروف تغيرت اليوم. منذ سنين لم يعد الراتب يكفي ولو لعشرة أيام. زيادة على مصاريف

دراستكم ولباسكم... نعيش ببركة مولانا فقط. أبوك وقد باع قسمته من الإ رث لإخوته، وما امتلكتُه أنا من حليّ، كان نافعا لنا في ظروف مرض قاسية وعمليات جراحية متتابعة. لكن الحمد لله. الرجاء دائما في الله تعالى.

استغرب جل الحاضرين لمشهد الجريح الذي أغمي عليه، والذي ربما توفي بسبب الجرح الغائر الذي أسال دما كثيرا نزف من جسده. استغربوا أكثر لسرعة إنجاز جهاز الأمن لمهام المسح لمسرح الجريمة أو الحدث. طبعا، كل واحد استند على مسموع معين، وكل واحد وضع إخراجا مغايرا لآخرين. هناك من اعتبر المحمول في سيارة الإسعاف مجرما وسارقا أنيقا أراد ابتزاز وسرقة أموال السي بودحان. هناك من اعتبره مبعوثا من طرف أبناء عمومة أو قرابة لأجل الانتقام .
البعض الآخر اعتبرها جريمة شرف. ألبسها خيوطا مناسبة كانت بزي مزركش وملائم في التحليل والإخراج.

وبقيت الحيرة كبيرة عند من يفتقد المخيلة السريعة في التصور والتركيب والإضافة. قد يذهبون بدون تحليل متناسق مع ما شاهدوه أو سمعوه أو حضروا لجزء من أحداثه البسيطة في الرؤية. قد يذهبون عند من يمتلكون قدرة على التصوير لكل حدث وجعل سبب ونتيجة له، وعرضها كحقيقة لا تناقش يدافعون عنها في جلسات المقاهي ومقاصف الحانات وانتظارات الدكاكين. قد تعيش شخصيتهم على العناد والادعاء بامتلاك سر كل شيء وتفسير كل شيء والفهم في كل شيء. قد يسمعهم

شرطي أو لنقُل إن أذنيه التقطتا معلومات رائجة وشائعة. يستغرب ويندهش، وينتظر حتى يتواصل في الإدارة والمكاتب المختصة بالتحقيق مع زملائه لكي يسأل:

- هل فعلا هذا ما حدث؟

سؤالٌ بلور أقواسَ استفهامه الشابُّ لطف الله تباعا وملازمة مع ما شاهد وحاور حوله واستمع لردوده وتساؤلاته.

فعلا، يندهش كل واحد لسرعة إغلاق ساحة الجريمة وجعل جدار حديدي مستعار من أسيجة شركة مختصة في تزفيت الشوارع والطرقات. ويندهش لطف الله لكون الشرطي اكتفى بأخذ صور بهاتفه المحمول وبعثها في الحين مع معلومات البطاقة الموجودة في محفظة الضحية عبر الواتساب. مقاطع فيديو اكتفت بفضاء الدكان وواجهته الخارجية. محاولات في ترصد الواقفين حول مسرح ما وقع، وانتزاع الهواتف التي كانت تصور مع مسح محتوى ما صوّروه.
اقتيد السي بودحان في سيارة الشرطة وبقي أحد رجال الأمن في حراسة المكان وتم تشتيت التجمهر بأوامر جادة:

- يالله آ سيادنا، من عنده شغل ما ليذهب إليه. حادث بسيط وستتم معالجته. فرقوا هذا المجمع.!

كان لطف الله قد اتخذ خطوات إلى الوراء قبل بدء عملية نزع الهواتف من مصوري مشهد الأحداث، وحينها كان هاتفه قد التقط هو الآخر مشاهد فيديو قصيرة واتصل بصديقه عبدالله ابن السيد بودحان لأجل الإخبار والإعلام .

يلتقط صوتا صادرا بين المتجمهرين حول ما وقع:

- ما نعرفه هو حضور الشرطة وأخذ البصمات وبعض الأدلة وتشوير ورسم وضعية القتيل أو الجريح. يبدو أن هناك غموض يحيط بكل ما وقع.

هو فعلا غموض. هكذا بادر لطف الله إلى الإجابة ذهنيا على ما سمع. كيف لا وهو الذي يعرف شخصية أب صديقه عبدالله. بل يعرف شخصية السيد بودحان وهدوءها واستقامتها وابتعادها عن كل المشاكل. تدور في ذهنه بسرعة طوفان أو دوامة إعصار آلاف الخيوط المرتبطة بحي المحيط وبمدينة الرباط .

يستحضر مئات الأحداث التي وقعت قريبا أو منذ مدة لا تقاس في حينها بحي المحيط. يستحضر أشخاصا ومعارف. تراوده حواراته مع صديقه عبدالله وكل ما يمكن أن يطفو فوق السطح نتاجا لاستحضارها. يتنهد ويأخذ نفَسا عميقا.

تجحظ عيناه كما المعتاد حين عدم قدرته على الفهم أو على استيعاب شيء ما.

وكأنها طبيعة نظره وخروج عينيه التقاطا لإبرة انفقدت بسَمّها منفلتة بين الأصابع بعيدا عن خيطها الرابط.

- جريمة غير مكتملة، وتحقيق غير مكتمل كذلك. مستحيل أن يكون السيد بودحان قاتلا. واه ! هكذا استغرب لطف الله.

اختار إمام مسجد الشهداء الصلاة لهذا الفجر الجديد وصبحه الناعمِ بقراءة آيات من سورة النساء. كانت الركعة الأولى بعد التكبير وقراءة الفاتحة ترتيلا مؤثرا بقوله تعالى:(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِهَا ا لأَ نهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُم فِيهَا أَ زوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدخِلُهُم ظِلًّا ظَلِيلًا).

كان ذلك الهدوء الذي عم أرجاء المسجد داعيا إلى السفر داخل الذات وتحقيق طهارتها وصفائها. كان السيد بودحان مغمضا لعينيه حين القراءة من طرف السيد الإمام، محققا للرجاء في مناجاة ربه، آملا في نيل رضاه. لم تعدُ عيناه عن السجاد الأحمر، إلا ماكان من إطار الأعمدة الخشبي ذي اللون البني، والذي يساعده على جعل حدود مريحة لرفعهما. كل ذلك من أجل نجاح الخشوع المطلوب في صلاة الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهودا. صدق الله العظيم .

هكذا انفلتت ذاكرته هامسة بهذه العبارة العابرة من الذكر الحكيم قبل أن يركع مع الراكعين. وما اعتبرها شرودا، ولا عدم تركيز. هي رحلة روحية يستعين فيها بدواخله الربانية، حتى تزيح انشغالات الدنيا. هكذا ساعده إمام المسجد يوما ما في تفسير ما يدور في النفس خلال الصلاة. هكذا نجح في رياضة الذكر ومقابلة آي بآي، ودعاء بدعاء.

وكانت الركعة الثانية بعد وقوف من سجود. وكانت الآية من سورة النساء، وهي قوله تعالى: (إِ نَّ اللَّهَ يَأمُرُكُم أَن تُؤَدُّوا الامَانَاتِ إِلَىٰ أَهلِهَا وَإِذَا حَكَمتُم بَينَ النَّاسِ أَن تَحكُمُوا بِالعَدلِ إِنَّ اللَّه نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا).

حين سجد بعد دعاء القنوت وبعد ركوع من وقوفٍ، بكَى. وكان بكاؤه دمعات ساخنة بلل بعضها البساط الأحمر كما أنفه ومارنه. كان في سفر بعيد عن شعور اليقظة. لم يدرك دمعه أو يتداركه إلا بعد أن انذرف. لم يسأل عن سببه باعتبار دمع الصلاة طهارة. وأفضل طهارة ترافق الخشوع. هو القرآن الكريم حينما يمتلك صاحبَه، فقد حقق له التقرب الخالص من خالقه ورضى القدير على عبده. لكنها إشارات من بعيد، تذكر بشيء خفي مقدر ويقدره الله تعالى. يسائل نفسه بعد الانتهاء من الصلاة هل تراه قصّر في الحفاظ على الأمانة؟ هل أدّاها كما يجب؟ هل أرجعها إلى أصحابها؟

لم يخلُ وعيه من توجيه ديني، وهو الملازم لأوقات الصلاة ولدروس المسجد وخطبة الجمعة ومرافقة العلماء من المصلين. أدرك أن مراجعة الأمانات قد حان، وأن إرجاعها لأصحابها قد حل أجله، وأن القابض عليها حفاظا مختَبَرٌ في إيمانه وصبره وإخلاصه لواهب الأمانات الكبرى الذي جلعنا مستخلفين في الحفاظ على أمانة الحياة والدين والدنيا التي

نعيش فيها. يشعر بأن مسؤوليتها قد أصبحت ثقيلة، خصوصا مع تزايد المضايقات والمناورات حولها. وكأنه قابض على الجمر بين يديه، لا يدري كيف يتقي حراراته وإمكانية الاحتراق به، خصوصا وأنه يزداد اتقادا وحرقا لدواخله مع تكرار حضوره في ذهنه عبارة ثم عبارة ثم عبارة.

لابد من الإكثار من الاستغفار والحمد والتوحيد والتسبيح والشكر والعياذ بالله تعالى. لاحظ أصدقاؤه أنه قد تأخر بعض دقائق في جلسة مناجاته تلك. كانوا جماعة المشائين التي تنتظره بابتسامة الصبح الجديد الذي أطلت أنواره من فوق أسوار المدينة القديمة وجعلت انفلاتات الضوء الحمراء تنبلج من زرقة لازوردية منبعثة من فوق الأبراج المسجلة لتاريخ ولّى للعاصمة، بينما نابت المصابيح المتراقصة بنورها على طول رصيفَي شارع مصر في خط هندسة الحياة المستمرة بين الأطلال والبنايات. ربما كان العمران يتكلم. وربما كانت نفسيات المشائين تحاوره في صمت وتملأ الفراغ أو ترمم ثقوب الشجون والذاكرة المنسية لها.

وكان التفاعل الصباحي الجميل شفيعا للحظة الانتظار، خصوصا وأن موقع المسجد يعلو فوق ربوة تحيط بزوايا البحر وأسوار المدينة العتيقة ومداخل حي المحيط بشارعين رئيسيين كبيرين، ومقبرة اختير لها أن تكون للشهداء حيث ترقد أرواح كثيرة.

(- أحمل عبئا ثقيلا وأمرا محيّرا يقض مضجعي كل حين. جل العلماء والفقهاء الذين استشرت معهم دلوني على وجوب الحفاظ على هذه الأمانات التي أحملها. والسيد إمام المسجد يعلم هذا. ربما ذكرني من خلال قراءته لتلك الآيات في صلاة الجماعة لهذا الصبح بواجب تذكر الأمانة وتذكر الحفاظ عليها. ربما ساعدني على التخفيف من عبء الشعور بالمسؤولية. أكثر من خمسين سنة قضيتها بمدينة الرباط. وهي عقود حملت فيها عبء أمانات أصحابها هنا بالرباط وبحي المحيط، وهناك بسوس ببلادي البعيدة الآن. خضعت لامتحانات وابتلاءات كثيرة. أثارني الطمع فمالت نفسي إلى التفكير في التساهل ونيل كسب مادي مقابل خيانة الأمانة. لكنني والحمد لله تغلبت على مثل هذا الشعور. هناك من يعتبر المسألة عادية. حتى الأنبياء والعلماء يقعون في مثل هذا الإغواء. هو إغواء فعلا، مثلما تغوينا الأمعاء في الأكل مما ليس لنا لمجرد شمّه وعبوره لأنوفنا.

والصوم خير مثال على ذلك في اختبار تغلبنا على الشهوات.

هناك ممتلكات لأسرة موسيو مونيي وموسيو فارغاس. أحتفظ برسوم عقارها. هناك أبواب مغلقة إلى حدود يومنا هذا، عندي مفاتيحها. وكما تعلمون فقد ازداد هذا الشره من أجل العقار وبناية العمارات واختراق السماء وتضييق تنفس الناس بين الأحياء. لا يراعون

شجرا ولا قبرا ولا بشرا. كل الملايين التي عُرضت عليّ إغراء أو رشوة أو دعوة للتزوير وخيانة الأمانة، كلها لم تنجح في جعلي أتنازل عن مبدئي وأمانتي وعهدي. قالوا لي: هم نصارى، كفار بالله. وأنت ستجعل ممتلكاتهم في صالح مجتمعك المسلم، وستنال الأجر هنا وهناك.

كنت أشم رائحة الغدر في كلامهم ونظراتهم، مثلما أشم رائحة الإدمان على الخمور خلف عطورهم التي يصبونها على أبدانهم وألبستهم. يأتون للدكان مثلما يأتون لملاقاتي بعد خروجي من صلاة. وفي بعض الأحيان، يستغلون مناسبة لزيارتي بالمنزل أو اللقاء بي عند أحد المعارف. وشممت أكثر غدرهم حينما لجؤوا إلى التهديد في مناسبات عدّة. يقولون لي: أنت لا تعلم الأشرار الذين لو علموا بما تحتفظ به وعليه لاغتالوك وأخذوا كل شيء قسرا ورغما عنك. تتنمل مسام جلدي وأشعر بمكائدهم وحيلهم الماكرة والخسيسة، وأقاوم وأصبر، وألجأ إلى الله تعالى لكي يعينني على النجاح في الحفاظ على الأمانة).

يتذكر السيد علي بودحان هذه المناجاة وهذه اللحظات في البوح بالسر والحمل الذي أثقل كاهل ضميره وهو مقتاد داخل سيارة الشرطة. غموض كثيف يحجب الرؤية أمامه. ربما ليست هذه الأشياء المادية واقعية أو حقيقية حوله. ربما هؤلاء الأشخاص مجرد أشباح وقد التفّوا حول عقله. يغمض عينيه ويستغفر ربه ويعوذ به، فترجعه

مناجاة ربه إلى وعيه وواقعيته. فعلا هو مقتاد داخل سيارة الشرطة. يشعر بقشعريرة شملت كافة جسده. وكل اهتزاز لهيكل السيارة يحدث رعبا يوتر خلاياه. لا يصدق ما وقع. لكنه يحاول أن يعيش اللحظة انتصارا لروحه وإيمانه ووفائه بتعهّداته أمام ربّه وأمام أماناته.

يعود لمحاكمة نيتِه فيما إذا كان قد قصّر فيها. لحظات اختراق وسوسة التفكير في محاولة الإقدام على بيع ما هو أمانة عنده: (ماذا لو بعتُ كل هذه الأمانات؟ !). أيكون كل هذا ابتلاء ومحاسبة ومعاقبة؟ ويحمد الله في دواخله على كون الحساب سيكون في الدنيا قبل الآخرة، على كونه سيكون اختبارا لنيته أولا.
هو يعلم صدقها أمام خالقه. (حسبي الله ونعم الوكيل).

هكذا تداخل زمن مع آخر، واستعان بذاكرته في تبرير لحظته والدفاع عن نيته ومراجعة قصده، بينما اتخذت السيارة منعرج الطريق العابر لساحة باب الأحد في اتجاه حي الرياض. قد تكون علامة الاستفهام ارتسمت على ملامحه وقسمات وجهه وهمسه وذهنه، لكنه لم يعِرها اهتماما في حينها لأن ما وقع في دكانه ويقع له كمعنيٍّ به كان أكبر من اختيارات مسار سيارة الشرطة التي تقتاده لحظتها.

ابتلع ريقا مريرا تجمّع كسم في حلقه وبلعومه، اعتصرته أمعاؤه التي لم يخترقها محرم من المحرمات يوما ما. لكنها محاسبة له على توريط

كيانه في ما وقع، وهي لا تدري قدر درايته بأنه بريء من كل ما وقع. حتى وزرته الزرقاء باهتة اللون، شاهدة على كونه مخلص لعمله وبعيد عن كل غش أو مناورة أو مكيدة أو نصب واحتيال. فكيف ستحاكمه دواخله على ما هو بريء منه فعلا؟

لماذا لا يرد عبدالله على الهاتف؟ ألم يقرأ الرسالات التي بعثتها له؟ حتى مشاهد الفيديو والصور التي حوّلتها من صفحتي على الواتساب والفايس كانت في صفحتيه رسالتين خاصّتين، ويبدو أنه لم يقرأهما أو يشاهدهما بعد. أين هو الآن؟ وكأن الأرض قد ابتلعته.

أسئلةٌ هي وقد حيّرت لطف الله. بين عشية وضحاها لم يعُد لصديقه وجود ظاهر. لا. ليس الأمر بجديد. يتساءل لطف الله مرة أخرى:

- تقريبا، هي مدة تناهز السنتين حين بدأت تتقطع لقاءاتنا وتتباعد مواعيدها بيننا. فبعد أن عاد من دراسته في فرنسا لم يبق ذلك التواصل كالمعتاد ولا تلك الجولات أو المنافسات في لعبة الشطرنج. كان البوح بيننا شبه يومي. كم مرة كنا نتكئ على جدار سور الكنيسة القديمة، وكان بوحنا عُرفا يُدخل في تشبيهه اعترافات روادها للقس إن كان فعلا موجودا بداخلها. كان احتكامنا لحسن الاستماع وشغب التفاعل مع المسموع من طرف كل واحد منا. وكأننا نؤدي أدوارَ مسرحيةٍ تحاكي أدوار شخوص الكنيسة الحقيقيين. كانت قراراتنا المتخذة تأخذ بعين الاعتبار رأي الإثنين معا. أما خلال هذه المرحلة الجديدة، فيبدو أنني كنت على عواهني القديمة. لم أفكر في هذا الجانب من الأمور. ظننت أن كل شيء طبيعي .

- لا !. من جديد..

هناك ما تغيّر في تصرفاته وفي صداقتنا. في كل مرة نلتقي فيها، أصبح يفتعل فيها انشغالا طارئا يضطره للذهاب. نقاشا سطحيا حول قضايا شكلية كذلك لا تهم صداقتنا ولا همومنا. وأية هموم هي. كانت همومي أنا فقط .

هل كنت في حاجة لصدمة مثل هذه؟ أن أقف أمام باب دكان أبيه وأسأل عنه فلا يجيب، لكي أختلي لعقلي الباطني وأتفرغ لتحليل جوانب ظلت خفية تخدعني في وعيي وتصرفاتي ومواقفي؟

هل أنا غبي لهذه الدرجة؟ ألم أفهم بعد بأن مستواي الاجتماعي مفارق لمستواه؟ أنا في انتماء لطبقة تسمى متوسطة وما هي بمتوسطة. طبقة كادحة وفعلا هي كادحة. فقط ما كان من كون الأب هو الذي يكدح. أما باقي أفراد الأسرة فكلهم عالة عليه في النفقة والمصاريف. حتى من شخصيّ اللعين، فقد ازداد عُقدًا على عقد. أهو الوقت المناسب الآن لكي أقوم بجلد ذاتي والقيام بنقد ذاتي؟ وفيم سيفيدني هذا النقد؟ هل سيفيدني في الغرق؟ هل سيرشدني لماء المحيط بهديره وكأنه ينتظرني بملوحته منذ ولدت لكي يقودني أكلة شهية مشتهاة لحوته بدل سمكه؟

ياه ! اسودّت الدنيا أمام عينيّ. حتى من الصديقة الحبيبة التي بنيت معها برجا عاجيا في الحب وفي العشق وفي تحقيق النشوة ونخوة الذكورة، تباعدت المسافات بيننا. لم تعد حياة النفوس لي منذ توظفت ربما، ربما لأنني ما أزال عاطلا، ومنذ انتقلت للعيش في حي جديد والذي يعتبر البديل لمن يريد أن يتخلّص من حيّ المحيط، ويتخلّص من فقرائه، مثل من يتخلص من ا لتِفاف العطشى حول قدر مبلل يحمله بين يديه. من حقها أن تفر من ضغط يوميّ سكان الحي وأهله الذين يطمعون في صدقة أو اقتراض منها كبنكية يخال بعضهم أن دار السكة تحت إمرتها وتصرّفها.

وهل لي أن ألوم حي المحيط وألعنه وأتبرأ مما يقع فيه، حتى أنعم أنا الآخر بلطف القدر وإشفاقه على حالي وإخراجي من دنو وضعيتي أنا، حامل الشهادة ومنتظر العمل والتشغيل؟ كنت أريد وظيفة محترمة تعيد الاعتبار لعائلتي قبل ذاتي. أتوفر على دخل أبعث به أفرادها لحج أو عمرة. أشتري شقة أكبر. نعيش حياة جديدة. يكفي أن حي المحيط ويكفي أننا نحن كذلك، نطيق بعضنا البعض ونتحمّل معاناتنا وأزماتنا، ما ينفلت من حالات ثمالة أو جنون واختلال، من عنف ومن عنف آخر مضاد أكبر منه. أغمضنا أعيننا عن ظواهر خطيرة تفشت فيه. اعتبرناه هو الآخر ضحيةً كمكان، ما دام الإنسان هو المدبر للحياة وللجريمة

ولتفشي سوق نخاسة جديدة واستغلال فقر وترويج مخدرات. احتجنا لوعي اكتسبناه مع التعلم ومع ثقافة منتقدة لكي نفهم لعبة التفاوت الطبقي والاستغلال الممنهج الذي يتم داخل المجتمعات الإنسانية.

هل أنتحر؟

فكرة الانتحار راودتني فعلا. لكن يومها، كنت في ورطة وسوسة. ست علاقات جنسية متتابعة وبدون وقاية مطلوبة وعازلة، كبُر ورم الخوف معها، وتضخمت احتمالات أن أكون قد أصبتُ بمرض منقول جنسيا. ناسبَت الكارثة كارثة التفكير في هذا الانتحار اللعين يوم اخترتُ العوم تحديا لأمواج هذا الساحل اللعين ولأحجاره التي تلاطفها لطما وتصفيقا على وقع اصطدام كل ما هو غير حجر أو ماء بهما. رأيت الزرقة البعيدة، ورأيت تلك الموجة التي رفعت لسان زبدها وصوّتت أقوى من مثيلاتها مستقبِلة لجسدي العاري الذي اختار مغامرة العوم في حضنها. قلت هي فرصتي في وضع حد لوساوسي الداخلية. إذا كان مرضا و(سيدا) معه، فالأفضل أن أسافر مع هذا البحر وأكون وجبة لبرغوثه اللعين، هذا الذي يتهافت الناس على اشتهائه وأكله، والذي أعافه بقدر ما يشتهيني جثة ملفوظة من حياة البر كقربان معروض على مخلوقات البحر.

يا لي من أحمق. لا أمتلك الشجاعة ولا القناعة لفعل ذلك.

لم يعد عبدالله بودحان رفيق دربي. دربي، نضال وبحث عن لقمة عيش. سأضطر للعمل كمساعد تقني عند صاحب محل ما، بدل أن أكون صاحب مشروعٍ. لا أمتلك المال الكافي لكي أبدأ مشروعي الخاص. سأؤجّل أحلامي أو ربما أرميها مع النفايات والقمامات لكي تلطخ ساحل المحيط. أوَ ليس هو مرآة هذه المدينة؟ سآتيه بالديبلومات التي حصدتُها بما فيها الشهادة الابتدائية، وسأذروها في مشهد سينمائي تتقاذفها الرياح لكي تستقر عائمة فوق الماء. هه. أنا ذلك الذي أخذت العاصفة أرضه الزراعية بجانب منعرج النهر والوادي، والذي حينما أتى صباحا بعد ليلة رعد وبرق وأمطار، وجد النهر قد محَا كُلّ أثر لأرضه وتحول الرسم إلى ماء يجري. عاد لمنزله وحمل معه أوراق الملكية للأرض ورماها في النهر:

خُذ ! إذا سألوك عن رسم الأرض فهذه أوراقه الثبوتية. هي لك الآن.

كم ضحكنا لسماع النكتة، وكم أبكتني الآن. يا للمفارقة.

عبدالله بودحان أصبح مدير مشاريع. يمتلك مكتبه الخاص. يسافر كل مرة إلى بلد جديد. مرة للسياحة، ومرة للعمل. حتى من مغامراته

الجديدة وحياته الخاصة لم يعد لي حضور فيها ولا شرف التشاور فيها. كان هو الخجول، وكنت أنا الشيطان المارد. أنا الذي أدفعه أو أوقع به في بركان التفاعل مع الأنثى، هذا الجنس الآخر المحيّر للذكر.

أين هو الآن؟ صفعني عدم التواصل معه وعرّى ما تبقى كورقة توت نغلف بها واقع صداقة لم تعد كما كانت عليه. بل عرى حتى ما تبقى من عبير عطر خزّنته ذاكرتي وحواسي للعلاقة التي كانت تجمعني مع حياة النفوس. لكن الواجب هو أن أقف إلى جانب صديق في وقت الشدة والمحنة. ولو أنه عاد صديقا قديما. ربما كنت مخطئا في تحليلي. أتمنى ذلك !

سأذهب للبحث عنه وطرق أبواب تواجده. سأبدأ من الدائرة الأمنية،أصدقائي ومعارفي في المحكمة الابتدائية هنا بحي القبيبات، أفراد أسرة الأمن الذين يقطنون بالحي، والشباب منهم على الخصوص، هذه وجهتي في السؤال والبحث الآن.

- أظن أن هذا العطر الذي تضعينه من صنع إيطالي رفيع؟

- كيف عرفت ذلك؟

كان السؤال موجها من طرف السيد مفتش الأمن والمكلف بقضية السيد عمر بدوي. كان سؤالا يحاول أن يُخرِج به الآنسة حياة النفوس من توترها. لم تدرِ لماذا تمّ استدعاؤها إلى الدائرة الأمنية الخاصة بحي الرياض. لم تكن دائرة ضجيج ومشاكل تابعة لها وآتية من نتاج مدينة في عز مشاكلها الأمنية والاجتماعية والإدمانية.

كانت ترتدي زيا موحد الألوان. لكنه من ثوب رفيع يناسب طقس هذا الفصل من السنة. ناسب اللون الرمادي الشفاف هيأتها وجدّية جلستها. ساعدَها على امتلاك براءةٍ وصورة تبعدها عن كل الشبهات التي تراود مفتش الأمن الجالس قبالتها. لكن عينيه امتلكتا رغم ذلك كل التوجسات، سواء قبل أن يستدعيَها أو خلال بداية حواره معها. ها هو يورطها الآن. هذا العطر الموقع بالاسم الفرنسي (إيف سانت لورنت)، والحامل لشعار الحرية وكلمة (الحرة)، كان السيد عزيز السليماني حاضرا حين خضوع حقيبة السيد عمر البدوي للتفتيش في حاجز المرور والمراقبة داخل مطار الرباط سلا الدولي.

حينما أخبرها عن سر معرفته بنوع العطر ورائحته ومصدره اندهشت واستنتجت سبب استدعائها في هذا الصباح الجديد الذي لم ترَ فيه طلعة السيد عمر البدوي في المكتب. تساءلت إن كان لغيابه علاقةٌ باستدعائها لهذا المكتب. بدأت تظهر خيوط الاستنتاج لهذا التساؤل. كانت للسيد عزيز السليماني مجموعة من التساؤلات التي سيمهد لطرحها عليها، مثلما سيمهد للتنسيق الجديد والتعاون الجديد الذي سيحتاجه منها، من الآنسة: حياة النفوس.

- إذا سمحت آنستي، بروتوكول الحضور يستدعي طرح بعض الأسئلة البسيطة عليك:

- الاسم الكامل؟

- حياة النفوس بومهدي.

- السن؟

- تسع وعشرون سنة.

واستمرت الأسئلة حول العنوان والإقامة ومدة العمل وطبيعة العلاقة التي تجمعها مع السيد عمر بدوي...

- ليكن في علمك آنستي أن السيد عمر بدوي تعرّض لحادثة مفاجئة. خطأ عادي تحول إلى جرح في بطنه واستنزف منه دما وعدم قدرة على الحركة أو الكلام. هو الآن خاضع لعناية مركزة في عيادة خاصة تابعة لمصالحنا. أتمنى ألا تقلقي على حالته، كما أرجو أن تتعاوني معنا في مجموعة من التدابير الأمنية التي نود متابعتها في ملف السيد عمر بدوي.

- لم أفهم سيدي المفتش كلَّ ما قلته. لقد تعرض السيد عمر لحادثة؟ هل كانت دهسا بسيارة أو حادثة سير أم ماذا؟

- أكيد أنك ستعلمين تفاصيل ما وقع. لكننا نطلب منك عدم إعطاء أية معلومات حول الشخص وما نحن بصدد التنسيق معك فيه. هو ملف ستكتشفين تعقيداته معنا. نعلم أنك ابنة حي المحيط، وعائلتك ما تزال هناك. نعلم أنك تعرفين مجموعة من الأسر وأسماءها العائلية. هل تعرفين عائلة السيد علي بودحان؟

- ومن لا يعرفها. حتى إن ابنها عبدالله صديق طفولتي ودراستي.

- جميل ومحزن في آن. السيد علي بودحان تحت الحراسة النظرية الآن.

كان حاضرا في مأساة الحادثة التي وقعت للسيد عمر. والحادثة وقعت داخل دكان السيد علي. حاولنا ما أمكن مسح كل التسجيلات التي تم تداولها عبر المواقع الإلكترونية، ومسح خبر وقوع حادثة أو جريمة بحي المحيط بالرباط. نريدك أن تستمري في عملك داخل مكتب شركة السيد عمر، وكأن شيئا لم يقع. أن تقومي بجميع الإجراءات في التواصل وتلبية الطلبات. وأن تؤجلّي ما يحتاج لتوقيعه أو حضوره شخصيا. إذا لزم الأمر أخبريهم بأنه في رحلة إلى الصحراء والكتبان الرملية بزاكورة أو مرزوكة أو غيرها. سننسق معك في تتبع جميع المتصلين وأخذ معطيات عنهم. عندنا مجموعة من الملفات نتابعها منذ مدة. هناك أسماء كبيرة داخلية وأخرى من خارج الوطن. هناك مؤسسات. ربما لا تعرفين حقيقة شخصية السيد عمر. لذلك اعتبري نفسك في أمان ما دمت تحت رعايتنا وتوجيهنا.

- هل ارتكب السيد عمر جناية أو سرقة أو ما شابه. منذ عرفته لم يبدُ عليه أي شيء يورطه في هذه الاحتمالات.

ارتعبت داخليا. ازداد نبض قلبها وحرارة جسمها. ربما تعرق جلدها كما مسامها، لكنها لم تعر ذلك أية أهمية الآن. فذلك الحرص على

الأناقة والرائحة العطرة الفياحة ونظافة الجسم كما اللباس من كل تعرق محتمل قد زال الاهتمام به الآن. أربكها الموضوع وورّطها في مجهول لم تعرف خيوطه بكاملها .

فقط أن السيد عمر مغمى عليه أو هو جريح، بحسب قول السيد المفتش، وأن دكان السيد علي بودحان كان مسرح ما وقع. لكن علامة الاستفهام اتسعت كِبَرًا حين دخول دائرة حي المحيط وأسماء من أسرها وشخصياتها في هذا الموضوع الذي تدخلت فيه أجهزة الأمن والاستخبارات. فأن يقدم السيد عزيز السليماني نفسه بصفته الأمنية والاستخباراتية وبمهامه التي تخول له التكلف بملفات خطيرة تهم أمن الدولة ومصالحها الكبرى، أمر يورّطها في أخطار كبيرة وحساسة، كما يستدعي منها أن تكون أكثر انتباها لعدم التناقض أو تكون في شبهة تصرف أو كتمان أمر أو سر ما.

اختلطت عليها الأمور. وافقت على تناول فنجان قهوة دعاها إليه السيد مفتش الشرطة. استغرق الاستنطاق والحوار والتنسيق الجديد زهاء الثلاث ساعات ولم يكتمل بعد.

- سيكون لنا موعد كلما استدعيناك إلى مكتبنا ورأينا أهمية حضورك. إنما اعتبري الساعة الرابعة بعد الزوال، يوميا، ساعة

التحاقك بمكتبي من أجل الجديد الذي قد يكون بيننا. طبعا، كلما هاتفتك لأجل الحضور. لا تخبري أحدا بكل هذا. أشكرك على الحضور إلى هنا. يمكنك الانصراف الآن وكأن شيئا لم يقع. غدا التحقي بمكتبك ولا تدخلي في أية استفسارات قد يطلب البعض الإجابة عنها. شكرا لك.

ما وقع لحياة النفوس في هذا اليوم زوبع ذهنها فعلا. لم تعِ حجم خطورته بعد أن ضاق بها عقلها، ولم تكن لتطيق هذه الصاعقة التي نزلت عليها من السماء .

وكأنه هرم سيهوي ويقع متساقطا لبنة لبنة. كانت اللبنات التي راهنت عليها في بناء حياة جديدة وراقية وفي التفكير في الارتباط بالسيد عمر بدوي، كلها كانت تتهاوى وتتساقط في سلم آمالها المعلقة على خيط دخان، سرعان ما أذابته دمعات بدأت تنفلت مع شهقات تنفس على خديها.

وراء مقود السيارة لم تستطع تحريك قدميها، لا فرملة ولا تحريك لسرعة العجلات. ما يزال رافع الفرامل اليدوي منتصبا. يداها ضاغطتان على مدار المقود. لا حركة ولا موسيقى أو راديو مشغل. زجاج النوافذ مغلق هو الآخر. فقط ما كان من ضغط عقلها وقد فجر دموعا ساخنة وتساؤلات حارقة. كيف تفسر علاقة حي المحيط بالسيد عمر؟

وعلاقته بالسيد علي بودحان؟ كيف تجتمع خيوط الماضي الذي رسمته مسارا مع حاضر خططت لرَ كبِه تحديا. لابد لها من سؤال أحد معارفها أو أهلها عمّا يمكنهم أن يعرفوه. ولكن تعليمات الأمن ألا تناقش أحدا في الموضوع. هل يحق لها أن تزور عائلتها في حي المحيط؟ هاتفت السيد عزيز السليماني. استفسرته حول الزيارة وبررتها بأمها المريضة.

- تصرفي آنستي بالشكل الطبيعي الذي تعوّدتِ عليه. فقط لا تدخلي في مناقشة موضوع حادثة دكان السيد علي بودحان. ستعرفين أسبابا أخرى في وقتها المناسب.

فكّرت في لطف الله. شعرت بخواء داخلي ومرارة أمعاء تريد أن تؤلمها قرحةً وتتفجر مختلطة مع تنفس. من يحاسبها في هذه الصورة وآلامها المنبعثة؟ لماذا تتقاذفها أشكال لوم على الذات بهذا الشكل؟ وهل هو وقت لوم النفس الآن؟ لم تخنه في مبدإ ولا في علاقة. كان تباعدهما تدريجيا واستدراجيا لاتخاذ مواقف متبادلة فيه. لكنها الآن تشعر بأنها خانت عهد الشباب الذي بنت فيه أحلامها معه. إنما اللحظة ليست لهذه المراجعة ولجلد الذات. كيف يمكنها أن تتواصل معه؟ وهل تستطيع إشراكه ثقل سرها الجديد؟ لن تهاتفه طبعا. فالمكالمات أصبحت مراقبة. هكذا فهمت عمل السيد عزيز السليماني. كيف تتبَّعَ

مكالمات وسفريات ومراسلات السيد عمر بدوي. كيف جمع معطيات خطيرة سيطلعها على بعضها كلما تعلق الأمر بتواصل جديد في إطار العمل وداخل مكتب الشركة.

فكّرت في أن ترسل أختها نجاة لتطلب لقاءه في منزل أسرتها بحي المحيط. ستتوسّل إليه لكي يحضر. أمر يهم الجميع دون أن يشرك الجميع فيه. وكذلك كان. قد تكون بعض الخطوات تحديا للذات أمام ما يمكن أن يعصف بها أو يكبّلها. لن تستطيع مواجهة المرحلة الجديدة بمفردها. لابد من وجود من سيساعدها ويساندها.

عاد لطف الله من محاولة بحثه وإيجاد صلة وصل وتواصل مع السيد عبدالله بودحان، فوجد نجاة، أخت حياة النفوس، تنتظره مع أخته بالباب. همست في أذنه تاركة نادية، أخت لطف الله، قابضة على بدلتها المنزلية محاولة التماس ما أسرّته له. ابتسامتها جعلت السر غراميات مؤجلة أو عاجلة بين ثنائي شكّل في ذاكرتها سجل مغامرات عشق ولقاءات حب في ما مضى. وبقي تخمين نادية مع ما يأتي لهذا العشق، بينما بقي تساؤل لطف الله الخفي حول سر انبعاث هذا الطلب في اللقاء والذي سيكون داخل منزل أسرتها بحي المحيط، حيّهما الذي ينتميان له اجتماعيا وأسريا.

استغرقت ساعات في انزوائها الداخلي. لا الأصوات المنبعثة هنا وهناك، ولا التحيات أو السؤال عن الحال، كلها أمور، لم تستطع زعزعة هذا الاستغراق. نبضات داخلية بحجم دوي كبير. كلما تتابعت كلما شعرت بأن الأمر الذي تشابكت خيوطه في عقلها ووعيها قد تمكن من عنقها ومن تنفسها. وضعت كفّيها على مدار جيدها وكأنها ممسكة برأس صاروخ يكاد يطير أو ينفلت من جذعه وجسمه. أسعفها تنفّس طويل ومحموم. تنفيس ضغط وخروج من انسداد أفق محتمل في الذهن. لا أمل في الرجوع لزمن بسيط عاشته وكانت فيه أمنياتها ببراءة صغرها وأحلامها .

هو حيّ المحيط الذي احتضن زمنا جميلا من عمرها، ها هو الآن يحتضن عودتها حانقة وحزينة. حاولت أن تستأصله من مرحلة معينة من حياتها، لكن حياة النفوس التي تسكنها والتي تتعدّد بين الواقع والآمال، تنتمي بالتاريخ والاجتماع لهذا الحي. وكأنه يرافعها ويحاسبها على هذا التنصل. يسجّل كل اللوم وكل المقارنات التي كانت تنزل صخرة تدك عمرانه وتاريخ أشخاصه.

ألم يكن حي المحيط من أبهى الأحياء بالمدينة، والذي ما يزال يمتد على الخط الساحلي للمحيط الأطلسي؟ ألا يمتلك أجمل منظر طبيعي مفتوح على لوحة زرقاء، لوحة أمواج تتقاذفها لعبة المد والجزر ولغة

الماء الهائجة والمسائلة للبر عن سر هذا الوجود، وهذا التمييز بين البر والبحر؟ ساحل صخري شامخ وهدير قوي يسجل للحي والمدينة سمفونية وجود وحياة خلائق؟ سكنته جاليات متعددة، واستقرت به شخصيات اختارت نعيمه وموقعه. كان له الذكر حيث لا ذكر لحي الرياض. كانت له حياة وما تزال. هل ستلوم حياة النفوس تغيرَ أحوال هذه الحياة؟ وهل تعلم هي سر هذه الحياة التي هي مستمرة كنهر يجري به الزمن؟ ربما لا.

هكذا يمكن لحي المحيط أن يجيبها، لو كان للمكان حق مرافعة الإنسان. ربما سيلوم الآن هذه الواجهة المزينة التي خدعتها داخل حي الرياض وفي أبهى وأرقى شوارعه وأحيائه. ثم إنها ارتمت في سكن بحي أكدال. فماذا تعرف عن حي أكدال المعاصر لها؟ ماذا كانه هذا الحي قبل أن تسكنه داخل شقة برقم وبفواتير وبخندقة مهنة وعمل تؤديه في خدمات هرمية وبجهد يجعلها مستخدَمة أكثر مما يجعلها سيدة نفسها.

لا. لم تكن هذه هي أحلامها الطفولية والشبابية. كانت عروسة مزينة بفستان البحر، واقفة حافية القدمين فوق الموج. كلما تسارع في مدّه كلما كانت ذراعَا لطف الله محتضنة ومستقبلة لها بابتسامة ووعود دافئة. كانت توليتهما بظهرهما لأسوار المدينة وجدرانها ومسالك صعود أزقتها برعاية وسهر حي المحيط. بعد كل مغامرة مسائية يُودِعانه سرَّهما

ويعودان للحياة العادية. كم من نفوس يا حياة النفوس عاشت معك في هذه الذكريات والأحلام؟

انزوت في ركن من غرفة الجلوس. وضعت وسادة على حوض بطنها وبقيت محملقة في لون الجدران. لم ترِد أن ترفع بصرها تجاه الصورة المعلقة داخل إطار لوالديها وهما يرتديان لباسا أدخلهما القفص الذهبي والذي كان جديدا يومها .

بدلة سوداء بربطة عنق طويلة وشعر أسود مفروق في تسريحته جهة الشِّمال.

هو أبوها الذي يحمل في دفتر الحالة المدنية اسم بوشعيب بن محمد بومهدي .

كانت العروس بلباس تقليدي وبضفيرتين طويلتين ظاهرتين فوق صدرها.

الصورة بالأبيض والأسود واللعبة القديمة التي قد تخضع لها الأم كما الأب هي تذكر لون كل خط أو شكل منعرج في اللباس أو غيره.

انعكست الصورة بقِدمها وطابعها ولونيها على نفسيتها فلم تعد ترى سوى لونين هما: الأبيض والأسود. لم تكن من سكان جزيرة (منجيلاب) الذين تفاعلت عوامل الوراثة في جعلهم لا يرون سوى اللونين الأبيض والأسود. حاولت الابتسامة أن تسرق من قسماتها وهي تتذكر حكاية

جدتها من جهة أمها والتي أثرت في بصرها فاختلطت عليها الألوان حين الرؤية، والتي كانت سبب البحث والتعرف على خصائص البصر عند الأفراد والشعوب كما عند ال(منجيلاب).
كيف للصغار أن يجعلوا همّ الكبار مزحة. كيف لها أن تجعل الآن من وضعها مزحة؟ لا تستطيع. واقع الأمر غريب وخطير ومخيف.

بقيت ببدلتها التي جاءت بها من حي الرياض. لم تغيرها رغم دعوة أمها لها بالاستراحة في بيجامة ناعمة. كان وقع رنات الجرس موقظا لها من هروب داخلي صامت. نادتها أختها نجاة التي سارعت لفتح الباب ودَعَت لطف الله لكي يتفضل داخل المنزل. وجدها على أهبة الوقوف لكي تسلم عليه. لكن هذه الأهبة انكسرت بمجرد إطلالته من باب الغرفة. سلّم عليها واستشعر أن هناك أمرا ما طارئا يستدعي هذا اللقاء. تساءل وهو في الطريق: هل تكون مريضة؟ هل هو صوت العلاقة والصداقة القديمة؟ علّق أسئلته إلى أن رآها أمامه في وضع يبدو عليه حزن وشقاء تفكير. لاحظ أن زوجي حذائها متباعدان على عتبة الغرفة. رغم الماركة الرفيعة التي تبدو عليه فإن وضع الحذاء المنقلب ترجم وضع صاحبته التي ربما ليست في حالة جيدة.

حينما رآها استحضره سؤال المسافة الزمنية الذي طرحه وهو في الطريق. لم يرها لمدة ثمانية عشر شهرا وزيادة. لقاء بالصدفة في شارع

المقاومة. كان لطف الله راجلا، وكانت حياة النفوس نازلة من سيارتها لكي تشتري مثلجات لأسرتها من محل (لوموندارن). كانت لياقته منبعثة من فورة الدم التي طبعت حمرة على خديه. أتى حينها من مقابلة في كرة القدم، والتي حافظ على ممارستها كل هذه السنين.

ها هما اليوم يلتقيان، وبمنزل أسرتها الذي لم يلجه منذ سنين عديدة. ربما في مناسبة اجتماعية ما. لكن هندسة المنزل ما تزال مرسومة في ذهنه وذاكرته، حدس معها أن أم حياة النفوس ستكون بالتأكيد متأهبة لسماع ما سيدور من حوار بينهما، ما دامت غرفة الجلوس على يسار باب الشقة، والمطبخ يأتي في بداية الممر المؤدي لباقي الغرف والمرافقِ. ولم تكن هناك أكثر من غرفتين بالداخل إلى جانب غرفة الجلوس. واحدة هي غرفة النوم للوالدين، والثانية هي صالون الضيافة الذي اتخذ لوظيفته أوسع الغرف فترك للأنام ما تبقى لكي يتصرفوا في استعماله كيف يشاؤون.

شغّلت جهاز التلفاز وهي ترحب به وتدعوه للجلوس. سألته عن السيد علي بودحان. كان الخبر قد عمّ حي المحيط، لكن الناس لم تنل من تفسير مقنع لما وقع. أيكون السيد علي قد طعن ذلك الزائر الذي تبدو عليه أناقة ورغد عيش وانتماء إلى طبقة موسرة؟ وما هي العلاقة

الجامعة بينهما وما السبب؟ أسئلة عدة زوبعت أذهان الناس وحواراتهم. جعلت بعضهم يطرق باب منزل السي علي بودحان، مثلما جعلت لطف الله يبحث عن صديقه عبدالله والذي لم يجد له أثرا لا عبر الهاتف برسائله ومكالماته، ولا عبر البحث عنه في المكتب الذي اتُخذ إداراة لأعماله الجديدة المرتبطة بالتجارة والبيع والشراء في العقار والاستثمار المقترح لممتلكات الأسرة الكبيرة لعائلة بودحان.

كانت عائلة بودحان الكبيرة قد تجمعت في العاصمة الرباط، ولم يعد لها من تجارة بالعاصمة الاقتصادية الدار البيضاء سوى اليسير. تركزت ممتلكات مشتركة بين السي علي وأخيه عبدالملك بالأساس. وكانت للسيد سعيد، الأخ الأكبر لعبدالله، جل حظوظ الامتلاك للحصة الكبيرة منها، خصوصا وأنه تزوج من ابنة عمه عبدالملك. كان اكتشاف عبدالله بودحان لمآل الثروة في جلها سببا في عقدته تجاه الأخ الأكبر وتجاه الأب كما العم كذلك. بدا له أنه صراع ذكورة قائم على أشدّه، ولابد له أن يخرج منتصرا فيه. إنما هو صراعُ فردٍ واحدٍ ضد ثلاثة. جعلهم ضده، خصوصا حينما رجع من فرنسا بعد استكمال دراسته هناك. لم يكن ليعير المسألة أي اهتمام لولا أنهم طلبوا منه أن يتولى إدارة الممتلكات والتفكير في تطوير عمليات البيع والشراء. سيكون مديرا

عاما للشركة ويحصل على راتب وامتيازات إلى جانب منزل للسكن والذي لن يجد مشكلا في اختيار ما يشاء له ويناسبه فيه كإقامة.

اطّلع على أسرار أمانات أبيه. تلك الفيلات والمستودعات والدكاكين التي بقيت مغلقة داخل حي المحيط ومنحدر حي (ديور الجامع). تلك الأسر التي تباعد الزمن معها فلم تتواصل حول مصير ومآل ممتلكاتها إلا في قليل منها. تذكّر بعض حوارات أبيه (سي علي) مع أسرته أو مع أصدقائه. رأى فرصا لكسب ثروات كبيرة وأموال طائلة. لم تضغط عليه مثل هذه الأفكار إلا حينما تكاثر تداول سماسرة العقار معه حول هذه الممتلكات. وحيث يكون للسماسرة دور في تبيان طرق تسهيل عمليات البيع والشراء، والمهم عندهم هو أن تكون لهم إتاوتهم ونصيبهم المستحق فيها، فقد شجعوه على سبل س"تُفَبرَكُ" فيها الوثائق وتزوّر أكثر مما ستجمع بشكل قانوني داخل ملفات. لكن الإشكال الأكبر والعقبة الأساس تجلت في كون أبيه يرفض رفضا باتا كل تفكير في مثل هذه السبل التي يعتبرها خيانات.

وبدأ التوتر والصراع. تصدّعٌ، حوّل شخصية السيد عبدالله بودحان لكي تصبح مدمنة على جلسات خمر وليالي أنس تشعل نيران سجائرها وحرقة كؤوسها نار الثروة وطمع الإثراء وحقن حقد وثأر وانتقام مما يمكنه أن يحصل في الآتي. هو بون شاسع سيصبح بين وعي

الأب والابن. بين شخصية عبدالله الجديدة وشخصية العائلة التقليدية التي تمارس ولاء عشائريا وتقسيما تحالفيا لممتلكاتها .

(- وماذا سأكون؟

هكذا رنت الأنا بسؤالها. ألستُ ابنهم؟ من عائلتهم؟ هل سأكون مجرد مستخدم سموه مديرا عاما للأعمال؟

- يا لسخافة ما أنا فيه. دراستي وعلمي وتأهيلي المهني والوظيفي، هل سأجعل كل هذا تكريسا لوعي متخلف يجمع الثروة المشاعة ويعيدها بحسب بقاء عصبة القرابة حاضرة. وماذا لو كنت لا أريد الزواج من ابنة عم لي؟ ماذا لو اخترت المرأة التي تناسبني؟ من أسرة خارج العشيرة؟ الحياة الجديدة بحي حسان ومرافق المدينة هي انتمائي الجديد. سأسحق هذا الوعي إذن. وليكن ما يكو ن !).

لقد تباعد الزمن بين الصديقين. لم يكونا على علم بأن الطبائع قد اختلفت وتناقضت. وربما عند لطف الله أكثر، لأنه هو الذي لم يعلم جديد صديقه عبدالله. منذ أصبح مديرا للأعمال في مكتبه الفاخر بحي حسان ومقيما بشقة فاخرة به، لم يعد يلتقي معه إلا نادرا. ولم يعد تَشارُكُهما إلا سطحيا في أمور لم تختبر الصداقة في قيمها الكبيرة التي

يجب أن تتطور إليها. أقله ما فكّر فيه لطف الله يوما دون أن يجهر به حتى لِذاته حفاظا على كرامته، يوم تساءل لماذا لم يفكر صديقه عبدالله في إشراكه في أعماله الجديدة؟ ألم يتقاسما الحلو والمر؟ الجوع والإشباع؟ الجهل والمعرفة؟ السذاجة والتجربة؟ حتى من أول علاقة جنسية أقامها عبدالله، كانت من اقتراح صديقه لطف الله. يوم قصدا حانة المنتهى قرب "محطة القطار المدينة" بعيدا عن حيّهما الذي يقطنانه، وحين أغرتهما زبونة في الحانة بليلة حمراء وبيضاء في آن. ليلتها لم يتوقّعا بأنهما سيشتركان مشاعا متعة جنسية مع امرأة واحدة، وأين؟ في حي المحيط، حي سكناهم. كانت هي التي نادت على سيارة الأجرة الصغيرة، وهي التي عينت المكان.

كان سائق سيارة الأجرة موصلا لثلاثتهما حتى بوابة العمارة حيث تكلف البواب بفتحها وتهيء دخولهم لها .

حين تذكُّر لطف الله لالتقاء عينيه مع نظرة البواب تذكر مستملحة سكان الحي لأيام الأحد والتي يقصدون فيها سوق الغزل. تسمية السوق الذي تباع فيه المواد والألبسة المستعملة والذي تقصده طبقات المجتمع والمدينة من أفقرهم إلى أعلاهم ادعاء للبرجزة، هي (سوق النعام). تلتقي الأعين حين رفعها من كومة السلع المنشورة هنا وهناك و(تغط)(داخل فرزها وتنقيبها عما يناسبها من ألبسة دون تحية سلام

مع من يعرفهم الشخص. لا تعرفني ولا أعرفك الآن. ربما بعد الزوال في مقهى أو في جولة الشارع والبولفار نتبادل الابتسامة والتحية وديبلوماسية المقام. أما هنا فلا ديبلوماسية سوى تنكر للآخر وعدم التواصل معه. قد لا يرضى أحدهم بتذكره يوما بأنه يشتري ملابسه من سوق المستعملات.

هذا ما وقع للطف الله مع بواب العمارة. (ابّا مولود)، قيدوم حراس العمارات ومواقف السيارات. صاحب سيرة ومحكيات داخل حيّ المحيط. يعرف الأسر كما تاريخ الحي وأسراره. لكنه ليلة المتعة المشاعة هذه، تنكّر للإثنين، مثلما تنكر له لطف الله. بينما كان عبدالله ثملا لا تتجاوز عيناه في إبصارهما ظل خطوه الذي يكاد يخونه ويسقطه مع تمايل جسده الثقيل.

- واه !

هكذا استغرب وتعجب لطف الله وهو يجد نفسه يلج خلسة بوابة عمارة ذات ثمانية طوابق، ما دام البواب يعرف أسرته بأكملها. كما استغرب عبدالله كذلك لكل هذا حين استجماع حكي وأطلال المكان وهو يستنتج بأن شققا عديدة في عمارات مختلفة توظف في الاستئجار لمثل هذه الليالي.

كلما استحضرا هذه التجربة كذكرى ضحكا من أعماقهما. وضحكا لمآلهما فيها، حينما انتهيا من العلاقة الجنسية قامت مضيفتهما الخاصة جدّا والمخترقة لعذرية عبدالله فدعتهما إلى مغادرة الشقة في الحين لأن صاحبها سيأتي بعد دقائق. وجدا نفسيهما في الساعة الثانية والنصف صباحا في الشارع، مطرودين من غواية لم تستمر. ضحكا وتمتعا بالاكتشاف والتجربة كما اندهشا لأسرار حي المحيط والعاصمة. قصدا مقهى بحي (ديور الجامع) يستمر في خدمة الزبناء ليل نهار. اطّلعا على عوالم الرباط ليلا وعلى أهل الليل في حياة العاصمة. كان دخولهما لمنزليهما ربما قبل دخول والديهما من صلاة الفجر. ذلك إن طابقت صدفة هذا ذاك.

ولماذا سيستحضر لطف الله مثل هذه الذكرى الآن وبعد كل الذي وقع؟ ما حاجته لها؟ لن يفكر يوما في استصغار نفسه وطلب العون المادي أو التوظيفي من صديقه. لم يعد عبدالله ذلك الغر الذي لا يعرف شيئا. ذلك المنزوِي الذي يخجل من مثل هذه المغامرات. أصبح مع منصبه الجديد وعقده الجديدة صاحب ثقافة متحررة من تقاليد المجتمع ومن كل ما يعتبره عيبا. هل له صديقة؟ وهل ستكون من مثل صداقة لطف الله مع حياة النفوس؟ هل هي علاقة حب أم علاقة مادة وإغراءات ونفقات متعة مقابل متعة؟

تختلف الشخصيتان مثلما تختلف المسارات المقدرة لهما. لطف الله ما يزال يناضل من أجل وظيفة ظنها يوما حقا له داخل دواليب إدارات وطن ينتمي إليه.

عبد الله، يصارع قدرا ركّب فيه عقدا وخالف فيه مراده وقيمته.

حكت له حياة النفوس ما وقع لها في الدائرة الأمنية. رجعت للحديث عن مسار مهنتها وعملها الجديد. أطلعت لطف الله على شخصية السيد عمر بدوي كما تعرفها وتراها. وضعت علامات استفهام كبرى حول نقاط غامضة استعصت عليها في الفهم. وها هي تنتظر من لطف الله لكي يدخل غرائب هذا الحكي الجديد وأسراره. كيف سيساعدها على فهم ما يجري؟ ولماذا لجأت إليه هو بالذات؟ ألم تحسم أمر حياتها في المضِيّ قدما وبرُقِيٍّ وعلاقات جديدة؟

كانت تظن أن كلمة الرقي كلها كمال ونقاوة وصفاء. كلها نبل وطهارة عطاء. لكنها الآن أضافت الجديد الذي أكمل قديم استنتاجها بكون الرقي نسبي وغير طبقي. لا يحتاج إلى كل المال، ولا إلى حي الرياض دون حي المحيط أو ما وازاه شعبية. وجدت حرجا وانزعاجا موترا في استحضار مثل هذه الأفكار الأخيرة الآن.

اهتزت أنفاسها رعبا حينما سمعت دوي فتح باب منزل العائلة بقوة وبصوت مرافق وصاخب بدا على صاحبه الترنح، أو هي الثمالة التي تسوق المرء للهذيان وسلوك غير متوقع للعيان. كان الداخل للمنزل أخوها فريد الذي يعيش مع أبيه وأمه هنا داخل هذه الشقة التي

باعدت الأختيين عن الإقامة المستمرة فيها. فريد الذي لم يتمم دراسته، والذي موّلت له أخته حياة النفوس مشروعا، بعد أن اقترضت من البنك قدرا مناسبا له. هي التجارة التي ربما تخرجه من مأزق البطالة والإدمان. لكنها تجارة كانت بغير المتوقع. كانت رأسمالا يوفر للإدمان مادته وثقافته. بحث فريد داخلها عن توازن بين ما يُحصّله من أرباح وبين السلعة التي ستضمن بقاء رأس المال كما هو. بقي الدكان الصغير الموجود في الساحة المحيطة بالمركز الثقافي "المهدي بنبركة" مفتوحا للفراغ. لا هو لبيع كتب ولوازم مدرسية، ما دامت تجارة موسمية، ولا هو لبيع تجهيزات مستعملة، وهي المنتشرة في دائرة هذه الساحة أكثر والتي يتفاوت تجارها خبرة وقوة تجارية، ولا هو دكان لمبيعات أخرى.

في بعض الأحيان قد يُحضر صناديق لبيع الفواكه كالموز والتفاح أو ما شابه. قد تروج العملية لأيام، لكنها سرعان ما تبور بسبب ارتفاع وتيرة الاستهلاك المرافق لها في طقوس وعوالم إدمان السيد فريد. أحلام كبيرة وأجنحة منكسرة. نفسية جريحة ومستقبل يلقي بوعده مع موج المحيط الذي لا يحقق له سوى جلسات التمني واستهلاك الحشيش وشرب الخمر. حتى الرفقة النسوية التي قد تكون حاضرة فهي مطابقةٌ مطابقةَ وموافقةَ شنٍّ لطبقة. وفريد يعلم العبارة ويوظفها مع جليسته كلما

كانت هذه العبارة مناسبة وملائمة في الحال وفي الترنح وفي المغامرة وفي انتقاد هذا الحال: (وافق شن طبقة).

لكنه الآن وقد عاد للمنزل من جلسة ثمالة مبكرة هذا المساء. وجد قبالة باب المطبخ أمه وهي حاملة لصينية شاي تريد إيصالها لجلسة الضيف مع ابنتها التي أصبحت سيدة المصروف في المنزل. كانت حياة النفوس تحاور لطف الله وهي متتبعة لظل أمها الذي يرسله امتدادا مصباح الممر المؤدي إلى باقي الغرف. يخترق مسافة فوق بساط الغرفة. تتقاسمه مصابيحها مع إنارة وضوء الممر. الآن، وهي تربط بين الصوت المفزع لفتح قفل الباب والظلين المختلطين والمخترقين بصوتيهما من خارج الغرفة، تستنتج درجة الثمالة التي هو عليها أخوها، وانفعالاته التي يفجرها في وجه أمه.

خفضت صوتها ودعت لطف الله إلى تهدئة الحوار حتى يستبين ما يريده فريد هذا المساء. ربما كانت حياة النفوس خبيرة بنفسية أخيها أكثر. ربما كانت الأم مطلعة على أسرار هذه النفسية من منطلق الأمومة. لكن أخته الصغرى وقد انزوت في الغرفة الداخلية بعيدا عن أي مشهد مفاجئ قد يرافقه عنف في السلوك أو الكلام، كانت أكثر ارتعابا. وهل غاب الارتعاب عن الأم وعن حياة النفوس؟ قد يختبران مثل هذا السؤال في وضعيات مشابهة من قبل. قد يضعان الاحتمالات

لكل ما يمكن أن يحصل في مواجهة سلوك فريد العدواني والاستفزازي والابتزازي. لعل درجة الارتعاب قد مرت وضغطت على العقل لكي يتحكم في القول ولكي يدعو النفس والشخصية لمواجهة الأمر بكل جدية وحزم، خصوصا وأن مثل هذه التصرفات امتدت لكي تشرك الآخرين من جيران أو ضيوف في الأمر. شكايات عديدة طرقت مسامع الأسرة من تهور فريد وسوء سلوكه أو استلافه بعض المال من هذا أو ذاك، من إحدى قريبات العائلة أو ضيفاتها .

لم ينفع البكاء والتذمر والاستنكار كسلاح لمواجهة ما يقع. وها هم هذا المساء أمام تصرف مماثل، لكن في وضعية أسوأ ارتبطت بحياة النفوس ورؤيتها التنبؤية التي ربما لن تبقى معها داخل هذه الشركة التي وفرت لها أسلوب حياة ومداخيل إضافية تحاول أن تنقذ بها عائلتها من الفقر والعوز والخصاص والسؤال... كلها مفردات أثثت قاموسا لغويا ومفاهيميا موضوعيا تدرك حياة النفوس معانيه ودلالاته. فكيف لا تكون مثقفة الحي والأسرة باكتمال درجات هذا الوعي وهذه اللغة؟

استفز فريد ضيفه لطف الله:

- ألا تعلم بأن الاستضافة تكون بحضرة الرجال؟ وليس بين النساء؟ وجه كلامه لأخته وأمه:

- هذا ما تبقى لشرف العائلة، أن تقحموا الرجال لبيتها دون وجود الرجال!

اتخذ لطف الله ممرا له بين الكلام وبين الاعتذار لفريد والاستئذان بالانصراف:

لم آت إلا لرؤية الوالدة والاطمئنان على صحتها. وأعتذر مرة أخرى.

انصرف، ومع انصرافه انهمرت دموع من مقل عديدة، حتى من عيني فريد. تحوّل عنفه إلى بكاء. كان الفراغ الذي شكل دواخله قد امتلأ بسحب مرعدة ومرعبة .

ربما تفجرت ودوّت في فؤاده فغلب الإنسان الضحية والمغلوب على أمره وطفا فوق سطح سلوك الغول الذي صنعته الثمالة وهيّجته. لكن تفسير حياة النفوس ارتبط بواقعية أكبر. فكرت حياة النفوس في لعبته هذه التي يمارسها كلما تأزم ماديا ولم يجد ما يعالج به إدمانَه وبوارَ تجارته أو ديونه غير المعروفة في حجمها وعددها. قالب العنف الذي سيليّن قلب الأم ويجعلها تعطف عليه كل مرة بإكرامية وبعض نقود بما يشتهيه هذا الأناني الذي حرق الغابة لأجل إشعال سيجارة إدمانه. لم تمض دقائق بعد الحدث حتى كانت حياة النفوس في طريقها خارج المنزل. التحقت بها أختها التي كلفتها بإيصال ورقتي مائتي درهم لأمها. علها تطفئ هيجان ذلك الوحش، كما نعتته.

- آلو !.ألو.

- صباح الخير، معك حياة النفوس. أعتذر عما وقع البارحة. هذا رقمك الرسمي إذا. أين ذهب الرقم القديم؟ طيب، ما رأيك في وجبة غداء بعيدا عن حي المحيط؟

- ماذا تقترحين كمكان؟

- أنت ضيفي اليوم. نلتقي في مطعم مارينا سلا. الساعة الواحدة بعد الزوال.

بالكاد انتهت من مكالمتها حين رنّ الهاتف. هذه المرة كان السيد عزيز السليماني مفتش الأمن المكلف بملف السيد عمر بدوي. أخبرها بأن سيارة هذا الأخير قد أُخذت لمرأب سيارات الشرطة بعيدا عن الأعين. يمكنها معاينتها إذا أرادت الاطلاع على ما فيها أو احتاجت شيئا من أوراق حجزت داخلها. عملية في غاية السرية لأنها لا تدخل في بروتوكول العمل العادي في مثل هذه الحوادث أو الجرائم. طلبت منه المجيء إلى مقر

الشركة لكي تخبره بما تنوي الإقدام عليه من خطوات .كانت الاستشارة حول توظيف ولو مؤقت للسيد لطف الله معها في الشركة. كان السبب أنه مستأمن على أي شيء يمكن أن يقع أو تخبره به، ولأنها في حاجة إلى من يساعدها في مجموعة أمور، خصوصا مع غياب السيد عمر بدوي ومع الصلاحيات التي جُعِلت لها مسبقا في تدبيرها وعملها.

سُرّت حياة النفوس حينما أخبرها السيد المفتش باستفاقة السيد عمر من غيبوبته وخروجه من المرحلة الحرجة والخطرة في الإنعاش. هو الآن تحت الحراسة الأمنية المشددة، يتلقى عناية ورعاية خاصتين. لكن لجانا مكلفة مهتمة بالتواصل معه الآن من أجل معرفة مزيد معلومات والاطلاع على شتى أمور مرتبطة بفحوى مباحثهم. بقي البحث مفتوحا حول ساعة الجدار التي انطلق منها مبرد حاد بدرجة سهم يخترق الجسم ويطعنه وقد يرديه قتيلا.

- علمنا أنه تلقى ساعة جدار ثمينةٍ هديةً من شخص ما. نحن الآن في تتبع لمعرفة من هو هذا الشخص، ربما يكون أجنبيا، وأين هو مكان تواجده الآن. يظل لحدود الساعة شخصا شبحا لا ينتمي لدائرة أو لغة أو بلد ما.

وكما تعلمين، فإذا كان أجنبيا موجودا داخل سفارة أو قنصلية، فالقنصليات معسكرات خاصة كأنها دول بحدود لا يمكن للدولة المحتضنة معرفة كل ما يقع داخلها. لهذا ستكونين على حذر وحرص في تلقي كل مكالمة. ستعملين على تسجيلها وسنعمل على تتبع خيوطها المكانية والرقمية والهوياتية وغيرها. يكفيك أن تحوّلي كل رنة هاتف مع هذا القن السري الذي سأسلمك إياه في هذه الورقة الصغيرة. لا يجب أن يطلع أحد عليه، ولا على ما يقع. لا تخبري ابن حيك بكل هذا.

- أين هو السي علي الآن؟

- لا أ ملك حق الجواب على سؤالك. عائلته مطمئنة عليه. لكن ابنه عبد الله متورط في قضايا غير قانونية، وربما لها علاقة مع السيد عمر بدوي.

أكثر من هذا لا أمتلك معلومات أجيب بها عن سؤالك. ولا تخبري أحدا كذلك بهذه المعطيات الأخيرة. أختصر عليك الأمر رغم إشكاله وخطورته: هناك الدرجة ألِف (أ) وهي التي تتعلق برجل أعمال من أوربا الشرقية، مبحوث عنه دوليا وعندنا توجيهات بتتبع خيوط شبكة تحركاته بالمغرب .

وهناك الدرجة باء (ب) في الملف، وهي المتعلقة بتورط السيد عبد الله بودحان مع السيد عمر بدوي في قضايا غير قانونية متعلقة بالعقار وتزوير الرسوم وغير ذلك .

إلى اللقاء.

في نفس اليوم، قام السيد عزيز مفتش الأمن بزيارة السي علي بودحان بمقر إقامته. جناح مرفق بفيلا عيادة طبية مختصة. وجد عنده السيد عبدالملك بودحان. كانت صينية الشاي متربعة فوق الطاولة الزجاجية التي تؤثث مجلس الأرائك البنية.

طمأن مفتش الأمن الجالسين حول صينية الشاي. بيّن لهما أنه لا ضرورة لمحامٍ الآن. لقد أخذ التحقيق مجراه، وكل الخيوط والمعطيات المادية والوثائق تجعل الحادث الدرامي كشبكة عنكبوت التفّت حول الضحية وجعلته موخزا الشوكةَ، رتيلاءَ كبيرة اسمها في عرف التنظيمات الدولية: (وخزة الفأر). حتى مقام الرتيلاء مستصغر فيها:

- السيد عمر هذا، له سوابق تعامل مع مافيات في أوربا، وخصوصا في أوربا الشرقية وإيطاليا. كان سائقا مع عصابة منظمة بمدينة ميلانو الإيطالية، مكلفا بنقل سلع مجهولة لا حق له في معرفة محتوى توصيلاته. بين محطة ألف ومحطة باء، يتوصل بمكالمة

هاتفية لمواصلة القيادة إلى محطة جيم... تكون هناك خريطة أمامه وإشارات هاتفية، ومهمة تنفيذ. في كل توصيلة ناجحة يحصل على عمولته الخاصة والسخية. لكنها أعمال تتم داخل شباك عنكبوتية، لا حق له في التراجع عن الاستمرار في المهام فيها. لابد من المضي قدما في المخاطرة والمغامرة، رغم أنه كان مجرد سائق استطاع التعرف على مجموعة من الأشخاص النافذين داخل إيطاليا وخارجها.

في ليلة باردة وعاصفة برعد ومطر غزير، استغرقت مثل هذه العملية أكثر من الوقت المخصص لها. كانت عنده محطات توقف مرسومة. وبحسب تصريحه الذي سجلناه في محضر خاص، كانت ثمان محطات هي، منطلقة من ضواحي مدينة ميلانو حتى طورطون، منتصف طريق جينوا. توقف خارج كورانا، ولم يتبق له الكثير من الحواجز. لكن المكالمة الهاتفية التي ينتظرها لمواصلة الطريق لم تحصل إلى يومنا هذا. وتلك الأرقام التي كانت تتصل به انقطع إرسالها.

أحكي لكما أنتما الاثنين لكي أُطمئِن بالخصوص سي علي بودحان. أعلم أنك متوتر ولا تصدق ما وقع. لا يمكنك أن تتصور أن ما يحصل الآن مطَمئِنٌ. من حقك أن تقلق. لكن، اِعلم سيدي بأن هناك أوامر مكتوبة وموقعة بخاتم الإدارة من طرف السيد وكيل الملك، والسيد

قاضي التحقيق، تجعلك بريئا من كل شبهة وتشكرك على تعاونك وصبرك معنا. نادينا على أخيك السيد عبدالملك نظرا لحساسية القضية، ونظرا لرزانة وحكمة السن والخبرة الحياتية. الأولاد قد يجرؤون على إخراج أسرار القضية ولن ننجح في الوصول إلى بواطنها وإخراج مخلوقاتها الضارة من جحورها إذا وقع تسرب لمعلومات ما.

بالنسبة للسيد عمر هذا، وجد نفسه مرغما على اتخاذ خطوة ما. لا يعلم من أرسله، ولا من يتصل به. لا يعلم لمن ستكون الإرسالية. نظر خلفه وقرر فتح الأكياس السوداء البلاستيكية ليعرف ما سيفعل بها. اندهش لرؤية أوراق مالية بالعملة الصعبة من اليورو والدولار. كان عليه أن يتخذ قرارا. وكان القرار صعبا. رأى تصفية عناصر خائنة للتنظيم من قبل. يعلم أن الرصاص الحي موجه له إذا ما فكّر في أمر ما. بحث في مذكرة الهاتف الخاص به. تسمية (إيفانوف)، فريدة من نوعها ضمن قائمة المسجلين في المذكرة. شخص مستقر بين فرنسا ومدينة تورين الإيطالية. وكانت أقرب محطة للسيد عمر هي تورين. اتخذ المسالك الجبلية الوعرة. احتسى جرعات متواصلة من الفودكا. كان القرار متبلورا في التخطيط والتنفيذ.

هذه بعض تفاصيل القصة كما أخبرنا به السيد عمر بدوي وكما تلقيناها كمعلومات عامة حولها، قد تطول في حكيها، والوقت لا يسمح

بذلك. ربما أعود لمواصلة حكيها معكما في الآتي. إنما الآن، أطلب منك يا سي علي أن تحدثني عن ابنك عبدالله. كيف درس وكيف أصبحت له شركة باسمكم ومباركتكم؟ نريد وضوحا في علاقته بالسيد عمر.

(كان عمر بدوي ابنَ الحي النبيه. خفيف الحركة وسريع الفهم والبديهة. باركته نساء الزنقة وجارات أمه. حينما يعود من لعبه ومغامرات طفولته، يكون المبتسم والطالب لكسرة خبز وزبدة أو لِما جادت به أنامل الأم التي يقبل يدها ورأسها. وهو اليتيم الذي توفي أبوه بمرض السل. تقرير الأطباء يرجع السبب لغبار المناجم التي انتقل عبرها خلال حياته من جبل إلى آخر، ومن تل جبلي متشكل بإفراغ جوف الأرض من ترابها ومائها إلى تل آخر.

استهوت الأب تلك الآلات الضخمة، وذلك الاكتشاف المتجدد، والتعلم الكبير المرتبط باستعمال هذه الآلات واستخلاص المواد المختلفة منها. لا يرى من فعاليتها سوى شحنها في حمولات الشاحنات وعربات القطارات التي تحملها إلى الجرف الأصفر قرب مدينة الجديدة أو إلى ميناء مدينة أسفي.

أبٌ، يعتبر الإنجازَ انتصارا على الطبيعة. طبيعةٌ تعتبر استفراغَها انتقاما من شح السماء وعدم تساقط الأمطار. أو على الأقل هو شعور الأب، أحمد بن الصديق، الذي لفظته البلدة الأصلية مثلما لفظت أسرا كثيرة تاركة حقولها التي شقق لهيب الشمس تربتها فتركها يبابا سوريواليا لا يحن لنبض حياة بدرجة اشتياقه لنضب يكمل به لوحته الصفراء.

هذا الجفاف حمل الأب على ترك الفلاحة وعملها وصبرها، وعلى أن يصبح عاملا في شركات الفوسفاط. وهذا الإدمان الذي حمله على أن يضمن علب سجائر تحترق بها أحشاء الشجن من ماضٍ مليء بالفقدان والحرمان ليعيش في حاضر يصارع بجهد السواعدِ طبقات الأرض ويجد في انتظاره زوجة تعده أحيانا بدفء ونعومة صوت وفراش، وأحيانا أخرى بوعيد خصاص. وسرعان ما تبدل الحال، وغيّر السيد أحمد بن الصديق جدلية بأخرى. العامل ليس هو الفلاح. لكن عرق الجبين المتصبب هو نفسه، وخصوصا حينما تستريح قامته من انحناءة فأس أو معول بمسح الجبهة بالساعد وتتمة المشهد بصفحة الكف وجانب السبابة في التخلص من العرق. ها هو الجسد يعيد للأرض بعض قطرات علها تشفع له وتقبل منه قربان تعبه وجهده.

لكنه الجفاف الذي انتقل من الأرض إلى صدر الإنسان، وقبله إلى جيب مصروفه وعدم قدرته على الرقي بأسرته. وكان عمر نتاج هذا المخاض العسير الذي شكلته حمرة في السماء ناتجة عن تراقص غبار الأرض مع زرقة تعده بسفر إلى بلدان عدة وبتحويلات كبيرة مستخدمة في الصناعات المتطورة. هو الفوسفاط، وهو عمر الذي لم يرث من تلك الحمرة سوى عينين اغرورقتا دمعا في حنين إلى أب توفي).

هل تكفي هذه المقدمةُ السيدَ المحامي الذي سيتكفل بالمرافعة دفاعا عنه في قضايا شائكة؟ رغم أن وقت المحاكمة والمرافعة لم يحن بعد، فإن حكي السيد عمر بدوي لمحاميِه عن تفاصيل حياته، كان دافعا لكي يدونها ويعيد صياغتها بالشكل الذي يناسب استمالة هيئة القضاء المكلفة بالنظر في الملفات التي يتابع فيها السيد عمر بدوي.

(عمر بدوي سيدي القاضي، وهنا أعتبر سيادتكم في مقام الناظر في قضاء وقدر، من يمتلك حق الشفاعة لحال الإنسان وظروفه الصعبة التي أنتجته، طفل لفظه التراب لكي يخطو بين دروب النار. ولا يخفى عليكم أن مناطق من المغرب وجدت سبيلا للهجرة إلى الخارج بطريقة تهجيرية جماعية، ينجو فيها البعض، ويموث البعض الآخر .

قد تحتفل أسرة بنجاح ابنها أو ابنتها في العبور إلى الديار الأوربية. لا تهم اللغة ولا البلد. سيتعلمانها. سينخرطان في عادات أهلها. سيعرضان ابتساماتهما وصلابة عودهما لكي يحققا الخلاص من الحرمان ومن تهديد الجفاف والمجاعة والخصاص الذي يلاحق أرواح أهلهما. وأؤكّد سيدي القاضي على الجنسين، الذكر والأنثى. تصوّر فتاة تخرج من منزل أسرتها مغامرة ومهاجرة، حارقة نفسها ووجدانها واطمئنانها بلهيب البحث عن قطعة خبز مرمية وسط جمر النار.

وتصوّر بنفس درجة الشعور والتعاطف، شابا كذلك بنفس درجات المخاطرة والحرمان والارتماء في المجهو ل وجحيم التجربة. هذان الشابان هما شجرة هذا المجتمع التي لفظها حقلها فخيّرها بين أن تموت واقفة فوقه وبين أن تستأصل حافية وعابرة أشواك المقامات لكي تأتي بقربان يضمن شفاعة السماء، لكي يبقى هذا الإنسان فوق حقل هذه الأرض.

لم ننس الاحتمال الثاني. الوجه الآخر للعملية. بين نعيم وجحيم، قد تحتفل أسر بدل واحدة بنعي أولادها وموتهم غرقا والتهام الحوت لفلذات أكبادها .

وحيث يكون الموت قضية حاضرة في الحياة، واحتمالا في الشعور والرقص على سكتي الوجود والعدم. سيموت الإنسان قبل العبور، لأن إمكانية أن يحط قدميه فوق رمل ساحل أوربي ترافقها إمكانية الغرق أو التخلص من هذا الإنسان وسط أمواج هادرة وحيتان تتراقص في استدارة استعدادا لوجبة القدر الآتية، وكأن هذا الإنسان وليمة لبطن الحوت المحظوظ. وسيموت بعد العبور حقيقة، إذا ما وصلت جماعة ناجية إلى هناك، إلى تلك الجنة الخادعة، إذا لم يجد المراقبون اسمه ضمن لائحة الناجين. هنا، سيدي القاضي، تستحق الموت احتفاليتها، ويستحق الأهل أن يوقّعوا على الوداع الأخير، وعلى ذلك العشاء الأخير

الذي نسميه (تفريقا). نعم تفريق يفصل بين أن تكون أو لا تكون. لقد ما توشيّعنا جنازة له. ولكن، هل وصلت الجثة؟ هل تم الدفن حقيقة؟ ما أعلمه سيدي القاضي، أن شابا قريبا لأحد أفراد أسرة القضاء قد هاجر سرا ضمن فريق مغامر تجاه أوربا. ونستغرب كثيرا حينما نجد أن شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وبالتحديد بالقرب من مدينة الناضور، هذا الشاطئ هو الذي احتضن المشهد الأول للمغامرة، وهو الذي وعد أو توعّد بالمشهد الذي يليه. لكن البث للمشاهد انقطع لمدة عشرة أشهر تقريبا. بعدها، جاء الخبر من الجارة الجزائر: صيادون على متن قاربهم، علَق في شباكهم سروال جينز مهترىء وملتف حول حزام جلدي. من بين ما وجدوا في إحدى جيوبه الناجية من التمزق والتلف بطاقة تعريف صاحبها المسمى قيد حياته عمر الشرقي داخل كيس بلاستيكي محكم الإغلاق. كان ثقل السروال لبقاء عظام الساقين بداخله أكثر من فعل بلل الماء وملوحته.

هذا ما تبقى من إنسان سيدي القاضي. إنسان حلُم يوما بمغامرة حياة من أجل حياة أفضل. ربما عمر الشرقي هذا سيكونه عمر بد وي أو أي إنسان مغربي لفظه البر، والتهمه حوت البحر، وقذفه الوجود إلى تيه العدم.

سيدي القاضي، لقد استطاع عمر بدوي العبور كطفل إلى هناك. حقق تحدّيه لكل ما سبق. هل هي معجزة أم بطولة ملحمية؟ ما تزال الملحمة مستمرة، وكأنها الأعمال الكبرى لهرقل، تلك التي وعد بها أو ألزم لكي يقوم بها. وستجدون سيدي القاضي ورقة أدبية مرفقة في الملف تتضمن ملخصا استئناسيا لقصة هرقل. المشترك بينهما هو انتماؤهما للبحر الأبيض المتوسط. والبقية استنتاج .

شكرا لكم سيادة القاضي على الصبر والتتبع[3].

لقد مرّ السيد عمر بدوي كطفل من صراط الموت بين قصف وبارود وسقوط ضحايا قتلى وجرحى أمامه، ومرور رصاص بجانب

[3] (كانت هيرا تكره هرقل بشدة ولذلك وبينما هو نائم هانئًا في وسط أسرته السعيدة، بين زوجته وأبنائه، تسللت إليه ولمست جبهته وكان ذلك كافيًا ليصيبه بلوثةٍ جعلته يتوهم أن كل من يحيطون به هم أعداء يجب القضاء عليهم وبذلك اندفع هرقل دون وعي يطوح بيديه يمينًا وشمالًا وأخذت تلك اللوثة تزداد حتى هب ذات يوم من نومه في ثورة شديدة وفتك بأبنائه جميعًا وهنا شعرت أثينا بالعطف عليه فضرب رأسه بحجرها المقدس لتذهب عنه اللوثة. وهنا أفاق هرقل واستبد به الحزن الشديد لما فعله ونفى نفسه بعيدًا عن العالم وهام شريدًا حتى انتهى به المطاف إلى معبد دلفى فجثا على ركبتيه وأخذ يتضرع للآلهة أن تهديه لطريقة يكفر بها عما فعله من إثم كبير.وعندما أحست هيرا رغبة زيوس للعفو عن هرقل، لجأت إلى وسائلها الملتوية حتى أقنعته أن يحكم على الفتى بأن يخضع للسلطان يوريسيثوس ملك أرجوس وأن يمتثل لكل ما يكلفه من أعمال. وهنا عرف الجميع ما سيلاقيه هرقل من صعاب ومشاق فأسرع كل منهم لتقديم يد العون إليه: . منحته أثينا خوذة لرأسه . منحه هرمز سيفًا حادًا . منحه أبولو سهمًا وقوسً ا . أعطاه بوسيدون جوادًا . وهبه هيفايستوس حذاءً من نحاس . حتى زيوس . قدَّم له درعًا قوية رائعة.

وكانت هيرا قد ملأت رأس الملك "يوريسيثيوس" بأفكار عجيبة عن اثني عشر عملًا من أشق وأصعب الأعمال التي يمكن تصورها وكان الجميع يعلم إن فشل هرقل في عمل واحد من تلك الأعمال فذلك يعني هلاكه والقضاء عليه وكانت تلك هى رغبة هيرا).

صوان أذنيه أو فوق طبقة شعر رأسه. أصبحت نظرته رمادية لا تنبت أملا. تجد الموت وهي تتنفسه في حياتها وفي مراحل تجريب هذه الحياة. وهو الناجي من هول غول الممات. من المغرب إلى ليبيا إلى مالطا إلى إيطاليا .

وإذا كان قد نجا من حوت البحر، فها هو قد وقع على حافات المناشير المسننة لحروب البر واستغلال المافيات للمهاجرين غير الشرعيين. سخرة وعبودية جديدين. استغلال أبشع لا تذكره وسائل الإعلام. قليل من المحققين والصحافيين الذين يعطف قلمهم وتحن كاميرات تصويرهم لواقع الاستغلال الذي يقع كل مهاجر ومهاجرة ضحيته. ورسميا، ينظر إلى الجانب السلبي في حضورهم هناك. أما هنا، فلا يستلطف سوى الذي نجح في النجاة من الموت، والذي حمل معه إكسير حياة ينقذ به هؤلاء الموتى الأحياء فوق الأرض هنا. يستلطف من حمل معه عملة صعبة ووضعها في حساب هنا. وسأعود سيدي القاضي لقبول الإدارات والمؤسسات لعمل السيد عمر بدوي وتشجيعه على توسيع استثماراته هنا وبماركات نافذة جدا عندنا.

كان طفلا وقد نجا، وأصبح شابا منخرطا في عمل غير شرعي. هرب من هناك نجاة بجلده من تصفيات مؤسسات المافيا ومخاطر تصفياتها. لم يكن ليقبل الاستمرار هناك. ثم أصلا، لماذا ذهب؟ لماذا استقبل

بحفاوة هنا؟ أليس من أجل المال؟ هذا المال جعله في بلده ولصالح بلده. يؤدي الضرائب ويشغّل ويخلق المناصب. هو رجل الأعمال الذي أصبح ناجحا وصالحا لبلده. واعلموا سيدي القاضي بأن ما يمكن أن يؤاخذ عليه السيد عمر بد وي سيكون مما اضطر للتخلص منه من ذلك الماضي غير الشرعي الذي قضاه كمهاجر غير شرعي هناك، في ديار المهجر).

(ستترافع النيابة العامة ضد ما أقول. وأنا على علم بأنها ستطالب بغرامات ومستخلصات. لكنني أرى في طلبها تجميدا لما يمكنه أن يكون شريان حياة متجددة وساقية لعروق الشباب واقتصاد المجتمع.

تصوُّرِي سيدي القاضي أن تجعلوه منوها به على نجاحه وعلى استقامته في ما نطالب به من براءة وإخلاء السبيل. ربما إذا وقف الأمر بين هذين الوجهين والمرافعتين ستكون القضية جميلة كقصة وكخاتمة. يكفي أن نرى بأنه ضحية تنظيم مافيوزي دولي اختر ق الحدود والقانون وتسلل لكي يقضي على حياة مواطن يساهم في بناء بلده وتطوره).

- يعتبر لقاؤنا هذا هو الثالث، ولم أسمع منك بعدُ ردا على اقتراحي.

كان فعلا لقاؤهما الثالث. وكان كل مرة يتم تحت طلب الآنسة حياة النفوس. إنما هذه المرة كان موعدا بمطعم في محج الرياض. داخل عالم حياة الآنسة "حياة النفوس". اللقاء الثاني تم في مقهى بحي أكدال، قريب من سكنى حياة النفوس.

وما يغريه ! في كل لقاء يراها بفستان جديد أو بدلة أنيقة ورفيعة الاختيار في ثوبها وفصالتها وألوانها. عطر متجدد ومحيا بهيج وعينان ألفهما وسكنتا روحه منذ سنين، رغم غدر هذه السنين. لكنه عقل شقي يبارز حنينه واشتياقه. يرغب في لقائها، برغم كونه ما يزال مترددا في عرضها. لو أن هذا العرض لم يرتبط بقضايا أصبحت غامضة ومتابعة من طرف أجهزة الأمن والقضاء. حيّره التفكير في هذا البون وهذا المسار. لم يتحدث لها عن علاقاته ومغامراته التي عاشها ويعيشها. وجد نفسه في شباك الاضطرار لكتمان سجلّه في العشق وفي العلاقة بالأنثى. وهل عليه أن يبوح ويعترف؟

- لا !

بصريح اللفظ، أسمَع نفسه جهرا. وكأنه ممسوس بآخر يحاوره فيرد عليه بصوت قد يسمعه به من يمر بجانبه. لم يكن راضيا عن كل تلك العلاقات التي قد تجمعه مع نساء أخريات. لا قانون يسمح بالبوح ولا

شرع يجيز الاعتراف. حياة القدر خارج المسموح، وشعور متجدد بالذنب كلما نوى أن يذهب لصلاة جمعة والجلوس بين الصفوف لخطبة الإمام. تمزقُ وعيٍ يتمنى معه لو أن السيد الإمام لن يتحدث في جمعته عن الحلال والحرام .

- الفسادُ طبقات سيدي الإمام:

- هلا ارتقيت في تعريته؟ ! لا تكتفِ بتعريتنا نحن الذين أتينا للجلوس أمامك. الله سبحانه وتعالى يطّلع على حالنا ويعلم درجات التعامل مَعنا.

كُفَّ عن نعتنا بسبابتك وحاول أن تصوبها هذه المرة لمن تسبب في شقاء حالنا وعطالتنا وتأزم أسرنا وتحول قيمنا. من منا لا يحب أن يكون ملاكا وخلاصا؟ لا أحد. ولا أحد ملاك سيدي الإمام .

يلتفت في جلسته داخل "الطرام"، عربات النقل المسير في خطٍّ ملتزم داخل المدينة، ليتأمل ساحة المكتبة الوطنية الجرداء تحت أشعة شمس لاهبة .

يستغرب من هذه الأفكار التي اخترقته وكأنه لم يرغب فيها. ستكون حياة النفوس بانتظاره نهايةَ سيرِ الطرام بمدينة العرفان، وسيذهبان معا في سيارتها إلى المطعم بمحج الرياض.

شعر بعجلات هذا القطار وكأنها تسير بعكس اتجاه حياته، ذاك الذي يسجل عودة بالذاكرة إلى الوراء، إلى الماضي. وهذا الطّرام الذي يسير به نحو مجهول في المستقبل. هل يرغب فيه أم تراه يرفضه؟ فهل ينزل في أول محطة مقبِلة، قبل أن يلتقيها؟ ربما يعود راجلا كل هذه المسافة التي أخذته من داخل حي المحيط إلى مدينة العرفان وحي الرياض. وماذا سجلت مرايا الماضي كفلاشات وصور وأحداث وأحكام ومقارنات؟ أغمض عينيه فذهب في حلم يقظة. وكأنه في طريق مظلم، تقوده حياة النفوس فيه. تسير فيه عجلات السيارة في غياب الضوء والإنارة. ظلام في ظلام. لا رؤية تستبين. يدعوها للفرملة. ولا فرامل تشتغل لإيقاف سير السيارة السريع.

ظلمة حالكة مستمرة في إفزاع كل راكب، وكأنه شارع المقاومة بحي المحيط، والاتجاه مفترق طرق لا يدري إن كانت السيارة ستصل إليه وتجعل الراكبَين ينجوان من أي اصطدام محتمل. ينظر لطف الله إلى شبح حركاتها، محاولاتها في التحكم في استقامة اتجاه السياقة، وفي إيقافٍ مرجوٍّ لسيرها. أطلال العمارات والمقاهي والمحلات التجارية ومكاتب الإدارات والمحامين والأطباء، كلها من نسج الذاكرة الآن. وكأنها تقهقه وتسخر منه ومن حاله الآن. لا رؤية للفضاء ولا للطريق، سوى بالاستعانة بهذه الذاكرة. وفجأة، تستدير السيارة جهة اليمين، وها هو

الضوء من جديد. لكنه ضوء النهار وليس ضوء مصابيح السيارة. نهار لم يكن هو ذلك الليل. وكأن بينهما مسافة ومنعرج. وكأن المنعرج فاصل وبرزخ بين ظلمة وضياء. هو الحلم. هو منحدر الشارع المؤدي إلى (باب الحد). وأي حدّ هو أو أحد؟ حاجز أمني كبير بسياج حديدي يوقف ويراقب. رجال مسلحون متأهبون. جهاز مراقبة يدعوهما إلى النزول ورفع أيديهما في السماء. لا حركة !

يُقادان جهة الرصيف وحقيبة تجرها حياة النفوس موضع شك المراقبة الأمنية.

- مجرد ألبسة تقليدية أستعملها في المناسبات الاحتفالية.

وتتحول صورة الشرطية المفتشة والمراقبة إلى وجه مألوف. تتعرف على لطف الله، وتدعوهما إلى ترك السيارة جانبا وإيصالهما إلى محطة القطار القريبة.

(الاتجاه القادم: محطة العرفان). يوقظه المنبه الصوتي من غفوته وحلمه. يفتح عينيه لتمتلئا بضوء بارق احتاج في مواجهته لإنزال نظارته الراسية أعلى جبهته. أراح بصره من قوة الانعكاس بتحويل النظر لتذكرة الطرام. لونان مهيمنان، أبيض وأحمر، يخترقهما لون أسود

متماوج إلى رمادي: صلاحية التذكرة. سفر واحد. عنوان إلكتروني خاص بشركة الطرام. أرقام متسلسلة 357023... لا عدّ يجدي في ضبط رقم التذكرة. ما تزال أصابعه ماسكة في ضغط على تذكرة ذهابه إلى حي الرياض .

استعد للنزول في المحطة وعقله مشوش بما رأى، وبما ينتظره. لم تعد مسيرة الطرام واقعية في ذهنه. وكأن سير الماضي راجع دواخله. لكنه لم يخبره بالمتغيرات التي حدثت في نفسيته وعقله وتحليله. لم يكن مخدّرا، ولم يتناول مادة مخدرة.

منذ مدة لم يفكر في جلسة قنينات تنسيه الواقع اليومي المرير والعطالة القاتلة لكل طموح. منذ مدة آمن بأن بلده حظوظ. ومن لا حظّ له فعليه بجيبه ووسائط الدفع تحت الطاولة مقابل الحصول على حق من المفروض أن يضمنه له المجتمع ومؤسساته. كرامته لا تسمح له بحكي كل الشقاء الذي يعانيه، ووسائل الحصول على مصروف مناسب يساعده على الصمود في مرحلته العمرية وشخصه المعنوي ومعنوياته. وطبعا، لن يحكي لحياة النفوس عناءه في كل هذا، ولا ما كان فيه. خصوصياته هو، مثلما لها هي خصوصياتها كذلك، وتريد أن تقحمه فيها.

- يجب أن أخبرك بشيء مهم.

كانت أول جملة تلفظت بها مع تحريكها لعجلات سيارتها (كليو) الجديدة، بعد تبادل قبلتين جانبيتين على الخدين. وضع حزام الأمان ولم تسمح له اللحظات في البوح بأي كلام. داخل الإشارة بهذا الإخبار، بقي منتظرا ما ستبوح به أو تتكلم به حياة النفوس.

أيكون حدسه قد ألهمه بما هو مقبل عليه؟ أتكون (المنامة) أو الحلم رؤيا صادقة ستحصل في حينها بهذه السرعة في التحقق؟

بدت عليه ابتسامة ساخرة ومتخوفة من نفسه أكثر مما هي متخوفة مما سيسمع من حياة النفوس. وكيف لا يسخر من نفسه وقد اخترقته المفارقات والصدمات فأفقدته الثقة في جل الطموحات التي ركبها فروسية غور واستكشاف وإقدام وتجارب ومحاولات... لم تكن أفكاره وليدة اللحظة. هو يعلم هذا. كل السنين التي مرت، وهذه المدة التي تباينت في حظوظ الحياة وافتراق طريقهما، جعلت وجدانه يستقل عن إشراق أشواق عفوية أو ما يسمى الحب تجاه حياة النفوس. لم يرد أن يبدوَ تصرفه وميله أو شعوره حقدا أو رغبة في الانتقام. ربما انتقم من قدره بأن ارتمى . وهذا ما لن يبوح به لها . في تجارب علاقات غريبة ومغامرات فريدة لم يعد هناك ولو حتى من صديق يستطيع إفراغ ما في

جوفه من أسرار له حولها. لكن مرآة وصورة حياة النفوس كانت عاكسة بروحها وشريط اختراقها لخيط وجوده وحياته وتجاربها، ما يجعل هذا نتاج ذاك. ما يجعل شعوره بالذنب في كل تلك العلاقات لا يقحم علاقته بحياة النفوس. يعتبرها دائما طاهرة وحلالا ومشروعة باسم الحبّ الصادق الذي تبادلاه. ولا شرعية مقدسة فوق شريعة الحب. هكذا علّمه نزار قباني. هكذا غنّى مع كاظم الساهر وجورج وسوف وغيرهما. ولعل اختياره لأقوى الأصوات تناسب مع الحب القوي والعلاقة القوية التي عاشها مع حياة النفوس.

اختمرت كل هذه الأفكار في ذهنه خلال هذه الأيام الأخيرة التي بدأ فيها التواصل من جديد معها. وبينما كانت حياة النفوس منتبهة لحركة مرور السيارات وهذا الازدحام الغريب لها والذي غزا المدن المغربية كما العاصمة الرباط، كانت عيناه متأملتين امتداد زوج حذائه. جعل تحليله منطلقا منهما. تذكر أن حصوله عليهما استغرق أشهرا من أجل توفير ثمنهما. فعلا إنه حذاءمسجل بماركة عالمية، لكنه تقادم صبرا مع صبر صاحبه وانخراطه في يوميّ عيشه ومشيه وحركاته. جهده من جهده وكفاحه من كفاحه، وهكذا .

يتذكر لوحة حذاء فان كوخ والتي أصبحت عالمية في الانتشار، وشعبية في الحضور على مدار المركز الثقافي المهدي بن بركة، على مدار

دكاكين بيع الأشياء المستعملة، ومعها التحف واللوحات وكل ما تقادم رمزا أو مادة. ابتسم داخليا لمنظر ساخر يتماشى مع فكرة الحذاء البالي. تلك الأحذية الرياضية التي تتمزق في عز أوقات المباريات الرياضية التي يجريها مع عشاق كرة القدم من أبناء المدينة الرباط، من مشاركي هذا الزمن المرقع في لباسه كما في عيشه. كم من فردة علّقت فوق سلك كهربائي وشكّلت لوحة معبّرة قد تسر أو لا تسرّ الناظرين. لكنها جعلته يبتسم داخليا في عز معركته النفسية الجديدة.

استحضر كذلك ذلك المشترك مع حياة النفوس في الحكم على شخصية الإنسان من هيأته ولباسه، وبالخصوص من مظهر حذائه حيث درجة تمدنه من بداوته. كانت لعبتهما، والآن، أصبحت محاكمة ومحكّمة له، يتواجد داخل قفص اتهامها. غصة جديدة تختبر احتراقه.

هكذا إذن. التفتَ متأملا حي الفيلات الذي اخترقته عجلات السيارة اختصارا للطريق. أسوار عالية تحجب الرؤية والنظر. ما وراءها نعيم صامت يمتلكه آخرون. وما هو فيه من حال صوت عجلات ومحرك سيارة يقوده إلى مجهول. ولا هو بممتلك لهذه ولا لتلك. أطلّ على مدار جانبي حذائه الأبيض. ما يزال بلونه الطبيعي. بعض شحوب لا يؤثر على زرقة جلد هذا الحذاء الرياضي الذي اختاره لهذا اللقاء وهذه الدعوة. مرّر صفحة كفّه وأصابعه على ذقنه. ربما حاول تحسس تجاعيد فوقه

أو تحته. ربما سبرٌ هو لحال النفس مع حال الواقع مع حال الجسد والذات. أيّ جانب يحقق التقادم وينذر بشيخوخة حياة.

شغّلت حياة النفوس موسيقى محمّلة لها في جهاز تخزين وميضي صغير جدا(usb) نظر إليها مبتسما. هل اختارت عمدا هذه الموسيقى؟ ما يعلمه من تاريخ علاقتهما أنها كانت محبة للموسيقى الشرقية في حضرته، وأنه كان ميالا للموسيقى الغربية. حقيقة أنه كان يطربها بأغانٍ مغربية وشرقية أصيلة، لكنه لم تكن باستطاعته تفسير هذا الميل المتقابل في الاستماع مع ما ينشده ويطربه أداءً. ها هي الآن تشغّل أغنية أولى للمطربة الأمريكية (تريسي تشابمان): اسمح لي... هل هذا كل ما يمكنك قوله... الكلمات لا تأتي مطواعة، بسهولة، مثل:
أحبك...

اسمح لي، أو سامحنِي. لا تَسامُح بدون تواجد طرفين. هكذا علّق حدسيا على مناسبة الأغنية وهو يردد اللازمة:

Forgive me !

توقفت السيارة خلف المركب التجاري والسكني لمحج الرياض. لم يستطيعا النزول لكون الأغنية الثالثة في الاستماع التي بدت هادئة

بعزف على الغيثارة تحولت إلى إيقاع متعدد الآلات. إيقاع رقص يشتركان في ذكراهما المرتبطة به.
ساد صمتهما بينما ازداد صخب الذكريات توهجا في دواخلهما.

بعد لحظات من انتهاء الأغنية، وضع كف يده اليسرى فوق صفحة يدها التي كانت متكئة على علبة التحكم والتحويل للسرعة. تبادلا خلال ثوان قبلات حارة.
فعلاً، احتاج لكل هذا الشحن لكي يوقظ مشاعره ولكي تشتعل هي نارا متفجرة في تقبيله. رغم عقليهما الساخرين من قدر اللقاء وقدر العلاقة بما مرّ منها وما سيأتي. ها هما قد اختارا رهان الشوق والتقارب به من جديد.

- تعلمين، لِيَ رغبة في أن نتناول شواية سمك سردين قرب نهر أبي رقراق.

أدارت المفتاح وشحنت المحرك بضغط خفيف. حولت مقود السرعة وأخرجت السيارة من محطة وقوفها، وكأن السيارة مشاركة في هذا التورط الجديد. وكأنهما مقتادان بها. تابعت يده يدها في حركات السياقة بين مقود وعلبة تحكم. رافقهما الحنين مثلما رافقهما صوت

غناء جديد. هذه المرة، كانت سيلين ديون: كل ليلة في أحلامي، أراك، أشعر بك، وبهذه الطريقة أعلم بأنك ستستمر...
ماوج صوتهما الباطني طرب الأغنية الجميل:

Near, far, wherever you are

I believe that the heart does go

on

يسترجع ذكراه مع المغنية. لا يعلم إن كانت حياة النفوس تتذكر هي الأخرى رابط الحنين والحلم والعشق. كانت ليلةَ فنٍّ سابعٍ وعشق رباطي بامتياز للسينما. كانت مفاجأته لها في دعوتها لمشاهدة فيلم تيطانيك. وكان كل واحد يبحث له داخل حلم الفن والإبداع عن معجزة تشركه في أسطورة بناء التاريخ وتحقيق أمنياته الكبرى.

- روز !
- أنا حياة النفوس يا أحمق. وهل أنت جاك؟
- أنا؟ لا. بل أنا لطفك اللطيف.

لقد مرت سنوات على هذه النوستالجيا. ها هو نهر أبي رقراق يعدهما بمثلها لو تكرّم بقدر جديد. لو عشق فؤاد النهر فؤاد هذين

العاشقين القديمين. كم غنّيا له بعيدا عن حي المحيط وعن المحيط. كم هربا من هدير الموج إلى سكون الليل المقمر وألوان تشكل الغروب على ضفاف هذا الجسد المائي. ويكفي هذا النهر فخرا صوت لطف الله حين يتشارك مع صوت المطرب عبدالهادي بالخياط في أغنية القمر الأحمر:

(خجولاً أطلَّ وراءَ الجبال
وجفنُ الدجى حولَهُ يسهرُ
ورقراقُ ذاك العظيم على
شاطئيه ارتمى اللحنُ والمزهرُ
وفي موجه يستحمُّ الخلودُ
وفي غوره ترسب الأعصُرُ).

- أراك صامتا يا لطف الله. أين سبحت؟

- أتذكر جلساتنا الماضية قرب هذا النهر العظيم.

- إن شاء الله نعيدها أجمل. إنما يجب علينا أن نعود إلى حي أكدال الآن .

هناك شيء مهم لابد لك أن تطّلع عليه.

- وهو كذلك.

فتح زجاج نافذة السيارة وشعر بفخر الهواء العليل الذي لفحه بنعومته. كما شعر بفخر أدائه لثمن وجبة الغداء. عاد له الشعور القديم، ذاك الذي يجعله مرتاحا قرب حبيبته القديمة.

لم تكن شقة كبيرة. غرفتان وصالون للجلوس ومرافق أخرى كالمطبخ والحمام. لم ير فتحة شرفة مطلة مع النوافذ التي أسدلت ستائرها. يعلم قيمة السكن وغلاءه بهذا الحي، لكنه يدرك مجهود العمل الذي يحتاجه المرء لكي يعيش فيه .

اعتذرت له حياة النفوس في طلب الخروج لغرض سريع. تذكرت توقيت الساعة الرابعة، وقد تجاوز موعده عشر دقائق. هاتفت السيد مفتش الشرطة عزيز السليماني لأجل ذلك. ها هي تعود أدراجها بعد أن كانت في اتجاه حي الرياض، بين شارع ابن سينا ومفترقه مع شارع ماء العينين، فكرت في اقتناء فواكه يابسة وحلويات مرافقة لمشروب العصير الذي نوت إعداده بمطبخ شقتها. لقد تزامن تأخرها عن الموعد مع التزام السيد المفتش باجتماع أخذ منه ساعات طويلة. فجأة تذكرت بأنه هو من عليه أن يخبرها بثبوت الموعد أو إلغائه.

قطبت لثانية لكونها لا تحب ثقوب الذاكرة، ولا توترها كل مرة في إخلال بضبط مطلوب في العمل أو الحياة.

ناولت لطف الله صحيفة جريدة يومية ليقرأ محتوى مقال فيها. كان عنوان المقال عاما. لم يسبق له أن رأى وصف بلد بالموز. (عملية اعتقال تسقط ادعاء تلقيب بلد ببلد الموز). هكذا تابع التحليل المتعلق باعتقال شخص أجنبي ينتمي لمافيا أوربية بمدينة طنجة. كان موضوع تنسيق بين الجهات المغربية ونظيراتها الأوربية. جاء من أجل رؤية أولاده المقيمين بالعاصمة الاقتصادية حيث استطاع جعل أسرته في مأمن من كل روح انتقامية وتصفوية. ظن أن قدومه بعيد عن مذكرة الاعتقال الصادرة دوليا. أجهزة مخابرات عدة كانت على الخط.

(بعد سقوط أحد أخطر قادة المافيا بالمغرب.. وزير الداخلية الإيطالي يصرح:

ويستمر التنظيف.

لم يخض بلاغ المديرية العامة للأمن الوطني في التفاصيل، أمس الخميس، عندما أعلن عن اعتقال أحد زعماء المافيا الإيطالية بالمغرب، تبين أن الأمر يتعلق بصيد ثمين، كما حدث في مارس الماضي، عندما أوقف الأمن المغربي مافيوزيا مطلوبا من طرف العدالة الإيطالية.

ورد في بيان المديرية العامة، أمس الخميس أن عناصر الفرقة الوطنية للشرطة القضائية، تمكنت بتنسيق مع المصلحة الولائية للشرطة القضائية بمدينة طنجة، بناء على معلومات دقيقة وفرتها

مصالح المديرية العامة، زوال اليوم الأربعاء 29 ماي الجاري، من توقيف مواطن إيطالي يبلغ من العمر 56 سنة، وذلك للاشتباه في تزعمه لأحد فروع المافيا الإجرامية الإيطالية المعروفة باسم la Camorra....).

كانت الكبسولة التي جعلتها حياة النفوس في جهاز تحضير القهوة قد فاحت رائحتها وجودتها وغمرت العينين باشتهاء مدمع. وضع الجريدة جانبا لكي يرتشف من فنجانه البني الغامق. استطاعت حياة النفوس خلال الدقائق المستغرقة في القراءة والتأمل أن تستحم بسرعة وتغير ملابسها وتجلس في حلة ربة البيت والمضيفة المرحبة، لكن نظراتها متابعة لارتسامات ضيفها حول ما قرأه وما يمكنه أن يطرحه كأسئلة حوله.

ملامح حياة النفوس تغيرت قليلا. هذا ما استنتجه لطف الله منذ بداية تواعدهما الجديد. اكتنزت، وخداها توردّا أكثر. لم تعد بنفس الرشاقة السابقة وخفة الحركة المرتبطة بها. هي السنون والتقدم في العمر. لكنه هو الآخر يعكس هذا التقدم في العمر، في ملاحظة تصلب يديه وتقاسم التجاعيد لمسافات وخطوط عليهما .لحيته كذلك التي عفا عنها وبقيت بدون حلاقة. ورغم مناسبتها لمظهره الجديد الدال على نضج جسد وهيأة ورجولة مبتغاة في الشخصية، فإنه يشعر معها بأنه تحوّل هو الآخر إلى ذلك الرجل بدل الشاب، وذلك المقبل على منتصف

العمر الذي بالكاد اقتحم أواسط الثلاثينيات منه. فهل ما تبقى له كافٍ لكي يجعله منتصَف عمره ويحقق فيه أحلامه؟ ربما هذا السؤال أرقه منذ أيام، خصوصا مع استحضار نجاح صديقته في توفير عش حياة ومصدر رزق في العمل وسيارة وتجهيزات وحساب بنكي وإعالة لأسرتها باستمرار.

تنتظر منه طرح سؤال، لكنه كان قد لجأ في تأمله لما قرأ، ولما هو في حضرته الآن، إلى صمت جميل جعله حكيما لا ينطق إلا بالقليل المفيد والمناسب.

- ماذا يعني بلد الموز؟

- الدول التي يسهل عمل المافيا فيها واللجوء إليها هربا من المتابعات، وتبييض أموالها فيها، تسمى ببلد الموز، نسبة لبعض بلدان أمريكا الوسطى أو الجنوبية التي تشتهر بإنتاج الموز. بما أن هذه الفاكهة مشتهاة ورطبة ولينة وهشة، فالوصف يناسب وظيفتها تشبيها لانتقال أفراد من المافيا لها هربا من المتابعات وتسهيلا لمصالحهم داخلها. وكما تعلم، يصعب وصف المغرب بهذه الكلمة لكونه معبَرا لجميع المعاملات والاستخبارات. ربما يكون تواجدها به فخا مؤقتا للإيقاع بها. لكن التقارير الدولية

القضائية والأمنية قد تحتج وتصفه بهذا الوصف، الأمر الذي يؤثر على سمعة البلاد وحظوظ استقطاب الاستثمارات والسياحة فيها.

- أول مرة في الحقيقة أقرأ وأسمع حول هذا الوصف وهذه الحقيقة. غريب أمر هذا البلد وعبارتنا المغربية (في بلد المغرب لا تستغرب). إنما الواقع أعقد مما نتصور فعلا.
- فعلا هو أعقد. على العموم، كل الدول تتواجد بها تنظيمات مافيوزية.

وكلها يمكن نعتها بهذا الوصف، بما فيها الأغنى والأكثر قوة أمنيا وعسكريا. هل تريد فنجانا آخر من القهوة؟

- لا شكرا.
- تناول بعض المملحات !
- كوب ماء من فضلك.
- آه، عفوا نسيت إحضاره. لا قهوة بدون ماء طبعا. لم تتناول كأس العصير، ولا هذه الحلويات. هل تخضع لحمية معينة؟

تبتسم وهي تهم بالنهوض للمطبخ. يتابع هيأتها التي لم يرها عليها من قبل. قد يشتهي معانقتها وتقبيلها من جديد، لكنه يؤجل الرغبة في ذلك إلى حين. ما يزال ينتظر الموضوع المهم الذي ستحدثه فيه. إن كان مجرد إطلاع على خبر في جريدة، فالأمر لا يستحق كل هذا الاشتغال للبال.

سبق فيح عطرها طلعتها الجديدة وابتسامتها المرافقة. جلست قبالته هذه المرة في الأريكة الصغيرة. كانت يداها مضمومتين وساعداها متكئين على ركبتيها اللتين جعلتهما سندا لجذعها في بداية الكلام:

- أنت أعلم بشخصية صديقتك وحبيبتك القديمة ربما. سأكلمك عن نفسي قبل أن أتكلم عن هذا المقال الذي هو أمامك الآن.

تعلم الظروف العائلية التي نعيش فيها. ربما هي متشابهة، وربما ظروفك أفضل من التي أنا فيها. لا أتحدث عن نفسي وشخصي. أتحدث عن الارتباطات والالتزامات الأسرية التي لا تنفك تضجرنا يوميا. وحبذا لو كانت مجرد التزامات. أنت أدرى بأخي فريد. أدرى بانحرافه وإدمانه. حيله الخسيسة في الحصول على المال، وفي الاحتيال والنصب على الآخر. كل مرة يزيد طامة جديدة في قبح سيرته. أتخيل لو أنني لم أحصل على وظيفة، ماذا ستكونه عائلتي بدونها. الأب المسكين تراجع دوره اليوم. أصبح واقعنا ذلك الشيطان الماكر الذي يسخر من ملائكية

الأبوة والأمومة. راتبه الشهري لا يكفيه أبدا. وكيف سيكفيه والمعيشة قد تضاعفت بعشرات المرات، بينما الراتب لا يكاد يزحف في خطوه سوى بعشرة في المائة طيلة هذه العقود التي اشتغل فيها وأعال أسرته منه.

كانت أحلامي كبيرة، وكنت منتظرة سفينة أحلامك لكي تلتحق بسفينتي فنبحر معا من جديد. أعلم ظروفك، وحظك المتعثر في الحصول على عمل قار.

لا تظن أنك كنت غائبا عن عيني يوما. كل أسبوع تقريبا كنت أحصل على تقرير حول لطف الله وماذا يعمل وما هي علاقاته الجديدة ومغامراته. أبحرت سفينتي داخل محيط العمل والحياة. أو لنقل إنها مصيدة الذات لكي تفقد حريتها وحقها في حلم أفضل. أصبحتُ وسط يم متموج ومتصاعد لا يهدأ إلا حينما أغمض عيني ليلا حينما أنام. وكأنه يجعل لي استراحة محاربة أنهكتها المعركة فيسجّل لها بين شوطين أو دورة وأخرى هذه الاستراحة التي سترمي بها في زحف جديد وتلاطم جديد. وكل دورة وكأنني فوق حلبة ملاكمة أجدني محتاجة إلى عُدّة ملاكِمة.

هذا العطر، وهذه البدلات والفساتين، هذه السيارة وتسريحة الشعر، وكل ما تشاهده موظفا عند حياة النفوس، هو عُدة مواجهة

متجددة كل يوم. وما أصعب أن تسخر من قدر تسميتك. وكأنه قدَر يجعلك غبيا أو غبية. حياة النفوس أصبحت تحيا من أجل النفوس الأخرى. تحوّل ربيع عشقها الذي عاشته مع لطف الله إلى خريف تتساقط فيه أوراق عمرها، لكي يهشم دخلا تعيل به وتساعد أفراد أسرتها. وكأنه ظلام يستعمل فيه الآخرون فتيلا مشتعلا للبحث عن عملة مهملة فوق بساط الحياة، وكأنني أوراق متيبسة تتقد نارا لخلق دفء وبحث جديد يضمن التفاف الجماعة حول مائدة من ثمار شجرتي الصامدة.

حرقة تشبيه جعلتني شاعرة بدون إرادتي. وكأن هذه التشبيهات محيط متجمد أُخمِد فيه بركانَ صوَرِي اللاهبة.

لقد أصبح ما هو بين حياة النفوس ولطف الله ساحلا من صخور كصخور هذا الشريط الساحلي الممتد في منحدر حي المحيط. أرى سفينتي ذاهبة في فلك وقدر قد لا تريده، وأراك منتظرا اكتمال بناء سفينتك التي بنيناها من ورق ومن تشكل سحاب. وكأن هذا الساحل كل مرة ينفث دخانا بدل بخار. كأن الدخان إشعار باحتراق اللوحة وتباعد الرؤية وفقدان الأمل في كل تحقق للالتقاء والتجاور في سباحة الحياة. لم تكن الملامَ على هذا التباعد، ولا أنا. ظلت روحي جالسة بجانبك في سماع لأدائك للأغنيات المغربية الأصيلة التي تطرب روحي بصوتك. كم

من مرة كان صوتك الخالد مرافقا لدواخلي في سماعي لتلك الألحان، وكأنك الملاك الحارس لوجداني الحاضر فيّ دائما وأبدا. جزء مني بقي بذورا داخل ذكراك. أتكون الموت أجزاء متقطعة، كل مرة تتساقط أوراقا من شجرة حياة. شجرة توت تفضح عُريَنا قبل أن تدعونا لستر ثقوب النقص وعدم الكمال؟

لا أخفيك أنني رفضت كل علاقة أو صداقة أو طلب زواج خلال السنتين الأولتين. لكنني بعد أن انتقلت من موظفة بنك إلى مسيّرة لأعمال السيد عمر بدوي، وكأنني راهنت على حسم جديد أحتاجه لكي أستمر في الحياة. ولهذا سأكلمك عن شخصية عمر بدوي التي أعرفها قبل أن أتمم باقي الحكاية التي بدأت وبدت جديدة وصادمة.

- ألست على علاقة بالسيد عمر بدوي؟ هذا ما سمعته متداولا بين الألسن؟

- أعلم أنه من حقك أن تسألني. وطبعا، لا يهمني ما يقوله الناس. سأصارحك بواقع المسألة: حينما بدأت العمل بالبنك، وكما تعلم أنه كان لقريب من العائلة دورٌ في حصولي عليه، رغم كفاءتي المهنية التي استطعت النجاح فيها، بدأ واقع حياة النفوس يتغير.

أدركت كيف أن العمل يسلب حرية الإنسان في الحياة. كيف أُعبّر عن ذلك؟

تناولت جرعة من عصير الليمون المخلوط بالماء. ربما ملوحة ورائحة السمك التي تبقى مستمرة ويشعر بها المرء في كل تنفس، أظمأتها واحتاجت معها لهذا الخليط المطهر والمطفئ للعطش. بدا أن تنفسها احتاج لعمق نفَسٍ وشهيق مسموع. تابع لطف الله هذا الطفو من غرق سؤاله في انتظار أن يصرخ الغارق بملء صوته. يعتقد مثل آخرين بأن سؤاله يتضمن حقيقة الوقوع، وأن من حقها أن تدافع كما أن تمارس حياتها باختيارها الذي فرضته الظروف. ساءل دواخله إن كانت تسمح له نفسه هو الآخر بهذا التمرد على ما كان بينهما. لطمته مرارة الواقع التي تذكره كل حين بأنه عاطل عن العمل، وبأنه ابن طبقة مسحوقة لم يسعفها الجانب المادي في الخروج من كدح وقهر المعيش اليومي. وحتى حياة النفوس، يلاحظ لحظتها بأنها ممزقة بين واقعين ووضعين: واحد في النعيم والآخر في جحيم. حلم الذات وقد سابق هذا الواقع الساخر لكي يقتني الشقة والسيارة واللباس الأنيق والفاخر، وغول الواقع الذي يجرها كل حين من استباقها للنور إلى عتمة وظلمة رقوده ونهشه لكيان الإنسان. وكأنها تقف حافية القدمين والطين المبتل يبتلع ساقيها في ثقل متمهل في التنفيذ.

لكن هدوء لطف الله وحِلمه سرعان ما خرج عن الطوق. هدوؤه المألوف لم يسعفه في التحكم في سؤاله الذي أرقه مع شكه وظنونه. هو الآخر ينهشه غول الماضي. لكنه نهش ليس بمثل وبمقارنة مع ما هي، حياة النفوس، فيه. لقد قسّمت حياتها بين خطوة في جنة وخطوة بقيت غارقة في وحل المحيط وحيّه، أما هو، لطف الله والذي في كل مرة يستنجد باللطيف لينقذه من الغرق الموشك لنفسه والمهدد لها باكتئاب ربما، فما يزال غارقا في الوحل ومهددا بالغرق. حبذا لو كانت موتا تريح. لكنه غرق سيترك أصحابه كمشاهدين داخل مشهد غرق سفينة نوح: الجسد في الوحل، والرأس شاهد ومستمر بعينين محملقتين وعقل مدرك للمآل بين اجترار اليأس أو الغرق وهذه السماء التي تعري كل حقيقة وتنشرها عقابا للواعي بها .

تذكر فكرة الانتحار التي كانت تراوده بعض الأحيان. من جديد هجمت على صفو روحه هذه المبتسمة التي أمامه. اختلطت الأسباب الداعية إلى التفكير في الانتحار هذه المرة. لم يعد ذلك الهاجس الأخلاقي المدمر والناتج عن وسواس الظن بالإصابة بمرض مثل داء فقدان المناعة. فهل يكون هو الشعور بالإحباط ووقوعه في اليأس من كل تحقيق لآمال داخل هذا المجتمع ومؤسساته وقيمه الواعدة والموهمة؟ لم يقبل معادلة الاستسلام والفشل تحديا واندفاعا نحو الرغبة في

البقاء والاستمرار في الحياة، وكأن رأسه بين غرق يجره إليه الماء وبين اندفاع إلى أعلى يضطره من أجل استنشاق الهواء ومن أجل التنفس الذي تصمت أمام مشهده السماء.

وتفجّر سؤاله المنفلت:

- أما تزالين محافظة على بكارتك؟

تحولت صورة الشاب اللطيف إلى وحش متسكع منبعث أمام عينيها. اغرورقتا بدمع منحبس عن الانهمار. شعرت بأنوثتها تحت رحمة مقصلة الإعدام. شعور لم تكن هي المولدة له في تلك اللحظة. كم من مرة كانت هي التي تسائل نفسها، وها هي الآن تفاجأ بالسؤال كأنه موجة عاتية تعصف بها إلى تيه اتجاه. مساءلتها لنفسها كانت مجرد رياضة عقلية ومنطقية وافتراضية، كل واحد قد يمارسها مع نفسه: ماذا لو كنت لصا؟ ماذا لو كنت ملاكا؟ إنما سؤال لطف الله شعرت به كإهانة لذاتها وأنوثتها. ألا يكفي المرأة أن تكون منتجة ومساهمة في إعالة وعمل واستثمار؟ ألا بد لهذا القيد أن يكون المحدد لقيمتها وكرامتها؟

- لو لم تكُن لطف الله الذي أحببتُه دائما لجعلتُ لمثل هذا الحوار نهاية قبل بدئه. لا ألومك بقدر ما ألوم ثقافتنا التي تورمت بمثل هذه الأسئلة والعقليات التي تنسج المتخلف من الأفكار.

سأجيبك عن سؤالك، ما دامت فرصة لكي تتكلم حياة النفوس بما هو حياة. واعلم أن البكارة الحقيقية هي الحب. فمنذ أحببتك فقد فُضت بكارتي، مثلما فُضّت بكارتك أنت إن كنت فعلا قد أحببتني بمثل صدق حبي لك. واعلم أن بكارتي العضوية قد فقدت جزءا منها معك. ذلك تقرير طبيبة زرتها حين بداية العمل بالمؤسسة البنكية.

تحولت ابتسامتها إلى جليد مصفر فوق بشرتها. تجمدت القسمات وكأن يبابا سيشقق جلدها تجاعيد سريعة الانتشار. لكن الكلام والاستمرار فيه كان هو المناخ الذي سيحمل ربما رطوبة تخرجها من هذا التهديد الذي أصبح داخليا في نفسيتها وشعورها الآن وفي لحظتها:

- البكارة هي تلك الطفلة الصبية التي كانت تراك مع مجموعة أصدقائك منذ صغرها، تمر أمام مجال سكنها ولعبها. كانت ترسل لك ابتسامات تبادلها بمثلها. هي تلك التي شاركتك الدراسة ومؤسساتها، تلك التي جالستك وغامرت معك داخل حي المحيط وخارجه. يوم كان خوفك من خوفها، وتمردك من تمردها. حينها كان كل ما نقوم به مقبولا عندك .

أستغرب الآن حينما تسألني إن كنت ما أزال محافظة على بكارتي. أظن أنه ليس من حقك معرفة شيء ما. ما دمتُ صاحبتها. فهل

ستختار الابتعاد عن هذا الجسد الآن؟ أم إنك ستقبل راضيا بواقع حاله كيفما كان؟

لقد كان حبنا المتبادل فاضّا لبكارتنا. أصبحت روحي مملوءة برحيق صوتك ومشاعرك وابتساماتك ورصيد وجودك. ذكّرتُك قبل قليل بصوتك المرافق لطرب فؤادي كل حين. أصبحتُ اثنين في واحد. هههه... لست غسيل شعر للإشهار! تعرفت على بعضهم في العمل، وحاولت التقرب من السيد عمر بدوي رغبة في الارتباط. لكنني لم أفكر في أن أجعل بكارتي هي الميزان. ولم أتخلص مما فضضته منها أنت. أيجب عليّ أن أحاكمك؟ ربما قبل أن أقوم بذلك وجب عليّ أن أحاكم نفسي. أنا التي شاء لي الحظ لكي أعمل وأعيل أسرة وأركب آمال الرقي كامرأة داخل مدينة الرباط. أنا التي ابتعدتُ عنك. وقد كنتَ المشجع لي في كل خطو، حتى في قرارات الابتعاد عنك. حتى في قرار الانتقال إلى هذه الشركة الجديدة. حظوظ الحياة قد تجعل خطوطها متباينة بيننا بعض الأحيان. هكذا عبّرتَ يومها، إذا كنت ما تزال في تذكر لذلك.

بقي لطف الله صامتا. وبقي سؤاله هامدا في دواخله، وكأنه لم يصدر عنه أو كأنه لم يسمع جوابا. احتاج لاستنشاق هواء، ففتح نافذة الصالون وبقي مراقبا للشارع تحت، من الطابق الثالث لهذه العمارة.

كان مستخدمو إدارات وعيادات مقابلة قد أخذوا ينصرفون من عملهم. كان مشهدا متباعدا ومبعدا بين شعوره ورؤيته لحظتها.

بقيت حياة النفوس جالسة في وضعية ضم لفخذيها، وكأنها متهمة في ليلة دخلتها. وما من دخلة تعيشها سوى هذا الشعور بالإهانة من طرف من حلّقت معه كحمامة في عز براءتها. مَن داست على احتمالات تلويث سمعتها كبِنتٍ في إقامة علاقة حب وصداقة مع ابن حيها. الجل كان على علم بعلاقتهما في حيّ المحيط. استعلامات النسوة ومخابرات الشباب، جلها كانت تخندقهما في ثنائي، وقد ينعمان بدعاء من طرف بعض النسوة: الله يسهل عليكما بزواج وأولاد. آمين يا رب العالمين.

ساد الصمت لدقائق، وسُمع معه شهيق خفيف دل على حالة بكاء متصاعدة لأجل الانفجار ربما. كان في وقفته وصمته كمحاكم لضحية جالسة لا يبدو منها سوى ظهرها وقفاها وشعرها الذي بالكاد جف من بلل الاستحمام. كلاهما في انتظار ما سيأتي كخطوة تخرج من أزمة هذا الانفجار. انفجار في اللغة وانفجار في الكلام. كلاهما يسبر أغوار دواخله علّه يجد بديلا لأزمة اللسان وعقده. رمق علبة مناديل ورقية فوق منضدة جانبية، قرّبها لحياة النفوس. وفيما هي تمسح دمعها المتقطع، بدأ لطف الله يدلك كتفيها ويمرر أصابعه على استدارة عنقها.

هل كانت لغة اللمس هي البديل؟ استرخت الأعصاب من تشنج مهدد للتوازن، ومالت حياة النفوس بخدها الأيسر متكئة على يد لطف الله. كلاهما شعر بدور الضحية لِما صدر. اعتذر لها وعبّر عن نيته البعيدة عن كل اتهام أو إسقاط كلامِ إهانةٍ لها، عن مدى معرفتها بثقافته وعقليته وعدم إيمانه بالأفكار القديمة التي تربط الشرف ببكارة أو ما شابهها:

- ... أردتُ فقط أن أتحدث عن علاقاتك والتي هي ماضٍ أو ربما حاضر خاص بك. ربما غيرتي، أو قولي هي اهتمامي بمعرفة شيء من حياتك الخاصة الآن. جاءتني فكرة استوحيتُها من حواراتنا السابقة وجرأتنا التي افتقدناها أو إننا لم نكن في مستوى تحقيق طموحاتها وتحدياتها في السابق.

تتذكرين حينما كنا نجازف في العلاقة ونحدث ألم الإيلاج وتهددينني بتحمل المسؤولية: (لك ذلك إذا كنت سترتبط بصاحبتها إلى الأبد). كنت أشعر بأن القدر يهددنا فعلا. من منا يضمن الاستمرار في العلاقة؟ من منا يضمن؟ كنا في مهب الريح وما زلنا. ثقافة المجتمع في وادٍ ونحن في وادٍ آخر.

ماذا أقول الآن؟ أعترف أن سؤالي بليد ومتخلف. وأعتذر عن ذلك. لكنني اعتبرته سؤالا عن قلبك ربما. هل فتحته لآخر بدلا مني؟ لن أكون سجّانك الذي يمنعك من ذلك.

كانت صفحة كفها الأيمن مغطية لوجهها. حرارة فوارة جعلت الدورة الدموية تنبض أكثر. وكان كلامه بحر سباحة جديدة سيهدئ ويخفض تلك الحرارة. صعب عليها مجاراته في الكلام والرد على كل جملة يتكلم بها.

كانت لعبتهما القديمة التي لم ولن ينسياها أبدا. يقاطع أحدهما الآخر في كل جملة، ويصدر جملة مخالفة أو يسرع في إبداء رأيه مكسرا نسق تحليل الآخر وتبريره وتعليله. كان جهد كل محاولة يهدهما ويهمدهما كشرارتين متطايرتين، كمحاربين تعبا كللا من مبارزتهما فاحتاجا لشوط راحة وفاصل بين جولاتها. همّت بالذهاب إلى الحمام لغسل وجهها. لم ترِد أن تظهر بمظهر الباكية.

قسمات وملامح أنثوية ترفض هذا المشهد. لا تدري في قرارة نفسها الآن إن كان سيستلذ بألمها أم براحتها. وجدت المسافة بين جلسة الصالون وباب الحمام طويلة ومريرة. مغص في الحنجرة وتعب العينين وانتفاخ أوداج... كل التعب الذي سبق أرقا وعملا وروتينا يوميا، كل الأحداث التي فاجأتها وارتبطت بمدير عملها وبسكان حيها وأسرتها وصديقها

القديم، جعلتها خارج خط الزمن لحظتها. تعيش المحاكمة الحقيقية التي يتكبدها كل متهم داخل قفص اتهامه ووراء قضبان زنزانته.

تسلحت بفوطة صغيرة حين عودتها لأريكتها. تنفست بعمق استعدادا للكلام:

- على العموم، الموضوع الذي أريد التحدث معك فيه يتعلق بالشركة والإدارة التي أعمل فيها. أريدك أن تسمعني جيدا ولنؤجل الحديث عن الثنائي الذي نشكله أو شكلناه. سأبدأ بالحديث عن السيد عمر بدوي كيف أعرفه وكيف أراه. لقد صعّبت عليّ مهمة مناقشة الموضوع معك.
- أعتذر عما صدر مني من كلام. يمكننا مناقشة ما تريدين. ألا ترين غرابة تواجدنا هنا وتوقيت ذلك؟ لست مرتاحا لما يقع. شخص شبه محتجز ومتابع أو في تحقيق، آخر ضحية جرح غائر... لا أفهم حقيقةً.

- لذلك أردتُك معي الآن، لكي تفهم كل شيء، ما دمت صديق عبدالله بودحان، وابن حيه كذلك. مادمت صديقي كذلك أو أخي الذي لم تلده أمي.

- فقط؟

- أتريد أكثر من هذا تعبيرا؟ ألستَ باحثا في فلتات لسانك عن بكارة؟ هه.

وما أدراني إن كنت "س سيد" الذي لطالما انتقدتَه.

- لستُ ما تظنينه أبدا. تابعي.

- بالمناسبة، لقد أصبحتَ أكثر سمنة وبدانة.

- ألن تتكلمي في الموضوع؟ تعلمين أنني محافظ على رياضتي. أما البدانة فتلك مشكلة المرأة أو ربما عبدالله بودحان. ههه. طيب. أراك تشاكسين.
هل تريدينني أن أنقض عليك؟

- لستَ من أتصوّرُه طبعا. أنت الإنسان المثقف. المناضل. الشغوف بالفن المغربي أداء والغربي سماعا.

- أما زلت شغوفة بالموسيقى والأغاني العربية قبل الغربية؟ بدا لي من اختياراتك خلال ركوب السيارة أنك غيرتِ ذوق الاستماع. ثم إنني لستُ مناضلا. أنا أكافح من أجل نيل حقي في الشغل. تقادم

الديبلوم وتقادمت معه الاختصاصات. ما علينا من كل هذا. أرى أن ديكور الشقة يحتاج إلى لمسات.

- قم بذلك إذا شئتَ.
- ما هو الموضوع يا حياة النفوس؟

- طيب. أول شيء، أُطمئنك بأنني بعيدة عن كل الشبهات. وبشهادة المحققين الأمنيين في الموضوع. عمر بدوي رجل أعمال ناجح فعلا. مستثمر رفيع المستوى. علاقاته مع نخبة الطبقة الديبلوماسية داخل المغرب وخارجه. إنما صفقاته هذه يبدو من خلال التحقيق الجاري أنها تخفي ملفات وقضايا شائكة. ربما تستغرق سنوات في تصفيتها والتدقيق فيها. بالنسبة لعلاقته بي، فهي علاقة عمل فقط لا غير. لن أخفيك أمرا بأنني أنا التي تعلقتُ بشخصيته، وأردتُ ان أُصبح شريكة حياته. رأيتُ فيه أخا كبيرا يطمئنني على مستقبلي ونفسي. رأيتُ فيه أبا حوّل حياتي من مجرد موظفة إلى قادرة على تحقيق متطلبات الحياة. لم أفهم في البداية سر كرمه وسخائه وتسهيله لعمليات اقتنائي للشقة والسيارة. ظننت أنه يهيئني لطلب ما أكبر. وكل فتاة أو امرأة سينتابها نفس الشعور. ولن تتمنى أفضل منه. إنسان راقٍ في ذوقه واختياراته وطريقة عيشه. سفرياته

ومطاعمه وحفلاته... كل شيء مدهش فيه. كنت ألاحظ تجنبه بلباقة كل الإيحاءات التي تبدو في كلامي. اكتشفت مؤخرا بأنه سبق له الزواج من إيطالية وأنجب معها فتاة تعيش مع أمها هناك بإيطاليا، وبصقلية بالتحديد. استغربت للمكان. جزيرة صغيرة. لكنني اكتشفت أنها في حضن أسرتها من أمها هناك. ربما كان زواجه غلطة أو تسرعا. لا أدري. لكن ما علمته من المحقق ومن التدقيق في مصادر مكالماته ومراسلاته الإلكترونية التي بدأت أدقق في هويتها وفحواها هو أن السيد عمر بدوي له علاقات بمؤسسات مافيا خارجية. لا أفهم. كيف لشخص أنيق وليس في ملفه أي شبهة جريمة تكون له علاقات مرهونة بعمل المافيا. لم تكتمل الصورة بعد. أنظر إلى هذه الجرائد أمامك، وهذه الصور المنسوخة لصفحات جرائد إلكترونية غربية. لقد تم اعتقال أحد أفراد وعناصر المافيا هنا بمدينة طنجة. بعدها عملية اعتقال لشخص آخر بمدينة الدارالبيضاء. وقد كانت العملية الأخيرة اضطرارية بما أن السيد عمر بدوي جُرح أو طعن. لا ندري بالضبط نتيجة التحقيق. لقد أرادوا تطويق تحركات المافيا قبل أن تفطن لتجسس المخابرات والاستعلامات عليها. لاحظت استغرابك من كلمة الموز. ما رأيك في هذه الثقافة الجديدة؟

المهم الآن، أريدك أن تساعدني في الخطوات الآتية، وكن على يقين بأن ما سنقوم به لا يخالف القانون ولا تعليمات أجهزة التحقيق القضائي. هم الذين أوصوني بالمضي في الأمر بهذا الشكل.

- وما دوري أنا؟

ارتشف من فنجان قهوته الذي برُد واستوى ممددا رجليه بجانب الطاولة الزجاجية.

- أعلم أنك لم تنل الوظيفة التي تريد، وأنك ترفض أي عمل ينقِص من قيمة الديبلوم الذي في حوزتك. خذلك الوطن ورجاله. لكن ما سأطرحه عليك اعتبِره تعاقدا مؤقتا. عمليات تنسيق وتتبع للموضوع. لكن هناك شيء آخر أخطر ولا أريد لأي شخص أن يعلم به.

- ما هو؟ يبدو كلامك أكثر ضبابية وأخطر من رطوبة أمواج المحيط التي أنهكت تنفس ساكنة حي المحيط.

- ما رأيك في أموال للاستثمار؟

- كيف؟ لا أفهم. أصبحت خطيرة فعلا.

- اسمعني جيدا. هذه الشقة تبدو لك صغيرة فعلا. لكن ما لا تعلمه أنها مقسمة إلى مرافق. وهذه ميزات البنايات المعاصرة. هندسة جديدة على المدينة فعلا. في الطابقين الأخيرين من هذه العمارة وزِّعت أجنحة تمتلك شرفات وجلسات لفصلي الربيع والصيف. وكل شقة لها جناح تابع لها فوق. يكفي أن تختار بين المصعدين لكي تلج الجناح المناسب. وفي الطابق تحت أرضي، إلى جانب مرأب السيارات هناك البوكس. والبوكس كما تعلم غرفة تجمع الأثاث والتجهيز وكل ما هو خارج الحاجة للاستعمال اليومي داخل الشقة. ما الذي تريد البدء بزيارته واكتشافه؟
- أصبحت خطيرة يا حياة النفوس. ربما سأخبر والدتك بالأمر.
- والدتي المسكينة يكفيها همّ الابن المارد والمدمن.
- طيب. سيعجبني أن أرى فوق.
- فوق أو تحت؟ ماذا تريد؟
- أهي لعبة أم إيحاء؟ افعلي بي ما شئت ما دمت ضيفك. فقط أعيدي لي حياة النفوس التي أعرف. كانت رفقتُها رحلةً للجزُر

الاستوائية فوق موج المحيط الهادر قبالة الحي والشاطئ. كم حلمنا وغنينا معا دون خوف أو خطر.

زارا الجناح العلوي. كان صالونا كبيرا وبجانبه حمام ومقصف من رخام يستعمل للطبخ ولخدمة المشروبات والوجبات الخفيفة في عرضها وتناولها. راقه تناسق الألوان الشفافة التي تؤثث أرائكه الفستقية وطاولته البيضاء وبساطَه الكبير ذا اللون البني الفاتح. هكذا قدر وصفه للّون مثلما قدر تطابقه مع لون الستائر التي تقف طويلة كأنها لشاشة عرض سينمائية. حينما أزاحها بدا له امتداد شجر شارع النصر بعيدا وبينهما حديقة التجارب النباتية. لكن انتشار العمارات كان خدشا للوحة التي يمكنها أن تضم في أفقها زرقة المحيط الأطلسي البعيدة كحزام بين بر الأنام وسماء الأحلام التي أجهضت بينهما في لحظة من الزمن الفائت والحاضر الآن.

يبحث في عمق تنفسه عن روحه المرحة فتسبقها شهقات صامتة لتوترات معاناة وإحباطات شخصية أيأسته من آمال حياة هانئة داخل بلده. أزاح جانبا آخر من الستائر الثلاثة الموزعة على واجهة المنظر الذي يجعل له عتبة شرفة تساعد على الإطلالة المصحوبة بهواء طلق ومباشر بين السماء والأرض. ابتسم لعملياته وكأنها تقليب لصفحات كتاب يحتوي لوحات متكاملة في ضمها جنبا إلى جنب.

- اسمع يا لطف الله. يمكن لكل هذا أن يصبح ملكك وأكثر. يمكننا أن نتزوج.كما يمكنك أن تختار فقط العمل المقترح عليك وتحصل على راتب وعمولة مناسبة. بالنسبة لي سأجعل كل ما هو موجود عندي الآن بين يديك. لن ألومك إذا لم تختر فكرة الزواج. ربما أسرعتُ في طرحها. لكنك أنت سبب توتري وإسراعي في طرحها، أيها الضحية لتخلف مجتمعه. اسمع لهذه الموسيقى الجميلة للثنائي دونا سامر مع المغني سيل. صوتان رائعان.

جلسا فوق ا لأريكة الطويلة. كست أشعة الشمس الذاهبة إلى غروب فضاء الصالون بلون وردي مناسب لزرقة السماء الصافية التي أخذت تستعيد سحرها المتموّج والذاهب إلى وضع لازورديٍّ بعد يوم مشمس وحار. تذكر عرضها السابق:

- هل سنزور (تحت) الآن؟

- كما تريد وتشاء. أي تحت تريد؟ همست في أذنه التي اخترقها صوت نسوي أخذه في قشعريرة بدن مستسلم للإيحاء. طال صمت الكلام وغلبت لغة الأنام الصامتة...

- ربما لم يعد هناك مجال ل(تحت) الآخر.

- ربما. لكنني أريد أن أعرف. كل شيء عنك وبك ومعك.

- طيب. استعد الآن لسماع ما هو تحت.

- هل عندكَ استعداد للاستثمار في قدر كبير من المال؟

قطب حاجبيه مستغربا للعرض والسؤال، وعلّق مستفهما على سؤالها بسؤال آخر ومستغربا:

- لم أفهم !؟

- أتوفّر على مبلغ مالي مهم، وإذا كنت تريد الاستثمار فيه فأنا على استعداد لكي أجعله بين يديك، أو على الأقل لكي يكون أمانة عندك. ما رأيك؟

- لا أدري. يجب عليّ أن أفهم أكثر. عرض مفاجئ، وسؤالي حول قيمته.

- طيب. أولا، سأشرح لك مصدر المال، وسأطمئنك عن وضعية تواجده بين يدي. ثانيا، هناك مهمة يجب أن تساعدني فيها. وكن على يقين ،أقولها لك للمرة الثانية، ليس هناك أي مشكل قانوني في ما ستقوم به .

بالعكس، هي مسطرة يجب أن تكون قانونية وقضائية تتعلق بملف السيد عمر بدوي. يحتاج إلى فريق محاماة كفء ومحترف

لكي يواكب العمل في ملفات مرتبطة بما هو متابع فيه. مهمتك فقط أن تساعدني في اختيار هذا الفريق. أما بالنسبة للمال، فهو مجموع أرباح مستخلصة من عملية الصرف وتحويل العملة بين الدرهم وباقي العملات العالمية. ولعلمك، فقد كانت لي فيها نسبة مائوية لأجل السهر على تدبيرها. أرباح
متسارعة ستدهشك أكثر في هذا المجال. بين التحويل من العملة الأجنبية إلى المحلية، وعكسه كذلك، تجد هامشا ماليا مهما يتحقق زيادة بين عشية وضحاها. وما دامت الأوراق سليمة وغير مزيفة فهي مثل الذهب. أنا بدوري اكتشفت هذا العالم حينما بدأت العمل في المؤسسة البنكية. لكنني حينما انتقلت إلى العمل هنا، اندهشت للأرقام الكبيرة التي يجنيها السيد عمر بدوي.

إنك ترى أولئك الأشخاص الذين يقومون بهذه المهام قُبالة المؤسسات المالية والبنكية، وبالخصوص في وسط العاصمة الرباط والدار البيضاء كذلك. قد تظن بأنه صرف بسيط. قد يبدو المتعامل به في الشارع بسيطا فعلا، لكن حينما يتعلق الأمر بعروض كبيرة القدر يتم تحويل الطلبات والأشخاص معها إلى فئة ثانية من الصرافين. لا أتحدث عن المكاتب الرسمية والمرخص لها في الصرف والتحويل والتسهيلات. تتم التحويلات خارج المكاتب الرسمية والتي تحدد أسعارا وقيمة مرتفعة

نسبيا. لذلك يلجأ الطامع والطامعة في خفض تكلفة التمويل إلى هؤلاء الأشخاص. لا يمكنك تصور حجم المنافسة الشرسة التي تتم في هذا المجال. هي سوق سوداء فعلا بحكم أخطارها وخفاء أسرارها. أولا، لا ندري مصدر هذه العملات التي هي كبيرة العدد في أوراقها وقطع نقودها، لكننا نعلم أنها تجد مسارا يحوّلها إلى شرعية مسموح بها في المعاملات. وكل دولة تعيش أزمة اقتصادية تستعين بهذه السوق لأجل تحقيق مسالك لتدبير أرقامها المفبركة.

رغم أن العملية معقدة إنما جارٍ بها العمل عندنا. خمسون سنتيما كفارق في الربح والتحويل تعطيك ألف درهم في المليون سنتيم. عشرة ملايين تساوي مليون سنتيم كربح. وهكذا.

لكن المطلوب الآن هو استثمار هذا القدر في مجال آخر بعيدا عن مجال العملات والتحويل والصرف إذا أمكن. هذه نقودي الآن. والسيد عمر بدوي يعلم نسبة الأرباح المخصصة لي في السهر على ضبطها في التحويل. لكنني لا أريد البقاء والمغامرة في هذا المجال، خصوصا مع مشكلة السيد عمر بدوي الراهنة.

- كم هو هذا القدر يا حياة النفوس؟ أصبحتِ خطرا على النفوس.

- تمزح أم تتهمني بما تقول؟ القدر هو مائة وخمسون مليون سنتيم الآن. يجب عليك أن تهتم أولا بالحفاظ عليها عندك. وثانيا، هامش الخمسين مليون سنتيما منها سيكون مخصصا للمهمة التي سأعتمد عليك في مساعدتي على القيام بها هذه الأيام. أريد مكتب محاماة كفء للمرافعة والدفاع والتداول في الملفات التي تورط فيها السيد عمر بدوي. جاءتني رسالة خاصة منه يريد فيها مكتب محاماة آخر بدل الذي يتعامل معه، أو لنقل سيعتمد التنسيق معه. وكأنه مكتب سيراقب عمل الآخر. لا أصدق. تساقطت الأوراق كشجرة خريف أو كقطع دومينو، الواحدة تلو الأخرى. سنكتشف المزيد والمدهش أكثر ربما.

جلس لطف الله بمقهى "ساني ديانا". لم تكن المقهى ناديَه المعتاد في الجلوس، ولا مكان تواجد أصدقائه الذين قد يتفاعل معهم في اليومي. إنما هي وجوه مألوفة في غالبيتها باستثناء العابرين لحي المحيط والذين قد تربطهم مصالح إدارية أو قضائية أو تجارية هنا أو هناك.

أمامه ساحة روسيا بجانب شارع المقاومة. حركية كبيرة للسيارات والراجلين. ينشط حراس السيارات في مساعدة السائقين على الوقوف أو المغادرة لجوانب الأرصفة المزدحمة. بداخل المقهى ثلاثة شباب، من لهجتهم ولكنتهم في الكلام استنتج أنهم أفارقة. لا يدري إن كانوا طلبة أم من الآتين من جنوب الصحراء باحثين عن سراب جنة هنا أو هناك. يتأمل ملامحهم من زاوية جلوسه ويحاول أن يسجل كملاحظات ما يزكي استنتاجه. لكن نادل المقهى سرعان ما يخرجه من سفره الذهني هذا بوضع قهوة وحليب مفروقين في كأسين بلونهما الأبيض والأسود. كلاهما يفوران بخارا متصاعدا. اهتم بفتح ما اشتراه لوجبة فطوره .
حرك قطعة سكر في كلا الكوبين .

من وراء النافذة الزجاجية التي تعلو أرضية الرصيف بدرجين كبيرين سرح بنظره في اتجاه زنقة بوخارست، رغم كون الحديقة

الصغيرة للساحة تحجب عنه بعض معالمها. تساءل عن مهمته مع نفسه وطريقة طرحه للعرض وللموضوع مع مكتب المحاماة الذي يشتغل فيه صديق قديم له في الدراسة:
رشيد الامراني.

رشيد الامراني، هذا الآتي من سهول الغرب وحقولها الفلاحية، كانت دراسته بمؤسسة حرة حيث حصل فيها على شهادة البكالوريا. اشتغل كمساعد في متجر للبقالة، لكنه وازى عمله بمتابعة الدراسة الجامعية. حين حصوله على الإجازة في الحقوق، والتي تفوق فيها بميزة حسن، كانت آفاق المحاماة ميسرة لكي يجتاز امتحانها ويتم قَبوله بها. جل معارفه آنذاك وإلى يومنا هذا من المحامين وموظفي المحكمة الابتدائية ودائرة الأمن والتجار. ينال احترام وتقدير ساكنة حي المحيط، فهو نموذج العصامي الذي تدرج من اللاشيء إلى التألق في مهنة ذرت عليه أرباحا ونعما كثيرة. لكنه المتواضع والمبتسم والذكي .

هكذا يراه لطف الله. في بعض الأحيان، يعاود الرهان ويتساءل: ليتني سلكتُ تخصص الحقوق ودراسة القانون. ربما كنت محظوظا مثله. لكنه سرعان ما يعود لواقع الحال ووضعه الخائب الذي لم يسعفه فيه الحظ بعد. ها هو يرى نفسه الآن وقد أصبح وسيطا بين من كانوا من جيله وفئته العمرية. يؤجّل حكم القيمة على الخطوة التي قبِلها ومضى

في تنفيذها مع حياة النفوس. يراها بطعم ملُوحة موجة لطمته فجأة أثناء سباحته في بحر الحياة ومحيط الحي الذي يعيش فيه.

كيف سيلج المكتب ويكلم المحامي في الموضوع؟ مهمة لم يرتح لها بعد. ما تزال جوانب غامضة لا يفهمها. الملف الأزرق الذي بين يديه يتضمن بعض وثائق مُعرّفة بالشركة وبالفروع والمشاريع التي يمتلكها ويقوم بها السيد عمر بدوي.
نسختا بطاقة تعريف وطنية وجواز سفر. توصية من مستشار قانوني للشركة من مدينة باليرمو الإيطالية مترجمة للفرنسية. إشارة لعدم اعتمادها كوثيقة رسمية في أية مداولات ستتم.

فجأة، غيّر فكرة الزيارة للمكتب وارتأى إجراء مكالمة هاتفية مع السيد رشيد الامراني. وجده في مهمة بمحكمة الاستئناف بحي الرياض وحدّد معه اللقاء بنفس المقهى بعد ساعتين تقريبا وقبل أذان الظهر.

تنفّس الصعداء. وكأنه صعد سلالم الطابقين الموصلين لمكتب المحاماة. أو كأن أنفاسه كانت مقطوعة حدّ الاختناق. ارتباك جعله يختار المضي مشيا جهة الساحل الأطلسي دون المرور بالقرب من حي سكناه أو من المركز الثقافي المهدي بنبركة. سلك زنقة موسكو خلف ملعب السلام ونزل زنقة جينيف التي جعلته يتأمّل في زاوية مقابلة لها

مكتبا للصرف وتحويل الأموال بجانب محل جديد لغسل السيارات، قبل أن تلتقطه زرقة الأمواج الهادرة.

عاد به الذهن لفكرة العملة وتحويلاتها وصرفها وأرقام معاملاتها وأرباحها. زاحمته فكرة استثمار هذا المال بحي المحيط فيها. لا يملك فكرة عن تأسيس مكتب صرف ولا عن طريقة عمل أصحاب الحال في السوق السوداء. ربما لأول مرة شعر فيها بأن ما درسه ونال ديبلوما معه، وما ناضل لأجل الحصول عليه كحق في الشغل، كل هذا لم يعد ولن يعود له نفع بعد الآن. شعر بنفسه غريبا داخل حي طفولته وشبابه وعيشه. لأول مرة انفصلت الذات عن البنايات، عن روحٍ ما تسكنه، روح مجتمعية يستغرب لانقشاع السماء وتعرّيها من كل إشارة نفسية قديمة تربطه بها. ليتَه بقيَ في حاله قبل أن يلتقي حياة النفوس الجديدة، والتي لم يعد هو المتحكّم في العلاقة معها. أصبحت مديرة أعمال هو منفّذها. أصبح عاملا عندها. أقلقه هذا الشعور الأخير. زوبع ذهنه إلى درجة تسارُع التفكير وتناقُض مواقفه واستنتاجاته. أيواصل ما بدأه معها أم يتخلى عن كل هذا؟ جاءته فكرة الاستحواذ على المال والتنكر للجميع، بمن فيهم حياة النفوس. أليس هذا المال من مصدر حرام وغير قانوني؟ سيكون استحواذه عليه داخل نفس المنطق واللعبة، استنجد حرامي بحرامي، وذئب بآخر. ابتسم وكشّر. فكّر في

تفريغٍ ما. ماذا سيكون؟ مقابلة في كرة القدم أم جلسة مقصف وجعة باردة؟

فجأة بادرته صورة صديقه القديم عبدالله. هناك ثقوب سوداء تجرف الحقيقة وتعتم على الأمر بكليتِه. ربما هذا البدين المختفي سيكون مفتاحا لفهم ما يجري. تذكّر إقامته التي لطالما ذهبا إليها اصطيافا منذ كانا تلميذين يحضران لاجتياز شهادة الباكلوريا. هو شاطئ مدينة تمارة إذن: (الكازينو). وجدها. وكأنها تفاحة نيوتون التي سقطت في ذهنه فأزاحت الستار عن حقيقة موجودة.

كان لقاؤه مع المحامي السيد رشيد الامراني بعد أذان صلاة الظهر بربع ساعة تقريبا. لا أحد يلوم الآخر على التأخر. هي ثقافة متفهمة لخلل الالتزام بالوقت المحدد لكل لقاء غالبا. يعلم أن كل إدارة أو التزام قد يعرقلهما التوقيت غالبا. وهذه ثقافة مجتمعية متجذرة حتى في البيوت. كان لطف الله هو المنتظر خلال مدة التأخر هذه. بينما كان عذر السيد رشيد منطقيا ومقبولا. لم يرد لطف الله الرجوع لتحليله ولا للتفكير فيه. المهم الآن هو المضيّ قدما في هذه الخطوة الجديدة. وكأنها خطوة لا رجعة فيها. كأنها إبحار لا مرفأ وراءه، والآتي من أمواجه يعِدُ بالمجهول. عرض عليه الملف، وشرح له ما يعلمه فيه. حينما تمعن

السيد الامراني في رسالة المحامي الإيطالي تنفس صعداء لا تدل على ارتياح. بالعكس، فهم منها لطف الله أن المسألة شائكة. لكن المحامي كان له اعتبار آخر، بيّنه من خلال ردّه:

- سنحدد موعدنا غدا الأربعاء. لِمَ لا نتناول وجبة الغداء في مطعم السمك خلف المحكمة الابتدائية، وبعدها نرتشف قهوة بالمكتب. ما رأيك؟

- وهو كذلك.

- يبدو أنني سأحتاج للاطلاع على قوانين وفصول أخرى قبل أن أردّ عليك نهائيا. الأمر لا يقتصر على القانون المغربي فقط. هناك قوانين دولية، وهناك شراكات وتنسيقات أعمال متكاملة بين قوانين الدول في مثل هذه القضايا. وكما ترى، التوجيه يجعل صلاحية المضي في الملف قضائيا بموافقة المحامي الإيطالي الذي يسهر على مصالح السيد بدوي. أما بالنسبة لإدارة المحاماة الأخرى الموجودة بحي الرياض فسننسق معها في كل خطوة أو استشارة أو وثيقة. اتفقنا؟

- وهو كذلك.

من جديد كانت عبارة لطف الله (وهو كذلك)، هي كل ما يملك للاستمرار في ما بدأه. خواء داخلي يشعره بأنه مجرد وسيط لا دور آخر له في القضايا المطروحة. لا علاقة له بها. لو سأله المحامي الآن: ما علاقتك بكل هذا؟ ماذا سيكون جوابه؟

لا يدري. المهم أن السيد الامراني قبِل تجديد اللقاء. غدا سيكون هناك شأن آخر. فكّر في لازمة امرئ القيس التي اتخذها العالم قاعدة: اليوم خمر وغدا أمر.

تراجع عنها ليفكر في زيارة شاطئ "تمارة كازينو"، علّه يجد هناك السيد عبدالله بودحان.

...

لم تكن نصيحة حياة النفوس محبذة لبحث لطف الله عن عبدالله بودحان، لكن ما يجمع الطرفين . الصديقين . من تاريخ مشترك في صداقتهما وذكرياتها جعله يصر على الذهاب، ولو أن المساء قد حلّت ساعته. الساعة تشير إلى السابعة. اختار ركوب سيارة أجرة كبيرة مع ركاب آخرين. غيّرها بأخرى حين وصل إلى تمارة المركز. يتذكر جيدا مداخل الفيلات التي تشكل الحي الشاطئي المحاذي لكورنيش تمارة. لا أحد يذكر الشارع بتسميته. شارع مصطفى السايح، قرب (مطعم المدّ)

أو la marée، كما يناديه الكل به. سؤاله لنادل المطعم ساعده على التوجه في تلك الساعة إلى مطعم وحانة (السمك الذهبيGolden fish).

استجمع تذكراته. عاود ذهنيا رسم الدرب الذي توجد به الفيلا. فعلا هي خلف هذا المطعم الأخير. آخر مرة حضر معه إليها كانت قبل سنوات عدّة. فيلا اقتناها السيد علي بودحان في أواسط عقد السبعينيات بملايين معدودة عند أصحاب المال والتجارة. ثمنها آنذاك ثلاثون مليون سنتيما. أما اليوم فآخر ما سمعه من كلام صديقه عبدالله أنه قد وصل سعرها إلى ستمائة مليون سنتيم، والسيد علي بودحان لا يريد البيع. وقد يتنازع الإخوة على إرث ممتلكات أبيهم وهو حي. لكن السبب الذي جعل عبدالله بودحان يستحوذ على مفاتيح الفيلا وعلى الإقامة فيها جل أوقاته في الشهور الأخيرة سيكون مفتتح اللقاء والحوار الذي سيجمعهما .

وأخيرا. ها هما يلتقيان. ها هو السيد عبدالله بودحان يظهر له الأثر والوجود. لكنه لم يكن ذلك السيد الخجول ومحدود السلوك الذي عهده لطف الله في السابق. كان برفقة فتاة أنيقة. غاية في الشياكة كما استنتج بحدسه وهمسه الداخلي صديقه القديم: لطف الله. عينا عبدالله تابعتا نظرات صديقه وهو يسلم، حركات الابتسامة والكلام والترحاب المتبادل بينه وبينها. هل أراد أن يبدأ اللقاء بغيرة تثير لطف

الله، تُبيّن له بأن صديقه أصبح متحررا جنسيا ،لعوبا، زير نساء، عكس ما كان عليه في السابق؟ أمور استدرك احتمال وقوعها هذا القادم والباحث عنه. اكتفى بلباقة الكلام وديبلوماسيته التي تقف عند حدود الممكن الذي لن يوقظ توجسا ولن يحقق مراد عبدالله في معالجة دفائن عُقد نفسية تتربص أثر سلوكه ومشاعره كل حين.

كانت (ماريا) أجمل ما رآه لطف الله. قوام وقد وشعر أسود منسدل وأسنان متراصة، دعج يناسب سعة مقلتيها، وقسمات جمال تثير كل ملتق معها في النظر. فستان راقٍ وصدر مفتوح وكعب عالٍ. سيجارة في يد وهاتف من ماركة ثمينة في الأخرى.

كانت طاولتهما محاطة بخدمات مستمرة وبإنارة شموع متراقصة. حاول لطف الله أن يجعل مجيئه مجرد صدفة ستجمعهما. استأذن في ترك صديقه مستريحا في جلسته وخلوته المشتهاة، لكن عبدالله في حالة ترنحه كان ملحا ومقسِما على بقاء صديق طفولته ودراسته وعلى جلوسه معه على طاولة العشاء.

وكان للحديث شجون.

مكالمة هاتفية طارئة جعلت لطف الله يستأذن من أجل الرد عليها. كان صوت حياة النفوس يبدو خائفا، خافتا ومتقطعا كأنها مريضة وما

هي بالمريضة. أخبرها بالجديد والمفاجأة، وباللقاء مع عبد الله بودحان. لكنها ألحّت في همس وكأن آذانا لا تريد لها التقاطا لما ستقول:

- اسمع! حاول الانسحاب من لقائه والمجيء عندي فورا. هناك أمور خطيرة ظهرت فجأة. خيوطها مفزعة جدًّا.

كان عبدالله قد اتخذ من فيلا تمارة الشاطئ إقامة شبه رسمية له. لم يعد بإمكان العائلة الذهاب إليها خلال فصل الصيف ولا في مناسبات نهاية أسبوع من الأسابيع مثلا. لم تعد إقامته بحي حسان تغريه بالبقاء فيها، ولا الالتزام فيها بمهام العمل لصالح العائلة. تدهورت العلاقة بينه وبين جل أفرادها. مع أخيه سعيد، ومع عمه، ثم مع أبيه.

لم يستسغ أن يكون مجرد مدير أعمال وجل الممتلكات المشتركة بين أبيه وعمه جعلاها باسم الزوجين سعيد وبنت عمه. أرادا الاطمئنان على بقاء الثروة داخل كنف العائلة، وعبدالله الذي بدت عليه ثقافة استهلاك ونمط عيش خارج عن مألوف العائلة، تم استبعاده من أفق التوريث. لم تعهد العائلة ابنا لها مدمنا على الخمر والسجائر والسهرات الماجنة والصديقات المتعددات. لم تعهد الأرقام التي سمعتها وعاينتها في نفقاته ومعيشه اليومي والشهري. اعتبرت سلوكه تمردا وعدم احترام. وبادرت إلى سحب البساط من تحت قدميه قبل أن يجرفه هو بما فوقه

بما يتوفر عليه من صلاحيات التصرف في أملاك العائلة. تورط مرتين في تسليم شيكين بدون رصيد، وكان المبلغان كبيرين فعلا. لكن شرف العائلة وسمعتها لم يسمحا بزجه في السجن بسبب المال.

ازدادت المشاكل والتوترات مع أبيه أكثر. دخلت على خط سوء التفاهم شبكةُ سماسرة في العقار. كانت أعينهم على أماكن هي أمانة وتحت وصاية السيد علي بودحان. ممتلكات أصحابها أجانب، والسيد علي له الوصاية على حوالي ستة ممتلكات تقريبا لحدود هذه الأيام. أربعة مبانٍ مغلقة، ومستودعان كبيران بسعة تصل إلى الألف متر مربع لكل منهما. لم يكن الأمر بالجديد. فكم من مرة حاول هؤلاء السماسرة الضغط على السي علي. وكم من ملكية تلاعب بها السماسرة وزوّروا أوراقها كلما تعذر عليهم اقتناؤها من أصحابها أو لم يجدوا لهم أثرا في الحضور أو الحياة.

وكانت نقطة ضعف السيد عبدالله بودحان هي السهرات الباذخة التي استماله لها هؤلاء. ينفقون ما يجعله يألف مجلسهم ويتنافس معهم فيها. لم يكن مفلسا بتاتا. استطاع شراء ممتلكات بإسبانيا. بمناطق الجنوب من شبه الجزيرة الإيبيرية التي فتحت سلطاتها وإداراتها وسياساتها في الاستثمار للأجانب وبالخصوص للمغاربة، وكذا لاقتنائهم إقامات سكنية. كما جعلت لهم فرص الحصول على أوراق الإقامة

والفيزا الذهبية إذا تجاوز ثمن شرائهم لعقار ما المائة وستين مليون سنتيما. كان لعبدالله واحد منها ومشروع مطعم صغير بشراكة مع تاجر إسباني في مدينة ألميرية. لم تعرف العائلة لحياة عبدالله الشخصية رسوا.

ثلاث مرات خطوبة من عائلات مشهورة بالرباط، وكلها لم تستمر طويلا. علاقات، كل مرة تظهر لهم فيها شخصية امرأة جديدة لا يكترث ولا يجهد نفسه عناء تقديمها لأسرته. سفريات كثيرة بين المغرب وإسبانيا. كانت ماريا هي التي استطاعت أن تنال مدة أطول معه في العلاقة. ويبدو أنها أصبحت لها صلاحيات وامتيازات متداخلة معه أو بفضله. من يستطيع التمييز بين هذا وذاك؟ لا أحد.

مبهم في قراراته وتصرفاته. الأمر الذي جعل العائلة الكبرى تخاف من تبذيره لكل ما هو تحت تصرفه بمجرد تهور في توقيع أو تفويت أو خطإ فادح يتربصه فيه سماسرة العقار.

صراع هو وقد اشتد واحتدم بين عقليتين وتوجهين. كان عبدالله المحارب الوحيد ضد الآخرين. لم يعد المال هو الهاجس الوحيد في كل هذا. ما يبوح به لماريا، التي فرشت وجدانها له كطائر جريح ليستدفئ بحضنها وصوتها وإقرارها لمشاعره وتفسيراته، جعل الصراع احتقانا وروح انتقامٍ وثأرٍ من إقصاء واستصغار. كيف للابن الأكبر أن يكون هو

الكل في الكل؟ وكيف للابن الأصغر أن يكون مجرد مستخدم في العملية؟ وكأنها لعبة هو بيدق فيها. حجم دراسته الذي بلغه مستوىً وديبلومًا وكفاءة، لم ينفعه في معالجة كل هذا. لم يكن صديقه لطف الله حاضرا في مناسبات بوحه وذرفه للدموع التي تمسحها ماريا له كطفل صغير. وجد أخيرا حضنا يلم حرمانه وجراحه. كان لطف الله هو الذي سيقدر قيمة دراسته وتفوقه فيها وإمكانية استمراره فيها والحصول على ديبلومات ومراكز راقية بها في فرنسا أو في غيرها من الدول الغربية. لكنه شعر بغلطة العمر حينما غلّب عاطفة العائلة وحنين رعاية ثرواتها على حساب مشروعه الشخصي الذي كان بإمكانه أن يبني حياته به وفيه. قَرعُه للكؤوس في حضن ماريا عبارة عن دقات طبول مدوية في نفسيته .

ما لم يقله لها كان بإمكانه أن يبوح به للطف الله. لكن الظروف باعدت بينهما، وتباعدت فرصة حضور الصديق الذي ينقذ من غرق الجراح النفسية التي يخدش على وترها المجتمع ومؤسساته وثقافاته. كان هذا المستوى من الخطاب ممكنا لو كان الصديق حاضرا، لكن الحاضرين سماسرة ومستثمرين وراغبين في إكرامياته وهداياه. حتى من الصداقات الأنثوية التي أقامها، فهي تلعب دور الراعي الذي يمسك

السكين بيده في رعي قطيعه. كل مرة قد ينوي نحرا وذبيحة. جل صداقاته الأنثوية كانت تحتاج إلى مقابل مادي بلباقة قيم ومشاعر منتقاة في الخطاب والتواصل والطلب، حين تتحول بصوتها وإغرائها إلى مستوى من الطلبات مشروطة بمستوى أحلامها وادعائها في ما هو ثقافة عيشها. ولعل قوس الاستهلاك في دائرة الغرام والجنس والشراب والسفر والمرح والرقص يكون مفتوحا على أصفار غير محدودة جهة اليمين من الرقم المبتغى في التسجيل في دفتر شيك ما.

كان الاستثناء ربما مع هذه الصديقة الجديدة التي لم تكن مبدية لطمع ولا مستغلة لظروف في طلبات شخصية. كان سلوك السيد عبدالله بودحان هو الخارج عن المألوف، حيث أِلف كسب الود واستمالة العواطف وتحقيق الرغبة بذلك الغدق والكرم وتلك النفقات وجلسات الترف والاستهلاك الباذخ. كل هذا قد يعيه عبدالله، لكنه يكون ملازما له ومضطرا في عيشه لكي يلفظ نارا بنار. نار الثأر من العائلة بنار من ستشعله شرارة متقدة في مواجهة النار الأولى. لا ينفع الدمع، ولا تلك التي تذرف في حالات السكر والثمالة. كل مرة يطفو جرح الأبوة أو الأمومة أو الأخوة أو العمومة نصلا يؤلمه تذكرا وشعورا.

لو أن لطف الله لم ينصرف هذه الليلة، لكان بإمكانه ترك ماريا إلى الأبد، والبوح بكل الحقيقة. لعل صديقه ينقذه مما هو فيه. نار الحقد

على العائلة لم تترك له أرضا خصبة يزرع فيها ورود حب ومشاعر أزهار فائحة بالحياة المرغوبة إنسانيا. لكن الصديق طار وحلّق في الظلام. مثلما أتى في هذا الظلام، أطل تحت ضوء شموع باهتة وانسحب كأنه طيف لم يكن أبدا ولم يحضر أبدا. أحس بالغرق الذي هو فيه، وما وجد منقذا يساعده على التنفس وعلى الخروج من دائرة دوامته التي تجلبه إلى أعماقها السحيقة. حبٌّ هو ممزوج بالخوف وبالتصنع وبعدم الرضا بالذات. لم يختر قلبه كل هذا. قادته ثقافة العيش الجديدة له. حبٌّ مرهون بما ينفقه ويغدق به على محبوبته. ولن يكون بهذه الدرجة من البلادة حتى يصدق تعبيرها الذي تقيسه في لحظات دون أخرى. هكذا فقد عملة الثقة في أي شخص كان إلا في نفسه المعذبة والضعيفة. لكنها نقاط ضعفه أو هو فراغه الوجداني الذي سحقه الصراع مع العائلة ومع قدر النفسية وعزلتها عن المألوف.

ماريا، هي الأخرى، لا يفهم سرّ اختفائها من حياته ووجوده، لمدة أيام معدودة من كل شهر. تربطها بالعادة الشهرية. لكنها عادة قد تخالف عادة التغيب .

اهتمامها بأوراق وإدارات ومراسلات، لا يعلم ما يتم فيها. وهو عالمها الخاص. مثلما له عوالمه الخاصة. لا تسأله عن كلها، تنتظر حكيه الذي يطول في لحظات معينة. فأن يكون اهتمامها بمراسلات خاصة بمجلة

نسائية في علم الجماليات، وفي الموضة، وفي تقارير نفسية عن شخصيات بتسميات أنثوية، كله دال على أنها تعيش عالمين اثنين، واحد مع عبدالله، والآخر، الله أعلم به والآخرون. لكن ما هو أكيد، دون عبدالله.

الساعاتي

كان للمكان سحره الخاص الذي يستحضر الذاكرة والتاريخ. هو حي حسان الذي يخلد لمعلمة صومعة حسان. فمنذ 1196م حيث أعطي القرار ببنائها، ومنذ زلزال لشبونة الذي انعكس خطه على مشروع بنائها فهدم نصفها هنا بالعاصمة الرباط، منذ كل هذا وذاك والمنطقة المطلة على النهر والبحر واليابسة والمدينة وأحياء أخرى مجاورة ومخلّدة لتاريخ العاصمة مثل آثار (شالة)، تعرف اهتماما متزايدا. ازداد هذا الاهتمام في مرحلة التواجد الفرنسي الاستعماري. أضيفت المرافق الراقية ديبلوماسيا وسياحيا. بنيت العمارات والفيلات، وكان حي حسان هو الحي الراقي في مرحلة من مراحل تاريخ المدينة. طبعا، ما يزال يحتفظ برونقه إلى يومنا هذا، رغم الأحياء الجديدة التي نافسته وسحبت بساط الاستقطاب إليها، مثل حي أكدال وحي الرياض.

وكان هذا المكان مجال التقاء مصالح وأشخاص، منهم السيد عمر بدوي والسيد عبدالله بودحان. قد تشاء الصدف أن تكون شبكة الوسطاء في العقار والعملة والرخص هي الجامعة بينهما. لكنه اجتماع أصبح صداقة ومشاريع مشتركة رغم تفاوت السن بين الطرفين. ذلك

أن المال مساوٍ في الاعتبار، وكذا الطموح والأحلام التي تسمّى مشاريع في نهاية المطاف.

لا يمكن لأي كان أن يفهم سرّ تحول عبدالله بودحان في شخصيته دون أن يتعرّف على شخصية ماريا. ما ريا، بِنت حي حسان، من أسرة راقية ومنفتحة .

أبوها كان مدير أعمال في شركة أجنبية، وأمها صاحبة صيدلية قديمة في تواجدها بمدار حي حسان. ثقافة عيش غربية ارتبطت بالسفر أكثر في كل عطلة ومناسبة. علاقات عمل مع أجانب شكّلوا قطب الرحى في مشاريع الشركة التي يديرها أبوها. استفادة من تعليم وتجانس تربية مع الجالية الغربية في ثانوية أندري شوني وبعدها في ثانوية ديكارت. لكن المسار التعليمي توقف بزواج باذخ من وسط غني. الأمر الذي أوقفه وجعل حياة ماريا تتحول إلى نمط عيش استهلاكي متمتع بالثقافة ورغد العيش، متعرّف على السيد عبدالله بودحان في ما بعد، الذي أغراه الجديد المنفتح في جمالية على كل شيء أبهره فيها وفي تربيتها ولغتها وثقافتها. وكأنه لم يعش تجربة الثقافة الغربية حينما ذهب للدراسة بباريس.

يشعر وكأن حجبا حالت بينه وبين شمس أنوارها، وبكون هذه الأنوار قد سحقت ظلمات وغياهب أعماقه لكي ترميَه في عري النهار

الذي يحرر الذات من المكبوت. ويشعر بهذا المكبوت الذي يتملّكه تربية وأخلاقا وخجلا منذ صغره.

طبقات من الحواجز حالت دون تحقيق ذاته وسعادتها. وبما أنه أصبح مثقف وضعيته ككل شخص استطاع كشف حساب نفسيته، فقد كان يعبّر عن ذلك في لحظات الاعتراف اللاإرادي، لكنه مصرّح به في حينه:

- كان بيني وبين السعادة حجاب شفاف مانع. كان بإمكاني في لحظات أن أضع كفي على كفّ التي بجانبي أو بقربي، أن أمسّد شعرها وأضمها إلى قبلة طويلة، قد تكفيني في تحرير الانحباس في تلك الأشواق التي سجنتني في دائرة الخجل. لكنني كنت المكبّل والمعقد في كل تلك اللحظات. وكنت المتفجر والمنتقم من ذاتي حين ذهاب فرصة الانعتاق مع الآخر. أنتقم منها بالتدخين وبكأس جعة أو نبيذ أو ويسكي أو ما شابه. قد يكون حبي لك هو الفرصة الوحيدة التي حررتني من هذا الكبت وهذا الحرمان وذاك الخجل اللعين.

لكن مثل هذا البوح قد لا يتذكره السيد عبدالله. يعلم أن شجاعة التصريح به في لحظات صحو ووعي كاملين صعبة التحقيق. فهل فعلا قال كل هذا في لحظة ما لماريا؟ يتناسى تلك اللحظات وكأنها لحظات ضعف النفس والذات، يخجل من أن يعود لها. لكنه خجل يكرر

استنبات تواجده واستمراره في طبقات نفسيته. يشعره كل ذلك بالحاجة المتجددة لمثل تلك اللحظات. وقد يكون الدور على ماريا، فتكون هي المترنحة وهي الصارخة والطالبة لتفجير ذاتها. آخر مرة، كانت أخطر ما وقع. كانت رغبتها في الانتحار في عز النشوة والثمالة المشتهاة. لا يعلم إن كانت قد تناولت حبة ما منشطة. لكن ما يعلمُه والذي صفعه حتى استفاق وما هو بمستفيق، هو إسراعها لشرفة الشقة التي جمعتهما تلك الليلة بحي حسان، وجعلِها لرجلها اليسرى عارية مبدية ومعبّرة عن الرغبة في جعل حدٍّ لحياة لا تحبها وتكرهها. في جزء من الثانية أسعفته حركة جرّها من عقصة شعرها المبتلة بعد استحمام سابق. كانت شهقتهما معا من أعلى الطابق الرابع .

لم يستبن حارس الحي والسيارات الليلي مما حدث سوى شبح جسدين تعانقا صراخا وبكاء وضما سحبهما إلى داخل الشقة من جديد.

هل كانت أم عبدالله المغيبة في قرارات الرجال على حق حين تعليقها على مغامراته ونسائه اللاتي تعرّف عليهن؟

- التقيا: المتعوس مع خايب الرجاء !

لكنها الأم، لا يمكنها أن تفرط في فلذة كبدها وتتركها للضياع. ولو كان نصف ضياع. كم ترجّته أن يتزوج بهذه التي انجرف معها غيابا عن عينيها وحضنها وأمان أنفاسها. وعدته بإهداء كل حلّيها لها إن هي استطاعت أن تسعد ابنها، آخر العنقود في شجرة إنجابها.

ما لم تكن أم عبدالله على علم به كان حكرا على الرجال في تداوله. ما دامت النساء مغيبات في مجموعة قرارات وأعمال وأشغال خارج المنزل، فقد غاب عنها واقع المعاملات والعلاقات التي ورّطت ابنها في أخطر مما كانت تفكر فيه، وحقيقة علاقته بهذه التي تقربت منه أكثر.

ميروسلاف لازار. هذا السائح الذي عشق مدينة الرباط وأقام بأوطيل حسان. يوميُّه اكتشافٌ لمعالم المدينة وتعرف على أشخاص جدد. تواصله مع السيد عمر بدوي في إطار معارف قديمة كان للسيد عمر مصالح معها بإيطاليا، وفي إطار مشروع إصلاح سيتم بداخل مبنى إحدى قنصليات أوربا الشرقية.

ربما هو اسم واحد بقي على اتصال مع السيد بدوي: (إيفانوف لاسكو). ذاك الذي كان له آخر تواصل معه قبل أن يقرر الدخول إلى بلده المغرب بما حملته سيارته التي بقيت بدون مرجع تسليم عنده. كانت توصيته بالتعامل مع ميروسلاف لازار. قامة متوسطة الطول ونحافة بادية حتى على خديه المحفّرين.

سريع الحركة والخطو، عيناه الزرقاوين تناسبان نظراته النبيهة والحذرة. فم مطبق حتى من ابتسامة قد تجعل شفتيه مفتوحتين لهواء مخترق. كل ذلك يجعل من السيد ميروسلاف ذلك المبهم في الفهم وفي التعبير. قد يستعين المرء بقسمات وحركات في تكملة الكلام الذي يتلفظ به للآخرين، لكن هذا البلغاري الذي ينعته به كلقبٍ رواد الحانة في الفندق، لا يساعد على الفهم في التواصل. ورغم ذلك، تجده مصرا على السلام والاستماع واستعمال لغة إيطالية قد يحتاج محاوره إلى دليل سياحي لكي يترجم له عباراتها ودلالاتها. وتجد من المتعاملين معه

من المغاربة من يجهد نفسه في كل لغة وكلمة وعبارة لكي ينجح مع السيد لازار في انتزاع ابتسامة أو موافقة.

كان السيد ميروسلاف هو من أحضر الهدية للسيد بدوي. لكن استنتاج السيد مفتش الشرطة لم يكتمل في البحث والتحري والتقصي: .كيف وصلت الهدية إلى دكان السيد علي بودحان؟

وفي حضرة الفودكا العزيزة على البلغاري كانت حوارات السيد بدوي مع السيد عبدالله، ومع الوسطاء والضيوف في سهراتهم ووجباتهم المشتركة. في كل ذلك كانت استنتاجات البلغاري وتجميعه لما يرغب فيه من معلومات حول المغرب وحول أشخاصه طبعا.

لماذا لم يشر السيد بدوي في بداية التحقيق إلى شخصية البلغاري؟ سؤال آخر استنفر ذهن مفتش الشرطة لكي يبحث عن خيوطه وأسراره. عملية اختيار للتوقيت في البوح قد تسارع الزمن وقد تبطئه لكي تكون مناسبة كقياس لما يريده المرء في كلامه وأغراضه منه.

كل هذا يعلمه السيد عزيز السليماني مفتش الشرطة. ويعلم كذلك أن هناك أمورا أخرى ستطفو فوق سطح الأحداث والحقائق. لكنه هو الآخر يسارع لأجل تقديم تقاريره المناسبة والتي سيرفعها لجهات عليا مختصة في الملفات الدولية وفي خدمة مباحث الأنتربول كذلك.

استنفر تقريرُ الفيديو الذي توصلت به مصالح الأمن من الوكالة البنكية المقابلة لدكان السي علي بودحان في الجهة الأخرى من الشارع، شارع المقاومة حيث وقعت حادثة المبرد، كلَّ المهتمين بملف السيد عمر بدوي والطعنة التي تلقاها في بطنه.

أربع وعشرون ساعة تقريبا قبل وقوع الحادث، وقفت سيارة السيد عبدالله بودحان أمام الدكان. نزل منها السيد عبدالله وشخص آخر أجنبي. سيتبين من خلال المراجعة أنه السيد ميروسلاف. وسيطرح السؤال حول العلاقة بين الإثنين. لكنه سيؤجل إلى حين استكمال المشاهدة. فُتِحَ الباب الخلفي للسيارة. أنزلت ساعة حائطية كبيرة بتعاون الطرفين. تم فتح الدكان ونقلت الساعة بداخله. بعدها ظهر السيد عبدالله الذي كان آخر من خرج من الدكان ومن أغلقه بمفتاح.

كان لابد من استدعاء الأطراف المعنية للاستنطاق ولمعرفة المزيد حول تفاصيل ما وقع. تم تأجيل كل استنتاج وكل احتمال اتهام. لكن الجل قد اشتم رائحة تورط الابن ضد أبيه فيما وقع. وهو تخمين خطير يصعب على العقل أن يتقبّله كخبر. وقد كان صعبا تقبّله من طرف هذا الجل كذلك. كان حيرة ولخبطة بعثرت القضية الكبرى التي تتبعت مصالح الأمن والاستخبارات خيوطها منذ مدة، تلك المرتبطة بنشاط حركات مافيا داخل التراب المغربي.

فكّر السيد عزيز السليماني في عنوان بارز على الصفحة الرئيسية الأولى لجريدة يومية مقروءة بكثرة في المغرب:

(من أجل الثروة والمال، ابن يحاول قتل أبيه بمساعدة عناصر مافيا أجنبية). سيكون مادة دسمة للصحافيين والإعلاميين والمحللين ومتتبعي أخبار الجرائم والفضائح.

حيّرتهُ القضية فعلا، مثلما حيّرته لعنتُها التي ربّما قد سبّبت عدوى لحياته فلحقته المشاكل بسببها. رفض كل هذا الشعور، ورفض الاستسلام لمثاليات لم يعهدها في حياته المهنية والشخصية. تجمّدت فعلا دواخله، خصوصا حينما تبادرت لذهنه إمكانية تدبير الابن عملية اغتيالٍ لوالده. تذكّر مشكلة ابنه خالد هو الآخر، والذي جلب للأسرة مشاكل متفاوتة خلال هذه الأشهر الأخيرة. آخرها سياقته المتهورة لسيارة الأسرة الخاصة واصطدامه بعمود كهربائي على خط الطريق الشاطئي بالقرب من حيّ المنزه. يحمد الله أن جماعة أصدقائه وإدارتَه طوّقت المشكل وجعلته ملفا مغلقا مع مصالح البلدية والوكالة المكلفة بالماء والكهرباء. لولا تزامن الحادث مع حادث آخر مشابه وأسوأ منه وقع في اتجاه حي الرياض وبالقرب من إقامات السفارات والذي ورّط ابنة مسؤول كبير وسيارة الدولة في استعمال خاص وحادث مروع

كذلك، لما كان له من مخرج في قضية ابنه بهذه السلاسة والسهولة. كان طيّ هذا الملف بطيّ ذاك، وتجاوزه بتجاوز الآخر.

لكن ما استنتجه حدسه هنا في ملف السيد عبدالله بودحان، كان صدمة قيمية وأخلاقية كما عبّر عن ذلك لصديقه في العمل وفي المكتب. انهيار بنيان المجتمع. هكذا صرّح بجملتِه. تمنى لو كان صحافيا وفجّر كل مكنون واجهه في حياته المهنية. لكنه أحسّ بدمع منحبس في دواخله. قد يكون طفلا يبكي، وقد يكون أبا يئن. قد يكون جدارا يتهاوى على أفراد أسرة اطمأنت له لكي تستند عليه في رحلتها الوجودية.

خطورة الجرائم التي أصبح يشاهدها في وسطه المجتمعي، وبشاعة وقوعها واستسهالها، ترجمه هذا الاستنتاج. أن يجرؤ ابن على محاولة قتل أبيه ! لا مال هو محروم منه، ولا جاه. فقط احتقان ورغبة في انتقام. درجات حقد وأنانية... كلها استنتاجات مُرّة ومريرة. كلها تشكيل جريمة لم يعد الشخص الواحد مسؤولا عنها وعن وقوعها، بل أصبح الكل مسؤولا ومساءلا. تمزق الشخصية المغربية. التنكيل بالجثث بعد القتل، قطع الرؤوس والأطراف، زنا المحارم وجرائم المحارم إذا ما صحّ الوصف... شجرة محترقة ومدعوة لاعتراش كرسي عرس في نفس الآن. جثة فوق هودج... عناوين رقنها في صفحة رقمية جديدة وخاصة بمكتوباته في الحاسوب. لن يحوّلها إلى مقالات. ربّما سينقل عباراتها إلى أصدقائه الذين يعملون في مجال الصحافة. ربما سيذروها مع رياح

الكلام، وإذا ما التقطها أحدهم في نادي التقائهم ولعبهم للكرة الحديدية، فله أن يستعملها كبذرة ستنبت وتبرعم وتنمو كزهرة جهنمية هي وقود بركان جحيم سقوط هذا المجتمع.

كان لابد له أن يختلي بنفسه ويستريح من ضيق ما يراوده ويقع فيه. صراع كبير مع الأرق، ومع انسداد الطرق والحيل في تربية أولاده. يتخيّل سوء تفاهم مع ابنه البكر، لو أنه تطور إلى حمل للسلاح المهني، وإلى طلقة نار ورصاصة طائشة، هكذا في لحظة غضب. لن يغفر له أحد وقوع ذلك قاتلا أو مقتولا. ويرجع كل ذلك إلى سابع المستحيلات، رغم أنه يرى المستحيل هنا وقد وقع فعلا، أو ربما هو الذي وقع.

حينما يختلي لذاته كل حين، يعاوده التفكير في المهنة التي لم يكن ليختارها لو خيّروه فيها قبل الانخراط في مهامها، وبعد تشكل وعيه بمواجعها. تناقض في المنطق وفي ترتيب الزمن تترجمه الذات في لحظتها. وإلا، لماذا هذا التوتر وهذا الأرق؟ لماذا هذا الخوف الذي أصبح يكبُر ويكبُر كغول يسحق الأحشاء، ويتضخم كظل متحوّل إلى زاحف على راحة الذهن والنفس والبواطن؟

لو كان ما وقع فعلا هو الحقيقة النهائية والقاطعة، لو كان بقدرِته أن يصوّب رصاصة مباشرة إلى الابن الذي سيدبر لقتل أبيه؟ لو أن كل

هذا؟... لم يجد الكلام المناسب. سارع إلى ناديِه لكي ينسيه ضجيجُ الأصدقاء وعادات اليومي فيه الزوابعَ المنذرة لفكره وتفكيره.

وهو في هذا النادي الجديد لقطاع الأمن، يتابع إقصائيات دوري في الكرة الحديدية ينظَّمُ شهريا في ساحته الداخلية، يقرع مقصفه بكأسه في يده اليمنى، ويتأمل حوار فريق تعذر عليه البدء في المسابقة والإقصائيات. لفتت انتباهه عبارة تقاطعت مع ملفه هذا، حدسا، أو طرقا لذهن كان غافلا وساهيا عن موضوعه الأساسي:

- لا يمكننا بدء الجولة دون اكتمال أعضاء الفريق. السي عبدالنور هو البارع في التصويب عن بعد وإزاحة كرات الخصم وسحب كل امتياز لها.

بتذكر صديقه عبدالنور في النادي، وكيف يكون هو المحوّل لنتائج المباريات والمنافسات. كل مرة، وغالبا ما يفرح الفريق الخصم بتقدمه وحصوله على نقاط أفضل، تأتي ضربة كرة حديدية يتخصص فيها عبدالنور فتبعثر كل المواقع المربوحة في استقرار الكرات فوقها وكل الحسابات.

لكن، ما علاقة عبدالنور بملفه؟ عبدالنور سمين، ثخين، سكّير ووديع، وشبح تفكيره مبهم وخطير. يعاود سؤاله على نفسه لكي يطفو التفكير الواضح والجلي، وكأن آخَر يخاطبه جهرا بالكلام المناسب في القضية:

- هيه ! لا يمكن لموضوع المبرد أن يفسر دون استحضار البلغاري. من قال؟ ربما هو الذي دبّر وقدّر ونفّذ.

كان كأسه الأول الذي يسعفه بالذي يليه. وهو صاحب لازمة الكأس قبل الأخيرة. L'avant dernier s'il vous plait . Merci. وضع ورقة عشرين درهما فوق المقصف لكي يأخذها خادم الحانة، التقت نظراتهما الدالة على تفهم كل منهما للآخر. أمر طارئ يستدعي الانصراف، لكن دون حاجة للكلام عنه أو فيه.

في باب النادي هاتف ملازمه في العمل:

- لابد لنا أن نجد البلغاري الآن ونأخذه للتحقيق معه. بادِر إلى إعداد الأوراق القانونية والإذن بذلك. نلتقي بحي حسان. ربما يكون هناك الآن في الفندق.

هي أعمال صيانة، كان السيد ميروسلاف مبعوثا خاصا من طرف الشركة لكي يقوم بها في مبنى إحدى السفارات المشرقية. استعانت فيها الشركة بخدمات محلية لشركة السيد عمر بدوي المختصة في مثل هذه الورشات. فهل كانت صدفة أن يلتقيا في مثل هذا الملف؟ أو أنهما اتفقا على ذلك؟ مستحيل ! هكذا استنتج السيد عزيز السليماني.

- أينك الآن؟
- داخل محطة القطار أكدال؟
- قلت لي رصيف شارع الحاج أحمد الشرقاوي.
- هه.. هي متاهة أريدك أن تبحث عني داخلها.

يسائل نفسه إن كان الأمر مزاحا أم جدا. وهل هو وقت المزاح هذا. الساعة تقترب من الحادية عشرة والنصف، وها هو آتٍ بتعبيره مغربي (من طاكسي إلى طاكسي)، من سيارة أجرة إلى أخرى. هل تقترب حياة النفوس من الجنون في تصرفها؟

ولج فضاء المحطة التي لم تتح له فرصة زيارتها أو السفر انطلاقا منها. نعم، لقد مرّ في مجيئه وذهابه عبرها بين الرباط والدارالبيضاء أو المحمدية، لكنه لم ينزل بها كمحطة. ما شكروه ووصفوه له عن جمالية هندستها وحيويتها لم يكتمل إلا هذه الليلة، وإن كانت ليلة توجس واختراق لظلمات العاصمة والتنقيب بنور شمعاتها لكي يرى بعض علامات حقيقة. إنما المحطة أدهشته فعلا. كيف له وهو ابن مدينة الرباط ألا يكون قد امتلك صورتها والتعرف على مرافقها والتجوال

والتنعم بفضائها الجميل. لكنه يتأمل تساؤلاته ويخلطها مع همّ إيجاد هذه المجنونة التي انبعثت في أمسيته متجسسة ومتعسفة على حريته الخاصة. هل هي محبوبته فعلا التي أحبّ وسيستمر في حبّها؟ يأتيه شبح عمر بدوي وهو يطرح مثل هذا السؤال. يستحضر صورته وهو جريح ملقى على الأرض، ثم وهو مغمى عليه ومحمول في سيارة إسعاف الوقاية المدنية.

لقد كان سيّدَ حبّه، وها هو الآن ذلك الفارس الذي ذهبت به متاهات الغاب وعاد لحبيبته أو هي التي عادت إليه. لكنه وجد الأمور قد تغيّرت. اخترقت روح أخرى الحكاية فامتلكت جوانب من سمائها وقلّصت من حلم امتلاك الحب والتفرد به. ألم يكن الحب رغبة في الالتقاء والشعور بامتلاك الرغبة مع الآخر دون الآخرين؟ لا يقبل أن يكون دمية تؤدي دورا بالمقاس وبالمطلوب لمجرد الإغراء بالمال.

يرن الهاتف من جديد:

- هل وجدتني؟

- أيتها المجنونة، بطارية الهاتف ستنطفئ.

- أنا أراك وأنت لا تراني الآن.

- طيب، ابحثي عني بينما سأقوم بالتعرف على مرافق المحطة. إنما لا تنس ي، قد تخطفني إحداهن في هذا الليل الموحش.

فعلا موحش. فخارج المطعم يتغوّل الليل وأصحابه فلا تدري أي أمان سينقلك إلى آخر. وخارج هذه المحطة شعُر لطف الله وهو ينزل من سيارة الأجرة ويدخلها بأن يدا شبحية تحاول أن تثقل خطوه وتشدّه من كتفيه تهديدا. شعور لم يتجدد منذ كان صبيا ومنذ عاش مغامرات المراهقة. لكنه سيفر من كل هذا بمعانقة جمال الأضواء المنعكسة أنوارها على الزجاج وعلى الألومينيوم الموزع في المقابض والحواجز داخل هذه المحطة. شاشات متعددة ولوحات معروضة بطريقة تعرف بعوالم العالم وسحر السفر والذوق الجمالي المرافق الذي يسائل كل فرد: هل أنت مستعد لهذا العالم الجديد والجميل؟ وهو يعلم بأن الاستعداد قدرة استهلاكية غير متحققة للجميع. إنما سحر الجذب والانجذاب، يجعلنا فاتحي أفواهنا، مقبلين على فوهة لا ندري إن كانت نعيما أو جحيما. وما الجحيم سوى العدم والفراغ والخصاص والحرمان والفقر. يتنهدُّ بين شهيق وزفير ساخن أشعلت حرارته تلك الجرعات التي احتساها بمطعم تمارة. الشاطئ، وهذا الجهد في الذهاب والإياب وهذه المتاهة الجديدة الخطيرة والجميلة التي أقحمته فيها حياة النفوس.

يتحسر لرؤية لوحات لفنانين كبار يترجمون العواصم العالمية والمناظر الخلابة التي توجد فوق أمنا الأرض. يتذكر بأنه لم يغادر بلده إلى الخارج ولم تتح له فرصة التعرف على دول أو بلدان جديدة. وتعود به الساحرة إلى الافتتان بالبحث عنها. أهو تعلق وتشوق وتمنٍّ؟ لا يحبّ الارتماء الأعمى هكذا، دون تروٍّ.

لم تعد له ثقة في الثقة نفسها وفي تسليم قدر مشاعره لقدر حبٍّ غير مضمون داخل مجتمع لا يفي بوعوده مع أفراده، ومؤسسة لا تضمن له التعويض عن كفاءاته في تأهيله لاستحقاق لمهام وواجبات. كيف يأتيه هذا التحليل الواعي داخل الثمالة التي تمناها هذه الليلة؟

المحطة على وشك الإقفال، خصوصا وأن جل الدكاكين لم يتبق من حركتها سوى أبوابها الزجاجية الشفافة والتي تنعكس عبرها أضواء مصابيح تزين مرافقها وبضائعها. عينا ماريا، الساحرتان، لم تعودا منتقَصًا منهما في تصوره الآن. حينما كان أمامها تمّسك بسلاح الحذر من الإغواء والإغراء. الإغواء ممارس شكليا بجمالها وحسنها ورقيّها وتحررها المشتهى، والإغراء ربما يكون مقصودا فعله وإثارته من طرفها. لا يدري إن كان شعوره الآن تمنيا للقائها. أهو مفعول عينيها كجرعة كوكايين يسحر بعد حين؟ يتدرج في تحقيق النشوة والانقياد؟ هل تدرك ماريا جرمها الذي تدبّره في هذا السحر؟

وقف مملوءا بهذا العالم الذهني الذي اختلقته مشاعره وتفكيره بعد أن صعد للطابق الثاني من المحطة. أحس بحضور ماريا وبابتسامتها حينما ربتت حياة النفوس بكلتا يديها على كتفيه. فستان أحمر وكحل خفيف وحذاء أسود لامع.

- ما هذا؟

- ماذا؟ ارتابت من سؤاله ومن إمكانية ملاحظة خلل ما في مظهرها. ولمن هي تزّينت أصلا في منتصف هذا الليل القريب من اختراق خط المستقبل والغد؟

لا تحب الخوض في علة صيغة السؤال: لماذا.

- لنجلس في مكان ما.

- سنذهب للشقة. ما رأيك؟ المحطة على وشك الإغلاق والتوقف عن خدماتها لهذه الليلة.

- كما تشائين. لكنني أتضور جوعا، ربما سآخذ معي أكلة سندويتش ما.

- كل شيء موجود هناك.

يضحك مترنحا، وتفاجئه بسؤالها الفضولي وهي تمرر أنفها بين يديه وأنفه وقميصه وتقترب من فمه وتنفسه:

- Trop chargée ! . ،راك منغّم.
- ما لِقِطّتي تتوجس من رائحتي وتشتم محيطي؟
- أشم رائحة عطر أنثوي مقيمة في يدك اليمنى. سأفترس كل أنثى تخترق جوادي وتحاول أن تمتطيه.
- جوادك ذهب في مهمة واكتشف وعاد. لا علاقة للأنثى بما تشمينه.
- وهذه الرائحة؟
- هي تحية تسليم لامست صديقة عبدالله.

وتتحول نبرة صوتها لكي تناسب سبب مكالمتها له هذه الليلة:

- ولِمَ ذهبت للبحث عن عبدالله بودحان؟
- وما المشكل المطروح في ذلك؟
- تلقّيت مكالمة هاتفية من السيد مفتش الأمن. سألني عن علاقتك بالسيد عبدالله بودحان. بيّن لي بأنه متورط في ملفات عقار ووثائق مزورة ومتنازع عليها. هي شبكة خطيرة وكبيرة تعمل على صعيد إدارات ومؤسسات وشركات. وطبعا يلعب رقم

المعاملات المالية عندها سقفا خياليا بالمقارنة مع الواقع المصرح به لها. ربما يكون له يد في ما وقع للسيد عمر بدوي.
والخطير في الأمر أن تسجيلات كاميرا جديدة أظهرت ما يشير إلى ذلك .
هل تريد أن تكون متورطا معه؟

- إنه صديق قديم فقط.

- صديق قديم نعم. لكن ظرفية البحث عنه غير مناسبة، خصوصا وأنك دخلت في تواصل جديد مع ممثلة شركة السيد بدوي. هل تفهم ما أقصد؟ ماذا لو سألوك فيما بعد عن مصدر الأموال التي ستستثمرفيها؟ من أين لك هذا؟

- وهل سألوا مسؤولينا هذا السؤال حتى يسألونني أنا؟

- ومن تكون أنت؟ أو حتى أنا من أكون؟ لا شيء. لا تنس أننا مجرد أناس بسطاء، لا مظلة تحمينا.

- الآن أصبح كلامك منطقيا. لكن السيد المفتش أو غيره إذا أراد مني الكلام سأبين له كل شيء.

- الأفضل أن تبقى بعيدا عن دائرة الشبهات، وإلا ستورط نفسك في مشاكل مجانية.

- ماذا تضمنت الأشرطة التي تحدثت عنها قبل قليل؟

- لم يُرِد مفتش الشرطة الكشف عن محتواها. إنما، الآن، لابد لنا أن نجد مخرجا للنقود. تعلم أن مبرر قدرها غير موجود قانونيا. لذلك أريد منك أن تفكر معي وتجد حلا. حاول إبقاءها عندك في مكان ما.

- لابد لي أن أكلمك عن عبدالله. لقد خطفتني مكالمتك من عالم جديد اكتشفته، واكتشفت فيه شخصا آخر غير عبدالله. لم يعد نفس الشخص. في عينيه رأيت خوفا، رغم الابتسامة والكلام المترنح والتمظهر بالتحرر. لمسة الأنثى وحضورها للتأثيث فقط. في العمق لم أرَ حبا متبادلا بينهما.

- مثلنا نحن مثلا؟

- نحن مجانين البحر. تلك الأصوات المنفلتة مع الأمواج. تتذكرين؟ حينما يصدر صوت نورس خدَعَته موجةٌ ما، أو شاكسه آخر في اصطياد سمكة أو التنافس على أنثاه. كيف كنا نرجع من شرودنا.

- لا تنس أنه شرود جميل ورومانسي جدا.

- هه... رومانسية أغرقتنا حتى البلل، يوم استغرقتنا قبلة طويلة أدخلناها في التحدي لكي نسجل أنفسنا في كتاب غينس العالمي. كيف وصل المد صاعدا من أسفل قدمينا حتى السرة، وما انفك العاشقان من قبلتهما.

- لم تصمد أكثر من ربع ساعة. أهذا هو التحدي وسجل المنافسة العالمي؟

- لا عليك. يمكننا معاودة التجربة قريبا.

- ليس هذه الليلة بالتأكيد.

- هههه. ومن قال لك بأننا على استعداد اليوم؟ حمقاء مثل الحاضرِ معك الآن. ولِمَ لا؟!

جالس فوق كرسيه وبجانبه سلة مهملات غالبا ما يتركها فارغة. لا يجعل ثقة في المهملات. يعلم أنها أدلةٌ منتظِرة لكي تعود للحياة. أنامله تطرق سطح المكتب الخشبي. ينظر إلى الكوب الخشبي والذي هو في الأصل حامل للأقلام ويشكل أداة من مجموعة مكتبية من خشب عرعار (أزوك) الصويري. هدية من صديقه في المهنة ورفيق العمل لسنوات عديدة. يبتسم للعيدان الموضوعة داخله بدل الأقلام.

لِمَ لا؟ سيستغرقه التوتر في الانتظار، فلِمَ لا يسلي نفسه بلعبة هذه العيدان (ميكادو)[4]. بعثرها فوق المكتب، بعد أن أزاح أوراق وأقلام، وكذلك هاتفَه المحمول، جانبا. كانت مجموعة من ستة عشر عودا. لم تبقَ في مجموعها الأول المشكل من واحد وأربعين عودا. لكن الورقة

[4] لعبة آسيوية قديمة، ترجع للقرن الخامس قبل الميلاد تقريبا. تترجم هرمية عسكرية وسلطوية تعتبر في العيدان بنقط متفاوتة تجعل لرأس هرم الميكادو نقطا أعلى: عشرون نقطة. اشتهرت اللعبة وأخذت أسماء متنوعة في الثقافات واللغات التي احتضنتها إلى يومنا هذا.

التقنية المرفقة باللعبة ما تزال في القمطر. كل مرة يضعها فوق المكتب. يتأمل هرمية عيدانها وتنقيطها وأسمائها:

كيمادو . ساموراي . مانداران . بونز . كولي. عيدان رقيقة ذهب لونها الأصلي الأسود، الأصفر، الأزرق، الأخضر، الأحمر، وتحول إلى شحوب مع كثرة الاستعمال واللمس. كلَّ مرة ينجح في سَلّ عود من الرزمة المبعثرة، يجعل له رمزا بحرف. كانت الحروف هذه المرة تنوب عن الشخصيات المعنية بالقضية. والغريب أن تسمية لطف الله كذلك أصبح لها حضور في اللعبة: (ل). يعتبر بأن توازن لعبته من توازن عمليات بحثه وتقصيه. فرصة للتركيز وإعادة التفكير في جوانب أخرى ربما تكون خفية عن ذهنه حتى لحظتها. لعل تشابك الأسهم الموقعة للاتصال والتقاطع بين الأشخاص مركبة بدرجة ما مع تشابك هذه العيدان كل مرة. يعاود ترتيب العيدان بحسب ألوانها، وما استطاع سحبه منها، فيجعل الأحمر لحياة النفوس ولطف الله وماريا. أما الأخضر الذي حصل عليه فقد جعله لميروسلاف. بينما كان الأزرق لكل من عمر بدوي وعبدالله بودحان. ويتأمل .

يسائل نفسه في لعبة حظ: أيكون هذا الأصفر صعب المنال في هذه الجولة وهو اليد الخفية في كل ما يقع؟ من تُراه يكون؟ يد خارجية؟ داخلية؟

(ع). عبدالله بودحان. شخصية رئيسية في الملف. في انتظار إحضاره ولو بالقوة إلى مركز التحقيق بدائرة أمن حي الرياض.

(م). ميروسلاف لازار. اختفى عن الأنظار. لا يعلم إن كان داخل قنصلية أو أنه قد غادر التراب الوطني أو في مكان ما، هو موجود فيه.

(م*). ماريا الصافي. صديقة عبدالله بودحان. استنطاقها هي الأخرى ضروري وبمعزل عن تواصل بينها وبين عبدالله بودحان. إنما التوصيات تلحّ على عدم إزعاجها أو استنطاقها في هذه القضية. ضرورة الاتصال بالمسؤولين الكبار قبل ذلك. استغرابٌ مردُّه شبهة من الشبهات صعبة التفسير الآن.

(ح). حياة النفوس. ما علاقتها بلطف الله؟ وهل تعلم شيئا عن الأعمال المشتركة بين عمر بدوي وعبدالله بودحان؟ كذا ميروسلاف؟

- أكيد. هكذا أجاب نفسه همسا، تاركا بقية التحليل المصاحب صمتا يريحه من جهد التفكير.

سَحق بقايا سيجارته التي نسيها فوق المطفأة حتى زكّمه عقبها المحترق. ساءل العيدان التي وضعها في قبضة يديه وفي ترتيب عمودي ملتف أمامه كصف جندية ماثل للتحقيق:

- أي واحد منكم له مصلحة في وضع المبرد داخل الساعة؟ ومن كان يريد قتله: علي بودحان أم عمر بدوي؟

يعود من جديد لحرف (ع). رغبة في الانتقام. إقصاء من امتيازات الأسرة وثروتها. رغم استفادته الكبيرة من ملايينها لا يرضى بالدونية من أخيه سعيد.

حقد. ثأر مرغوب. انتقام منفَّذ...

ومع حرف (م). لن تكون لميروسلاف علاقة مع سي علي. اللهم إذا ما كان مسخرا من طرف عمر بدوي أو عبدالله بودحان للقيام بذلك. لكن، إذا كان سبب ودافع عبدالله واضحا، فما السبب الذي قد يدفع لقتل سي علي؟ هل لمواقع العقار والبنايات بحي المحيط علاقة بذلك؟

ماذا لو كان ميروسلاف يريد قتل عمر بدوي؟ كيف يفسَّرُ التقاؤهما وتعاونهما، وعملهما في إصلاح مرافق بملحقات ديبلوماسية خارجية؟ أين هو الآن؟ ولماذ يريد قتل عمر بدوي؟ هل من خيوط خارجية لتفسير الملف؟ خارجية؟ هل هناك أمر مدبر من الخارج؟ بحث جديد مضنٍ.

أما (م*)، فأكيد ستكون عندها معلومات مهمة تفيد في تفسير ما حدث. يبقى التساؤل: هل شاركت في تدبير عملية قتل، وكانت على علم بها، وساعدت في القيام بالمهمة؟

(ح): هي أمينة سر عمر بدوي. لكن امتيازاتها تضعها في قفص اتهام ما.

علاقتها بالمسمى (لطف الله). هذا الماثل بجانبها فوق سطح المكتب كعود رقيق مبهم وبُنّي قاتم. لماذا ذهب لرؤية عبدالله بتمارة الشاطئ؟ لقد ارتبط سؤال السيد عزيز هنا بآخر معلومة توصل بها.

في العلبة الكارتونية التي تحتوي جل وثائق الملف، والتي سجّلت بمكتب التحقيق القضائي وتم تصويرها لأجل البث في القضية المرفوعة جنحيا من طرف النيابة العامة، حيث لم يكن السيد عمر بدوي هو المتقدم بالدعوة، يوجد المبرد الإبري الذي نزعت منه قبضته الخشبية على الأرجح وبقي مَمسَكها ذي السنتيمترين يميز موضعها عن طوله البالغ عشرة سنتيمترات، رقيق جدا ومن نوعية صلبة وجيدة. ما يزال البحث جاريا عن نوع الشركة التي تنتجه خاصة، فلا واحدة محليا أو وطنيا ثبت إنتاجها له.

في التقرير المرفق، وُصِف موقع انطلاقه من داخل إطار الساعة الحائطية:

وُضع نابض داخل أنبوب نحاسي شبه دائري ورقيق، والذي فُصل إلى جزئين متصلين ومشدودين من طرفيهما بمفصلي الباب الزجاجي للساعة الحائطية وسدادة البرغي فيهما. عمل متقن يبدو كزينة وديكور داخلي لها، لكنه ينصب فخا وسهما مشدودا بين فكين حديديين صغيرين جدا ومتلازمين في الانسداد والانفتاح الأتوماتيكي، في جوف

الساعة الداخلي، ومع كل حركة ميكانيزمية في فتح باب الساعة، حيث سيخترق جسد كل من سيقوم بفتحه.

يسائل السيد مفتش الشرطة نفسه: ولكن، لماذا لم يقم سي علي بفتح هذا الباب؟

في رجوعه إلى التقرير المكتوب وجد الجواب في عبارة للسيد بدوي بكونه يمتلك مفتاح هذا الباب. ماركة المفتاح بتوقيع شركة سينا الإيطالية. نسخة منه في وعاء بلاستيكي داخل الصندوق الكارتوني. وهو نفس ما أكده تصريح السيد علي بودحان. المفتاح كان مع السيد بدوي. لم يهتم بأمر الساعة حتى يأتي صاحبها. لكنه لم يذكر من أخبره بشأن إدخالها للمحل وانتظار صاحبها لكي يقوم بإصلاح بندولها الداخلي وعقاربها المتوقفة. هل هو تستر على ابنه عبدالله؟ من الضروري أن يعود إلى استنطاقه من جديد.

- هناك يد خارجية كذلك في قضية السيد بدوي. ويبدو أن السيد عمر يرفض التعاون والكشف عنها. لدينا حلّان لا ثالث لهما الآن، إما أن يبوح بكامل القصة والحقيقة، وإما أن نعثر على السيد ميروسلاف لكي نسمع منه قصته هو الآخر. مع أننا ننتظر جواب المصالح الخارجية الإضافي في جهاز الأمن حول هوية ميروسلاف هذا. تأخر غير مفهوم.

كان هذا آخر ما استنتجه وهاتَفَ به صديقه في البحث في هذه القضية. أرجع المستندات والأدلة إلى مكانها وانسحب لاستراحة مشتهاة. لم يكن مكانها هو النادي هذه المرة. الوجهة اليوم هي المنزل. فجأة قرر أن يخصص أكبر وقت ممكن للتواجد مع أسرته.

وهو في الطريق إلى المنزل، متأملا علاماتها التشويرية، متجنبا انعكاس ضوء المصابيح على عينيه المتعبتين، محوّلا النظر ليديه حول مقود السيارة وقد تخشبتا تجاعيد وعروقا صابرة وضاغطة على هذا الدماغ الذي يقاوم السجائر وضغوط العمل واليومي، فاجأته مكالمة هاتفية من صديقه في العمل والبحث حول القضية:

- سي عزيز، لقد صدرت الأوامر برفع سهرنا على ملف عمر بدوي. ستتكفل به مصالح الأمن الخارجية الخاصة. غدا، علينا أن نسلّم وثائق ومستندات القضية وعلبتها لهذه الإدارة الجديدة.

- سي حسن، لا أفهم ما قلته الآن. كيف يعقل أن توقف القضية في عز البحث عن حقيقتها؟ أليس هذا هو اختصاص عملنا؟

- أعلم. لكن يبدو من خلال مكالمة السيد المدير العام بأن الموضوع أصبح أكبر من اختصاصنا، خصوصا وأن خيوطه اتسعت دائرتها. أصبحت الآن أروبية أكثر. السيد ميروسلاف تم القبض

عليه بإسبانيا في قضايا مبحوث عنه فيها هناك. ارتح الآن وغدا له مدبر حكيم.

- وماذا عن الأشخاص الآخرين في القضية؟

- لا تقلق. هناك جديد يحتاج إلى المكتب للتكلم فيه وليس الهاتف. إلى اللقاء.

بقيت جملة رفيقه في العمل مترددة في ذهنه: رُفِعَ سَهَرُنا على الملف. فعلا كان سهرا، ما دام يأخذ من تفكير كل واحد الليل والنهار، يؤثر في مواقفه ويخدش مشاعره كل حين. كل هذه التوترات التي عاشها في هذه المدة الأخيرة سببها هذا الملف. في نهاية المطاف، الكل يعمل تحت سلطة أوامر، والكل يعمل داخل إطار القانون وعلى هامشه كذلك. يعلم السيد عزيز بأن ملفات أخرى متداخلة لم تُصَفّ بعد، ولا تحتاج إلى ربطها بقضايا خارجية أو داخلية. لكن ذهنه الآن سيرتاح، وضميره سيخلّصه من بحث عن عدالة مفقودة ومنفلتة. فلكل ظروفه التي تقوده إلى فعل ما، وجرم ما. وعالمه متابعة وتحقيق في قضايا من مثل هذا النوع. كثيرة هي الجرائم البشعة التي تابعها، لكن هذه بدت متشابكة وحاملة أسرارا كبيرة. ربما ستصبح لعبة مثل لعبة الميكادو التي اختارها أنيسة له في مكتبه. يختار شهيقا يتبعه زفيره. أهي رغبة في تفريغ الذات من ضغط هذا الملف المتشابك؟ يشعر بأن كل ذكائه المهني

والخبرة التي راكمها تخنقهما وتحدّ من تطورهما مثل هذه القرارات التي توقف العمل ولا تبرر القرار:

- أصبحنا مع التقادم بلداء أكثر، لا نعرف ما يقع ولمَ يقع.

بعد توقف البحث في هذه القضية، اختار السيد علي بودحان، بعد حادث الدكان والمبرد الدموي الذي كاد أن يودي بحياة عمر بدوي، أن يذهب في رحلة عمرة إلى الديار المقدسة، هو وزوجته. اتبع نصيحة أخيه ونصيحة السيد عزيز السليماني. من الأفضل الابتعاد عن الأنظار وعن مكان العمل. سيكثر حضور الناس وسؤالهم واستفسارهم عما وقع وسيكثر القيل والقال والتأويل لما قيل .

لم يلتق بابنه عبدالله لأنه لم يبحث ولم يسأل عما وقع لأبيه في الدكان. لو أنه حاول تفسير سبب مجيئه بهذه الساعة اللعينة إلى محل عمل أبيه، وتفسير ما وقع بالمبرد، ولماذا هو في علاقة مع هؤلاء الأجانب ومع السيد عمر بدوي؟

لا جواب أشفى غليل السي علي. لكن يقينه في الله تعالى. إكسيره في مواجهة المصائب إذا حلّت يخوّل أمرها للبارئ القادر على كل شيء. يفرغ ذهنه من كل وسواس: لا تحزن. لا تقلق أو تشوش بالك. ما أراده الله لك فيه خير. ربما هي مرحلة اتخاذ قرار في تقاعد عن العمل في الدكان. كفاه من الحياة ومن الأخذ بأسباب الرزق أن يهتم بصحته ومعيشه وعبادته. ما تبقى من الصحة سيسعفه في التزام أوقات الصلاة والذهاب للتعبد والمشي المناسب يوميا لكي يحافظ عليها .

زيارة الجنوب، بلد الروح التي تسكنه، معانقة تاريخ القبيلة والطفولة. وستكون العمرة مشوار تطهير وتهيء لهذه المرحلة الجديدة. ربما كل هذا قدر رباني أراده الله تعالى له. ابتلاء وامتحان حتى يفكر من جديد في استغفار واستعانة وتوكل على العزيز الجبار سبحانه وتعالى.

سِجلّ تاريخه يراه بلونين الآن. واحد فضي لامع، والآخر صدئ مهترىء. فبماذا سيفسر اللونين. وإلى مَ سيرمزان؟ قد تنوب العلامات عن الكلام، وقد يتكلف الحلم بترجمة كل هذا إلى رموز وتخزينها بعيدا عن الوعي. لكن ذكاء سي علي لا يخونه في الاستنتاج، رغم كونه لا يحتاج إلى لغة الرمز والعلامة وما شابهَهُما دلالةً لأن تفكيره يتخذ رموزه الخاصة والتي قد لا يعيها ربما.

حينما صادف التقاء لطف الله بماريا في جلسة ساحلية بمقهى "سلا مارينا"، كان الانبهار المتجدد الذي برّر الصدفة بالتعجب وعدم قدرة تصديق إمكانية وقوعها. وسينوب عنهما حدسهما في تحويل التعجب إلى تبادل الرغبة في الاشتراك في جلسة واحدة وتناول شيء ما:

- مرحبا آنسة ماريا.

- مرحبا. تفضّل بالجلوس معي في الطاولة إذا كنت وحدك وبمفردك.

تريث في قبول عرضها، واتخذ مقعده بخجل قبل أن يجدها تتابع كلامها:

- وكيف علمتَ أنني آنسة؟ من الأفضل مناداتي بالسيدة. فقط لكي ترتاح وأرتاح في الحوار الذي سيجري بيننا. هذا أول لقاء وتواصل يتم. ربما أعلم عنك ما لا تعلمه عني. لكن، لا تقلق، فكل ما أعلمه خير.

- سأرتاب من كلامك بعض الشيء. على العموم، كيف الحال؟

- كما ترى من جلستي، لم تعد لي علاقة بالسيد عبدالله. وبما أنك صديقه القديم من خلال ما حكى لي، فإن هذه الصدفة مناسبة لكي نتكلم بعض الشيء.

أخذ منه سحر الصدفة وصوتها جل الانتباه حيث لم يلتفت في البداية إلى فستانها الذي جعلته مواكبة لموضة جديدة، منسدل حتى القدمين حيث الحذاء كان منبسطا دون كعب عالٍ. أما شعرها، فهو الآخر سرحته وتركته لهبة الريح وحركة الجسد ورقصة الذراعين كل مرة في ملامسته على الصدر أو فوق الكتفين أو في ارتماءة الحركة وراء ظهرها. ولطف الله في كل ذلك يتحول ببصره ونفسيته وشعوره كأنه بين موج المحيط الذي يتقاذفه بهديره وملوحته وبرودته التي يقشعر لها الجسد.

فعلا سحَره الجسد الأنثوي. لكن كلامها فرض عليه الانتباه والحذر مما سيأتي في الحوار، في هذه الجلسة الشاطئية الجديدة. وحينما دار الحديث عن المألوف، عن جمالية "مارينا سلا"، وجودة خدمات المطعم ومقارنته بما يماثله ويسمو له من مطاعم ومقاهي بالمدينة الرباط، سها ذهنه مستحضرا ومتذكرا .

وكأنه يشتهي أو يتهيّأ للاشتهاء. وكأنه يقاوم شخصا آخر بداخله يريد هذه المرأة. لكن الفصل بين وعي ووعي، بين قيم صداقة تذكره بأنها

صديقة صديقه، وأخرى تعلنُه حرا في اختياره، ما دام العصر وتجاربه يجعلان صاحبهما منفتحا أكثر لفعل ما يريد ويترجم حريته، ليبراليته بتعبيره الثقافي الفرنسي، باللغة التي تعين كل شخص في المدينة لكي ينتقل من ثقافة قيود أخلاقية إلى ثقافة تحرر سلوكي مرغوب (JE suis libre)، كل هذا جعله يتريّث في الكلام وينتظر ما سيأتي به.

يستحضر أنه في لحظة ما من النشوة، وهو منصهر في علاقة حميمية مع حياة النفوس، جاءته صورة ماريا وصوتها. يتذكر طيفها الذي تبعه حتى فضاء محطة القطار الرباط أكدال. بدا هذا الجسد أكثر إثارة، وهذان العينان أكثر جذبا. مارس هياما متخيلا داخل علاقة ملموسة ومحسوسة. يستحضر أنه في ليلة ما، لم يتذكر يومها، رآها في الحلم، مقبلة بابتسامتها، آتية لمعانقته وتقبيله إلى ما يشرعنه الحلم من تحقيق. لكنه سرعان ما يقاوم في يقظته كل هذا بتذكر احتمال أن تكون حاملة لمرض منقول جنسيا، يمكنه أن يعدَيه، وهو الذي مرّ من تجربة الخوف والارتياب فيه.

هكذا سقط حكم القيمة لكي يزيح ستار وغشاوة الاستيهام الذي قد يجره إلى ما لا تحمد عقباه. شبح المرض، هذا الغول المخيف والذي حوّل كل تفكير في علاقة جنسية عابرة أمرا خطيرا ومهدّدًا. عتمة المحيط الأطلسي التي تذكره كل ليلة بمحاولة التفكير في حلّ الانتحار لمجرد ارتيابه من الإصابة بمرض منقول جنسيا .

ويتذكر يوم اختار التبرع بالدم بالتقدم لقافلة التبرع بالدم التي ترسو كمقيمة دائمة في ساحة باب الحد. كيف تهيأ ليومين قبل ذلك وكيف استشار الموظفين في الشاحنة المتنقلة الخاصة بالتبرع (قافلة التبرع بالدم). كيف كان انتظاره لمدة خروج نتائج التحليلات المرتبطة بفصيلة الدم وخصائصه ومدى سلامته. حينما تسلّم من مركز التحليلات العام نتائج كل ذلك وخبر خلوّ دمه وجسده وروحه من كل مرضٍ معدٍ، انطلق كفراش طائر أو كطائر محلّق في الطريق فرحا وتكبيرا وحمدًا. انفجرت بدواخله كل تعابير الدعاء والحمد فعلا.

ذهب راجلا لمسافة طويلة وهو يردد مع نفسه وعيناه دامعتان وناظرتان في اتجاه السماء، العلا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. هكذا. كأنه ولد من جديد، أو لنقل قد دخل دينه من جديد حيث تركيب القيم ومسار الروح في السفر بين حياة وحياة، مصير ومصير.

ويبتسم لها بطريقته الخاصة وهو يحاورها. لكنه سرعان ما يذوّب كل ما سبق لذهنه استحضاره من تخوفات، فيصيبه الغرور الخفيف الذي يذكره بكون حلمه يتحقق. يلطم دواخله فجأة، في سياق شخصية اجتماعية تعيش تناقضاتها: لا تعتبر نفسك اللعينة هي النبي يوسف عليه السلام ! لا تغتر !

. سأحاول أن أصحح الصورة التي ربما اتخذتَهَا عن ماريا الجالسة أمامك.

أولا، أنا لست ساقطة بالمفهوم الذي قد يفهمه البعض. قد ترى تحرري في تناول نبيذ أو شامبانيا، تدخين سيجارة، علاقة ما، لكن هذه الأمور أعتبرها حياتي الشخصية واختياري مثلما لك أنت اختياراتك كذلك. ثانيا، علاقتي بالسيد عبدالله كانت عن قناعة بأنه يليق بي كصديق، لكن في حدود الصداقة. أقمنا علاقات حميمية فعلا، لكنها لم تحوّل ما بيننا إلى حبّ. لم ألمس أن عبدالله قد أحبني بالشكل الذي أريد. وكنت أنا التي اشترطت عليه ألا نحوّل العلاقة إلى حبّ أو تفكير في الزواج. جربت الزواج فيما قبل وانتهيت منه عن قناعة.

ثالثا، أنا أعمل في المخابرات، وأنسق بين المصالح الاستعلاماتية. وظيفة ليست بالسهلة، ولم تكن لها علاقة بالسيد عبدالله في البداية. لكن صدف مدينة الرباط وحي حسان ومرافق فندقه الحامل لتسميته تجعل الجل في محك واحد من المصير. قدري ربما ذاك الذي لم أرده. وحينما علمت بعلاقته بالسيد عمر بدوي، ثم فيما بعد دخل على الخط ميروسلاف، كان التمييز حاسما بين العمل وتلك العلاقة التي بدا أنها لن تطول. في دواخلي، أنا إنسانة. قد أتمنى الاستقرار والزواج والهناء والشعور بالأمن وبمن سيرعاني كطفلة وليس كامرأة.

لكن منطق الحياة قاسٍ على هذه الأمنيات. ربما حتى الحظ أقسى في احتمالاته.
كيف أفسر تورط من أقمت معه علاقة صداقة في ملفٍّ أصبح من مهامّي اليومية في العمل والتتبع؟

تناولت سيجارتها "اللايت" وقدمت له العلبة فاختار هو الآخر أن يدخن معها منها. استسمحت في احتكارها للكلام وحديثها عن أمور تبدو حرجة. وطبعا، قبِل اعتذارها بكلمات مبتسمة وطالبة الاستمرار في قول ما يريح الإنسان في حواره وحديثه. هذه المرة أغوته الألوان المشكلة للفستان. استطاع أن يعود لتأمل شكل الجالسة أمامه. لاحظ طبعة فرو فهد على ثوب فستانها من الساتان. أراد أن يريح بصره من عالم نظراتها التي أصبحت أكثر خطورة عليه. شعوره هذا أعلن له بأنها مغامرة ومخاطرة، بين اشتهاء الأنثى وصحو الضمير الذي ينبّه لمخاطر الاشتهاء.
ذهبت مخاطر الإصابة بمرض ما مع ظن الحكم على أخلاقياتها واعتبارها بائعة هوى ربما، وحضر هول شخصيتها الجديدة ووظيفتها التي تجعلها أكثر إخافة مما سبق. مخابرات ! مرة واحدة ! كلمة جعلته يستفيق من هيامه وتطلعاته الغريزية.

صادفت ضحكته، والتي رافقت تعليقها على كلامها: (أنا كثيرة الكلام في بعض اللحظات)، تحويلَه لبصره من لوحة معلقة فوق مدخل المقهى ومقابِلة لجلسته قبالة مستضيفته في هذه الطاولة إلى النظر في عينيها. كانت صورة بالأبيض والأسود. صورة فوتوغرافية لبهلوان يمر فوق حبل معلق في الهواء ليصل لمحبوبته في الجهة الأخرى. كانت ابتسامة مستقبِلة ومغامرة حذرة وجامدة القسمات. (لن أعبر فوق الحبل). (لن أكون بهلوانا مضحكا). عبارات شاكست، وحدّثت بها مشاعرُه نفسيتَه الداخلية وتفكيرَها الهامس.

- تناول معي بيتزا.

- لا شكرا.

ألحت عليه فقبل عرضها، وفي الانتظار للطلب تابعت كلامها عما أرادت من لطف الله أن يعرفه:

- أريدك في خدمة إذا كان ممكنا. علمت أنك انخرطت في ودادية للسكن بمدينة تمارة.

اندهش للخبر ولمعرفتها به، فردّ عليها بنبرة هذا الاندهاش:

- صحيح !

- طيب. لا تقلق من كلامي، واعتبره مجرد كلام صادر من شخص يريد لك خيرا ويهتم بأمرك. لذا اطمئن لكل ما سأقول. أمر تدبير مشاريع بينك وبين حياة النفوس، ذاك شأن يهمكما. فقط ولكون ملف إدارة هذه الودادية يهمنا في العمل، ونتتبّعه بالبحث، هو ما دعاني لطرق الموضوع معك.

- لا أفهم جيدا مرادك. هل هناك مشكل في هذه الودادية.

- سيد لطف الله. مهمتنا هي تتبع تبييض الأموال، وتهريب العملة الصعبة، وتتبع الشبكات المختصة في ذلك. قد ترافق هذه الأعمال جرائم قتل واعتداء وتزوير طبعا. لذلك فنحن نعمل على جمع الأدلة التي تبرهن على تورط أشخاص في مثل هذه الجرائم. قد تكون مهامنا داخل المغرب وخارجه، لكننا نعمل بتأن حتى لا نقع في هامش من الخطأ قد يكون قاتلا لكل المجهود الذي نقوم به. لماذا اخترتك؟ لأنك بعيد عن كل نية سيئة .
وحيث لا نية بريئة عند هؤلاء فإنني سأعطيك تفاصيل وسأطلب منك ملاحظتها داخل هذه الودادية. ولا تنس أن تهريب الأموال يرتبط باختلاسها وسرقتها طبعا. عمليات الاحتيال التي يقوم بها بعض الأشخاص والتي يستغلون فيها ثقة الناس وتسهيل

المساطر القانونية والجمعوية لخططهم، توقع في أمور مثل هذه التي نحن بصدد الحديث عنها.

لم يعُد فارس الأحلام كما تصور ذلك وتخيله. أصبح في قفص اتهام مجرورا إلى ساحة محاكمة. لم تكلمه عن مصدر الأموال التي استثمرها هنا أو هناك، لكنها بدت عالمة بكل التفاصيل تقريبا، وبعلاقته مع حياة النفوس. ساءل نفسه إن كان عبدالله هو الذي أخبرها بمعلومات حول حياته الشخصية. لكن استدراكه بأنها تعمل في المخابرات جعل كل شيء ممكن الاطلاع عليه من طرفها.

خاف في لحظة على دواخله ومشاعره وانزياحاتها، ربما تفضحه معها. لم ينقذه من هذه التوجسات سوى استمرارها في الكلام والذي جعله يتساءل من جديد:

هل كان لقاؤهما صدفة أم أنها تتبعت مسار جولته لهذا اليوم؟

- إذا كان ممكنا، نريدك أن تدخل في مكتب تسيير هذه الودادية. وطبعا نضمن لك الأمان في عدم ضياع حقوقك داخلها، كما نضمن بقاء الأمر سرا بيننا. لكنه من مصلحتك أن تعرف ما يدور داخل هذه الودادية.

عصابة خطيرة وممنهجة تحتكر المجال وتستغل جهل الناس بالقوانين وتدبيرهم للشأن الجماعي في مثل هذه الوداديات. تذر

عليهم الملايينُ الملايينَ، وتبقى آمال الناس في اقتناء شقة أو بقعة أو بناء فيلا، معلقة إلى حين القبض على سراب في الأفق.

لقد أقنعت سيدة معكم في الودادية بالتعاون معنا في جمع المعلومات ومدنا بها. وأظن إذا قمت أنت بذلك فمن مصلحة الجميع القيام بمثل هذا الأمر. فكر في الموضوع ولا تنس أنه يبقى سرا بيننا. حتى حياة النفوس، لا يجب أن تعرف شيئا من هذا الحوار ومضمونه. وكما تعلم طبعا، فإن السيد عمر بدوي قد حكم عليه بأقل مدة تخفيف بناء على تعاونه مع هيأة التحقيق في الملفات التي توبع فيها. وقد كان لصديقك المحامي، ذكّرني باسمه من فضلك !

- آه، تتكلمين عن السيد رشيد الامراني.

- نعم، هو بالتأكيد.

احمرّت وجنتاه رغم شحوبهما وراء لحية خفيفة مهملة فوقها. شعر بكون جوابه مصيدة كلام اعترف فيه بعلمه وتورطه وتدخله في القضية.

- بالتأكيد، فالسيد الامراني قام بعمل ذكي جدا خفف الحكم الذي كان سيصبح خمس سنوات إلى سنتين مع وقف التنفيذ لسنة سجنا نافذا .

لكن قضيته ما تزال مفتوحة لحين خلو بعض هذه الملفات من شبهات الإدانة. إذا ظهرت أدلة ضده سيعود للمحاكمة من جديد.

طيب. نتبادل أرقام الهاتف ونبقى على اتصال. يمكنك أن تعتبر ما بيننا صداقة أكثر منها أوامر عمل. سأعتز بالتعرف عليك ومجالستك مستقبلا. نحن كذلك متورطون في مهنة لا ترحمنا. تريد منا أن نكون آلات أو روبوهات بدون مشاعر. لكننا لا نستطيع.

- هل من جديد في ملف عبدالله بودحان؟

- لا جديد. لم يثبت تورطه في قضية الساعة والمبرد. قادته بلادته إلى كمين نُصب وكان هو أداته، كاد أن يودي بحياة أبيه قبل غيره. هذا ثمن التهور مع رجال العصابات.

- ألم تكوني على علم بمساعدته لميروسلاف؟ ربما أخبرك بذهابه معه إلى الدكان.

- في الحقيقة كان عملا ذكيا من طرف هذا البلغاري. موّه الجميع. أرادها أن تكون حادثة عادية أو ربما يورط فيها السي علي. لا يهمه من سيذهب ضحية كل هذا. جعل المفتاح بيد السيد بدوي.

اعتبر أن فتح الهدية يكون من طرف المُهدى له. هذا عُرفها. ربما همس له بشيء سيكون بداخلها. كم من تهريب تم بهذا الشكل. لكن الرأس المدبّر بقي منفلتا خارج اللعبة في مكان آمن في أوربا. ما علمناه هو كون السيد بدوي كان يسدد ديونا خارجية لجهة ما. وحينما انقطع عن ذلك كان الأمر بتصفيته. هل لسوابقه مع المافيا دخل في قرار اغتياله، وهو الحذِر في كل سفر أو علاقة؟ غالب الظن أن الجواب يورطه مع خيوط شبكات مافيا دولية.

حينما أراد العودة إلى مدينة الرباط .عدوة الضفة الجنوبية .احتاج ليعبر مسافة فاصلة بين المطعم ومحطة الطراموای. تذكر تفكيره في شراء سيارة للتنقل. شغله موضوعها هذه الأيام. لم يشأ أن يجعل أثرا للمشاريع التي بدأها مع حياة النفوس ظاهرا: الانخراط في الوداية السكنية، محل لغسل السيارات بمواصفات عصرية جديدة، مكتب صرف وتحويل للعملة، رغم أن حياة النفوس لم تحبب هذه الفكرة الأخيرة لكونها تجر الخيوط إلى ماضي تشكيل هذه الأموال. ثلاثة مشاريع امتصت القدر المالي الذي استثمره مع حبيبته القديمة. لم يرد أن يبدو في الواجهة. كان هناك مستخدمان في محل غسل السيارات، ومستخدمة واحدة في مكتب الصرف .

نظر أعلى إلى السماء. شعر بقشعريرة وهو واقف وراء الباب الزجاجي. فعلا هي ريح تهب باردة وحاملة لرطوبة ثقيلة، جعلت السماء مكفهرة وواعدة أو متوعدة بمطر سريع آتٍ . منذ مدة والناس ينتظرون الغيث من السماء. نظر إلى ما وراء النهر، سلسلة عربات زاحفة يشكلها هذا (الطرام)، وخوف غريب تملكه من رؤيته فوق قنطرة عبور طويلة ومعلقة. نظر أسفل إلى حذائه الجديد الذي خاف عليه من البلل. لكن الرهبة كانت أكبر من هذه الألوان المتغيرة في السماء وفي البنايات، وهذه الأضواء النورانية هنا وهناك، وطيف مَعلمة صومعة حسان الذي تحلى بأضواء صفراء أعطته شموخا ليليا وسرمديا لا ينام ليل نهار. تخيّل المقطورات أخطبوطا مشكلا ثم جاءته صورة تنين يزداد في كبر حجمه. وسرعان ما أعادت له الأنوار التي زحفت على الظلمة المتشكلة مع أفول هذا النهار، صورتَه الذهنية الواقعية.

أغلق سحاب الجاكيط الجديد من نوع cargo. نظر إلى ساعته من نوع (هوبلوت). لكنه سرعان ما سحب هاتفه من جيب سرواله لكي يعاود لاشعوريا معرفة توقيت اللحظة والمساء الجديدين. ربتت يدها بنعومة باصمة دفئا منعشا على كتفه وهي تهم لمغادرة المطعم كذلك من وراء هذا الباب الزجاجي:

- أوصلك معي بالسيارة إلى حيث تريد إذا لم تكن منتظِرا لواحدة أخرى. ستصل بأمان ودون بلل مرتقب مع هذا المناخ الرباطي المتقلب.

خفق قلبه. هو اشتياق ظمّأه كامل هذه المدة، منذ التقت عيناه بعينيها ليلة المطعم بشاطئ تمارة، وكأنها ليلة محطة القطار التي عبَر فيها طيفُها روحه وظن أنها مخترقة حضوره. نفس الليلة، نفس الأنثى.

هل تمت تسوية الملفات القضائية التي توبع فيها السيد بدوي؟ ذلك تساؤل طرق ذهن لطف الله كل حين. لم يفهم سر الحكم المخفف في قضايا شائكة ومتداخلة. ملفات سهر عليها فريق من المحامين وبتوصيات خارجية، في حين هناك ملفات رفعت فيها النيابة العامة يدها عنها واقتصرت على طعونات شكلية اعتبرتها حدا أدنى، لكنها ضرورية في التناول والترافع والبث القضائي. بينما بات المحامي بعيدا عن التواصل مع لطف الله، متحاشيا كل إطالة في تناول الموضوع، مبهما في تصريحاته وشروحه التي يقوم بها مع لطف الله.

فطيلة المدة التي استغرقت هذا الملف قضائيا لم يلتق لطف الله بالسيد بدوي أبدا. مثلما لم يلتق السيد المحامي بحياة النفوس باستثناء مرتين أو ثلاثة.

كانت إحداها خلال الشهادة التي سجلتها أمام النيابة العامة بطلبه وبحضوره كمحامٍ للسيد بدوي. وكأنها غريبة عن كل الملفات.

- لم يغلق الملف كليا.

آخر جملة سمعها لطف الله. ماذا يعني هذا؟ لم يفهم مجريات الأمور وأسرارها. كان آخر لقاء له مع السيدة ماريا بداية مشوار جديد.

وكانت خطواته قد تغولت في المال الذي وفرته له حياة النفوس. تهديد وأمان. وكأنها رمت بجمر حرق كفيها بين يدي لطف الله، فكان المتحمل للألم ما دام يتحمل حبًّا دفينا لها.

تهديد وأمان إذا. شعوران متناقضان. سيخرج من ظلال أموال المعاملات المصرفية وتحويل العملات إلى ظلال جديدة، وتحت غطاء المشاركة في تسيير شؤون ودادية سكنية بمدينة تمارة وبجماعة الهرهورة على الخصوص.

كانت جلسة مطعم مارينا سلا مع ماريا. لكنها جلسة لم تنته مشاهدها مع إسدال ستار الحوار والانصراف، مع رحمة الأمطار التي نزلت تلك الليلة. كانت دعوة لجلسة شاي. هكذا سمّتها ماريا، داخل شقتها الجديدة، غير بعيد عن السوق التجاري الكبير بحي الرياض. بدأ يشعر بأن هذه الدعوات التي تقترحها عليه النسوة عادةً وكأنها أصبحت خاصة به، مغامرة تدعوه لكي يجرب الجديد.

وكأنه زير النساء، أو كأنه المتورط بإرادته في مشاكل تجلبها النساء. لا يهم الاستنتاج الذي سيرافق هذا التحليل المتناقض. ما يهم هو التجرؤ على الإقدام في خطوات جديدة. لم يرغب فيها ربما. لكنها أصبحت شبه مفروضة عليه. ملزمة بالمضي داخلها. هي عملية اطّلاع على معلومات تفيد في مقترح الانخراط داخل المكتب المسير للودادية السكنية:

- أظن أن معرفة القانون ضرورية لكي تضبط دورك في تسيير هذه الودادية. كذا لحماية حقوقك وعدم الوقوع في خرق للقانون. في نهاية المطاف، من حقك أن تمارس إشرافا على شؤون مشتركة تجمعك مع منخرطي الودادية.

- صحيح.

كلمة مختصرة وسريعة، لكنها طويلة الغوص وعميقة النفاذ لدواخله. ما دامت سائقة السيارة هي سائقة الكلام. ما دام هو الضيف في كل هذا. لم يكن شيئا، ولم يمتلك شيئا قبل هذا. لكنه، ها هو الآن أصبح شريكا في مشاريع.

سقف معاملاته يقترب من المائة مليون سنتيم. الخطوات السابقة جعلته على ما هو عليه. لم يحلم بشقة مستقلة قبل أن يجد عملا مناسبا يضمن له دخلا وتوفيرا. لكن الشقة موجودة. حصل عليها بسهولة. جعل لعبة القرض وضمان محل غسل السيارات طريقا ليبدو ذلك الشاب المقاول والطموح والذي يكد وينطلق من الصفر لكي يكتسب رزقا ومالا ورأسمالا واستثمارا.

- الله أكبر !

عبارةُ تعجّبٍ دغدغ بها ذهنه وشروده داخله بعد كلمة (صحيح) التي رددها مع كلام السيدة ماريا موافَقةً على ما تقول. وها هو الآن

داخل شقتها. هل ستدعوه إلى أمر آخر خاص؟ أبعَد التفكير في كل احتمال وعن أي جواب قد يراوده في ما يخمّن فيه.

يوقظه الأرق في عز الليل. قد يجلس متعرقا رغم الطقس البارد الذي غزا العاصمة في فصل الشتاء الجديد. مرت أربعة عشر شهرا على حادث دكان السيد علي بودحان. بقلم رصاص أسعفه حظ الإهمال والبقاء بجانب أجندة العام الجديد وجدوله الشهري واليومي، يفتح قوسا مبتدئا من تاريخ ذلك الصباح الذي لن ينساه. وكأن وتيرة الزمن قد تسارعت وتسارع معها تعاقب الأحداث. يموّج خط القلم متدحرجا أعلى وأسفل الأرقام بين مربع شهر وآخر فوق هذه اليومية الكرتونية، ضاغطا على القلم ومتوترا في استعماله ومكسرا لرأسه. تكسر في منتصف طريق التموج والتدحرج للخط. يحفر ببصره متخيلا ما يلي من أشهر وأسابيع وفصول. يجعل دائرةً على رقم 23 من شهر نونبر من السنة الماضية 2019. يصادف تاريخ ميلاده ومناسبته. يضحك داخل متفرَّق الحلكة الموزعة في زوايا من الغرفة. بصيص نور منفلت من النافذة الوحيدة داخلها، ومصباح جانبي فوق المنضدة مؤطر لضوء مرسل في شكل دائري يحجب ما هو فوق وأعلى ويغطي ما هو تحته. يبتسم لطف الله لاكتشافه المباغت. وكأنه عبقري سيضيف حقيقة جديدة للعالم: ضوء المصباح الجانبي يخالف دور ظل الشمس. فإذا

كانت الشمس تنحجب أشعتها بحاجز المادة التي تعكس ظلها خلفها، فإن هذا الضوء يحمي دائرته من حلكة الغرفة وظلامها الموزع على بعض جوانبها وزواياها.

- يا سلام عليك !

يعلق على تفكيره ساخرا منه أو مبتهجا بإنجازه. ويعود لنسج رابط الأحداث ومنطقها الجامع بينها. يضحك من جديد. فقد ساعده المصباح أو ورّطه في فرز الأرقام من الحروف فوق هذه اليومية الكرتونية. يوم أراد الاحتفال بعيد ميلاده الذي لم يتفكّره فيه أحد سواه. يوم بدأ سفره الجديد بين اختيارين، اختيار الانسحاب والرجوع إلى بساطة اليومي وعطالته والعيش المقتصر على الحلم، مجرد الحلم، واختيار الاستمرار في لعبة الورق والجمر. هذا الجمر الذي رمت به حياة النفوس بين يديه ليلعب به لعبته المتبقية في هذه الحياة. وكأنه حقه من الوجود في اللعب بما يحرك عجلة قاطرته الكبيرة: المال. لكن القبض على الأوراق أصبح حاميا ولاهبا وحارقا. أدرك أن للأموال طعم النار. فقد كان قراره الذي وافق به، ويده التي قبضت على حقيبته نقودا محمولة، ورجلاه اللتان بحثتا عن محل ومرأب متجاورين. أراد نقل ما رآه بحي المحيط في ذلك الصباح إلى فضاء مدينة تمارة، محل للصرف والخدمات والتسهيلات والتحويلات، وآخر لصيانة وغسل السيارات، تواصله الذي قاده للانخراط في ودادية سكنية...

فكّر ثم فكر. لِمَ لا يستشير محاميا في الموضوع ويجعله مساعدا على الاختيار في هذه الطرق الجديدة؟ هذه المرة لن يكون السيد رشيد الامراني. لابد أن يفكر في اسم جديد آخر يكتم السر ولا يعلم بما سبق من خيوطه. فهل سيكون هو البديل عن شخصية السيد بدوي؟ مصادر أموال مشكوك في شرعيتها واستثمار متنامٍ مجهول المصير؟ لكن الجميل هو هذه الحياة الجديدة. فعلا شعر بأن الحياة تجارب يجب أن تعاش. على الأقل هناك تحول وخروج من رتابة أصبحت سمة تاريخية قاتلة تطمس صاحبها في غياهب النسيان والإهمال. أعياه التخلق والتشبث بالأخلاق. سياج من القيود والأغلال جعله في استقامةِ راقدٍ في تابوت في ما سبق من عمره. ها هو الآن يغامر ويجرّب تحديات عواصف وأمواج عاتية.

هو الخوف نعم، لكنه تنفس جديد. كفاه معاناة مع رطوبة حي المحيط القاتلة. شمس مدينة تمارة ألطف وطقسها أجف نسبيا. ليته يدري كيف يواجه هذا الجبل المحفوف بالمخاطر. يراه مرسوما أمامه. ينظر إلى جوارحه وإلى قدراته في التسلق وفي التجاوز لعقباته. مافِيَا نظّمت حلب الأموال مثلما نظّمت تجارة في المخدرات الصلبة. ذلك ما استشفّه ولمسه. سيارات فاخرة تستبدل كل حين، وصفقات على الأوراق تدهش بأرقامها. وعالم الليل غول يُعِدّ مطحنة أسنانه لقضم

ضحاياه من مدمنين. عليه أن يحذر مهندسي النهار مثلما سيحذر هذه الغيلان. ليست لهم قلوب يشعرون بها. ربما دقات قلبه استشعرته بالرعب المرافق في التجربة الجديدة.

كانت الرحلة إلى مدينة فارو بالبرتغال. أمكَنه الآن أن يوفر ميزانية سفر وتجوال وسياحة. هي دعوة تلقاها كضيف للإقامة بفندق لمدة ستة أيام. كان عليه أن يوفر تذكرة الذهاب والإياب مع مصروف ما يحتاجه شخصيا للإنفاق فيه. وكانت المضيفة هي السيدة ماريا. هو برنامج زيارة مثلما هو برنامج عمل. سيلتقي خلاله مع شخصية جديدة، والتي ستكون مرافقتَه خلال رحلة الاستكشاف والغوص في حوض فساد لوبيات داخلية. ما يعنيه من كل هذا الخطاب هو مجرد تنسيق ومدّ بمعلومات وحضور عن قرب من دائرة مكتب ودادية سكنية. جمع هذا المكتب من بين أعضائه خمسة ممن وُضعت ملفاتهم فوق طاولة الغرفة في الطابق الثالث من "فندق بوتيك" الذي يتموقع وسط المدينة، قريبا من المرافق الحيوية للزيارة كالميناء والمدينة العتيقة.

جلس الثلاثة حول هذه الملفات التي حملت ألوانا مختلفة عن بعضها. كانت ماريا معرِّفةً بالضيف الجديد. شعر لطف الله بأن السيد صالح هو هذا الضيف الجديد، بينما كان تصوّر السيد صالح والسيدة ماريا بأنه هو الضيف الجديد. وسيشعر بذلك كلما تدرجوا في التعارف والمناقشة. كانت غرفة الالتقاء والتداول حول الملفات هي غرفته

المخصصة لإقامته خلال هذه المدة. اتخذ معها لطف الله من الأريكة البنية فاتحةِ اللون مقعدا له، بينما كان كل منهما جالسا فوق كرسي زجاجي اللون يتناسب مع ديكور الغرفة العام. لأول مرة يسافر لطف الله خارج بلده المغرب، لكنه يحس بأن متعة السفر قد سلبت منه. خصوصا وأنه في مهمة. حتى من إطلالته الأولى على المنظر العام الذي تهبه شرف الغرفة، لم يجذبه بسحره وهدوء ساحته الجميلة والنظيفة. بالُه مشغول بما سيتواصل حوله خلال هذه الإقامة السياحية.

تسلّح خلال حياته الجديدة، ومنذ شهور سابقة، بعُدّة التدخين. أصبحت علبة سجائر شقراء وولاعتها مرافقتين له في رحلته اليومية. كلّما جلس بمقهى استعان بهما ليبدأ رحلة التفكير الذهني الداخلية في ما تسير إليه الوضعية الجديدة. لم يعد لطف الله هو لطف الله. ربما استنشاق عميق وزفير كبير تخترق معهما هذه الفكرة أعماقه. عالم الصدق الداخلي وقد حجبه بناءٌ مركّب للكذب وإعطاء معلومات مغايرة في كلامه لما يعرفه حقيقة. آخرها رحلته هذه إلى البرتغال. لن يفرح بنبإ التبشير بجولته السياحية لمدينة جميلة في فصل شتاء من هذا العام. لن تعرف عنه حياة النفوس التي أصبحت المديرة المباشرة لأعمال السيد عمر بدوي، فقد توارى عن الأنظار وترك الأمور تسير بما تحكمه ظروف المرحلة. ذلك الغموض الذي لم يفهمه الجل، لا جهاز الشرطة والأمن، ولا السيد المحامي، ولا آخرون كانت لهم متابعة

للملف. وهي الخيوط التي قادته الآن لشبكة تنسيق جديدة وغريبة. مع من؟ **طباخ الجنرال** ! تعجبَ فعلا للقب أو للتسمية حينما قدّمته ماريا له في أول لقاء.

كانت شخصية السيد صالح مثيرة للاهتمام. انفتاح وبسط وابتسامة مرافقة. رغم العمر المتقدم بدا على صاحبها الحيوية والامتلاك للمناسب في كل حوار أو معلومات. لم ينتظر كثيرا لكي تشرع ماريا في الحديث معه وتعريفه بالسيد صالح:

- أقدم لك السيد صالح. نناديه بطباخ الجنرال.

يبستم لطف الله استغرابا للّقب ابتسامة يلتقطها السيد صالح لكي يتكلم عن نفسه:

- لا تستغرب سيدي لطف الله، أعزك الله. أنا فعلا طباخ. هذه مهنتي التي تدرّجت فيها وأخذت من عمري سنوات معدودة. منحتني فلسفة حياة وتجارب كبيرة. ربما أحدثك عنها لاحقا. إنما هذه الجلسة الأولية لن تأخذ منا الوقت الكثير. مجرد تعارف وتعرّف على هذه الشخصيات الموجودة في هذه الملفات. وكما ترى، فجلها معروفة عندك. لكن هذه الشخصية الخامسة وهي موضوع بحثنا كذلك محتجبة عن الأنظار دائما. لا حضور رسمي

لها في نشاط الودادية ولا في الصفقات التي تتم بين هذه الأطراف. سأطلعك على الملفات التي تم إعدادها لمتابعة هذه الأطراف، وكذلك على بعض معلومات لها علاقة بها. أما بقية هذا اليوم فسأدعوك خلالها لجولة بالمدينة العتيقة:

تابع معي الآن هذه القصاصات وأعتذر على إقحامك فيها، فقد تبدو مملة، لكنك ستكتشف أهميتها من خلال تبيان علاقتها مع أعضاء مكتب الودادية:

1/ كشفت معطيات خاصة بالجريدة ترامي لوبيات عقارية باستعمال وثائق تدليسية على مساحات خضراء. الأمر الذي استنفر مصالح التعمير بولاية المدينة. منطقة الاحتياط الطبيعي للمدينة تم انتزاعها وتحويلها إلى تجزئة سكنية خاصة بالفيلات. عمليتا نصب واحتيال وتحايل على القانون وعلى المصالح الساهرة عليه. تم استغلال فراغ منصب المدير الجهوي الذي تم إعفاؤه من مهامه. اشتُريت الأراضي بأثمنة رخيصة وتباع بأثمنة خيالية. وليست هذه العملية بالأولى.

2/ توصلت مصالح النيابة العامة بثلاث شكايات تطالب بالتحقيق في تزوير لحق محررات تجارية واختلاس أموال عمومية تقدر بعشرات الملايير من قبل شركات للحديد وبتواطؤ مع جهات متخصصة في بيع الفواتير للراغبين في التهرب والغش الضريبي. وقد تزامنت هذه الشكايات مع الخسائر المالية الكبيرة التي شهدها قطاع إنتاج وبيع

الحديد بسبب منافسة غير مشروعة. تراجعت أسهم الشركات إلى النصف حيث تكبدت خسائر تقدر بالملايير. لقد تم استغلال غياب المراقبة من أجل التحايل على الدولة وتفادي أداء الضريبة المحددة في عشرين بالمائة. أطنان من الحديد تباع بأثمنة تقل عن سعرها الحقيقي. اغتناء اللوبيات وخسارات في صفوف الشركات التي تنتظم في التزام القانون وأداء الضرائب الرسمية للخزينة.

3/ ... في الوقت الذي يتذمر فيه المستثمرون المغاربة في بلدهم ومنهم المقيمون بالخارج، نظرا للعراقيل الإدارية والصعوبات وحتى النزاعات القضائية، ومن الاجتماعات التي تبث في هذه القضايا حيث لا يحضر الجل لها وخطابات فارغة لا تكشف واقع هذه المشاكل، تقوم عصابات السطو على العقارات بعملها وكأننا لا زلنا في عهد السيبة. يختارون عقارات يمتكلها مستثمرون مغاربة يقيمون بالخارج ويتحايلون على التعاملات الإدارية والإجراءات بكل تعقيداتها ويستغلون هذه الملكيات بالتواطؤ مع موظفين ومسؤولين المفروض أنهم يقومون بحراسة ممتلكات أصحابها وحمايتها من السطو. ردهات المحاكم تعج بالقضايا التي ترجع إلى مغاربة قضوا حياتهم في جهد جمع العملة الصعبة وثروة سيستثمرونها في بلدهم بشراء أرض فلاحية أو بقعة فيلا للسكن أو عمارة للتشييد، لكنهم يكتشفون بأنهم قد فوّتوا أموالهم دون أن تفوّت

إليهم الملكية بشكل نهائي. تتبخر أوراق العقود ويغرق صاحبها في بحر من الإجراءات القانونية حتى أصبح اليوتوب منبر تفجير شكاويهم حيث لم يجدوا حلا على أرض الواقع...

4/ ساعات فاخرة ومجوهرات تفضح مهربين. فقد كشفت عمليات مراقبة الركاب في النقل الجوي، والذين تجاوز عددهم 33 مليون مسافر خلال السنة الماضية، ضبط 7757 حالة مخالفة تم على إثرها تحصيل 135 مليون و700 ألف درهم، وبلغة الملايير (13 مليار و570 مليون سنتيم) من الرسوم والمكوس وستة ملايير من الغرامات). ولقد استطاع هؤلاء المهربون الجدد تهريب مبالغ مالية هامة دون الحصول على ترخيص مكتب الصرف. أحد الأشخاص استرجع من مصلحة الجمارك بمطار أ ورلي بباريس 12 ألف درهم. وبالنظر إلى أن معدل الضريبة على القيمة المضافة بفرنسا يصل إلى عشرين بالمائة، فإن استرجاع 12 ألف درهم يعني أن قيمة المشتريات يجب أن تكون في حدود 60 ألف درهم، ما دفع إدارة الجمارك إلى التحقيق مع الشخص المعني عند نقطة العبور... يتم تكرار السفريات والمقتنيات مرات متعددة في السنة ويستغل هؤلاء المقتضيات التحفيزية بعدد من البلدان من أجل إنعاش سياحة التبضع لتحقيق أرباح.

بضاعتهم الجديدة للاغتناء بالتحايل: ساعات فاخرة، مجوهرات، حقائب يدوية تابعة لماركات عالمية مشهورة... يتم إعفاؤها من الضرائب

فيعيدون بيعها بأثمنة أقل عن سعرها الحقيقي بالمغرب. مما يتسبب في خسارة الموارد الجمركية.
منافسة غير قانونية للعلامات التجارية الكبرى المستقرة بالمغرب...

- أنظر إلى هذا العنوان، أراه الأخطر كذلك:

5/ أباطرة العقار يدفعون لتوجيه مكاتب الدراسات لوضع تصاميم تهيئة على مقاسهم...

استغرقت عملية تتبع هذه التقارير الصحافية بعد التعرف على شخصيات الملف حوالي الساعة ونصف. كانت كثيرة وثقيلة فوق الطاولة الزجاجية في زاوية الجلوس داخل الغرفة التي يقيم فيها لطف الله. بدا عليه تعب سفر اليوم الأول من تواجده هنا بمدينة فارو البرتغالية. هكذا ارتأى الثلاثة تأجيل موضوع الجلسة للغد. ما تبقى من النهار سيفي خلاله السيد صالح أو طبّاخ الجنرال بوعده لكي يرافق لطف الله في زيارته للمدينة العتيقة. لكنه انتهز أقرب فرصة بعد اللقاء الأول لكي يسأل رفيقه الجديد:

- سيد صالح. هل فعلا أنت طبّاخ؟ وطبّاخ الجنرال؟ !

بعد تناول وجبة العشاء بمطعم الفندق، سيفكر السيد لطف الله في تدوين تجربته الجديدة، بل إنه سيعيد شريط الأحداث لكي يراجع كل شيء يقع حوله .

هكذا أخذ قلما ومذكرة أوراق صغيرة، وبدأ يخط حكايته منذ البداية. ربما اغترب عن ذاته داخلها. لذلك سيتكلم بصيغة الهو، والحديث عن نفسه بضمير الآخر، والذي لن يكون سوى أناه . لطف الله الحنفي.، الذي ولج عالم الاستثمار بالصدفة. مفارقة تحوُّل لاكتشاف عوالم خاصة يعيشها أفراد خاصين جدا. كيف سيستمر معهم وبجوارهم؟ حتى من ماريا والسيد صالح، فقد جعلهما خلال لحظة البداية في التدوين في كفة واحدة من الغرابة والاستغراب والتوجس. بينما الكفة الأخرى من الميزان جعل ذاته وحدها فوقها. ربما تعاطَف مع اسم سي علي بودحان من قبل أن يقع كل ما وقع، لكن حدث الدكان جعله يقذف اسمه ذهنيا فوق كفة الواقع الثقيلة في مواجهة مجهول وتخوفات السيد لطف الله: أنا . هو. من يكون هذا الهو أو من أكون هذا الأنا؟

ومن يكون السيد صالح هذا والذي اخترق شريط الأحداث الغريب؟ طباخ الجنرال؟

على لسان السيد صالح سيبدأ الحكي الآن بما أجابه به وناوله من سيرة مكتوبة بدأ في خطّها بداية هذه السنة حول تجربته المهنية والشخصية:

طبّاخ الجنرال

"أن تكتب عن جنرال فهو أمر ليس بمحمود. سيمتلك النفوذ والسلاح والسلطة والمال والمأمور بالتنفيذ. وأنت؟ لا تمتلك سوى قلمك وخيالك. وقد يسعفك الرقن فترسل في تصورات تستقيها من مشاهداتك ومقروءاتك، وكذا مسموعاتك.

في تجربتي كطبّاخ للجنرال، أنا السيد صالح بنحدو، عميد ممتاز بمصالح الإدارة العامة للدولة سابقا، سأدوّن تجربتي في مشوار غريب جعلني أصبح طباخا في مرحلة من حياتي، وجعل مهنة الطبخ معشوقة، سأتعلّق بها رغم كونها مهمة من المهمات فقط. فأن تكتب عن جنرال لن يكون الأمر سهلا. ولاحظوا معي العنوان الذي ورّط الكتابة بنسبتها لمن رافقه الطباخ، وهو الجنرال. **طبّاخ الجنرال**.

أندهش من كون المسموع هنا كان له وقع أقوى من باقي المداخل. ألأنني لم أرَ شيئا؟ ربما الصوت وسوسة وشوشة، إلهام ووحي، خبر يسري استراقا فيتسلّل مع السرعة بُراقا، فيستقر برّاقا، ويدق نواقيسه أبواقا.

ها أنت تقفقف. والقفقفة تذكر باصطكاك وقرع واهتزاز. تشاطح قلمك مراوغة، لكنك أصررت على المغامرة. وما دام الحديث هنا ليس عن الجنرال فسيكون حكيا عن طباخ الجنرال. ويا ما قرأنا لأسرار عبر قناة الأخبار المتسربة مع روائح الطعام أو تشوّط رؤوس ونفايات وإدبار. يا ما كانت مذكرات أطبائهم ومهرّجيهم ومستشاريهم أو ضحاياهم، طريقا لعكس الأدوار وإعادة صياغة هذه الأخبار.

فمن هو هذا الجنرال؟ ومن هو هذا الطباخ حقيقة؟

كفانا ثأثأة مع الحروف أو سجعا مع الظروف، ولنترك للسيد الطباخ الكلمة والتعبير:

"أنت تريد حديثا عن العجائب وأنا مللت حدّ التعب هذا الجهد رغم النعم والمراتب. أنت تبحث عن الغرائب في حياة الجنرال، وأنا أعلم أنه كم من طباخ إذا ما طال لسانه وتطاول على صاحب النعمة في غدوه ورواحه ومسائه، سيكون ضحية لسيده وولي نعمته، أو على الأقل سيخضع لتفتيش الضمائر وترهيب مراتب النفس حتى تعلم خطر التطاول على خبايا السرائر. والخطر أن مهنة الطبّاخ فيها اشتراك في الطعام، وهو أكبر عهد وصكّ ثقة يقام بين الخلائق والأنام. الاشتراك في الطعام اشتغال أحشاء واطمئنان على الأحياء والأشياء، وأمان على وبين الشركاء. يقابله في الدنيا والآخرة الغدر والخيانة والعقاب بالنار في هذه قبل الأخرى الآخرة.

هنا بيت القصيد. ففي مغامرة حكي الطباخ الجديد، إنما سيقتصر غفلة على المدهش والعجيب، واللذيذ والغريب، والمشتهى الذي لا يحب سامعُه منتهى. لن يكفيَك وصف الآيات والملحمات، ولا الأساطير والروايات. أنت تريد أن تعرف عن الجنرال من خلال طباخه. يا لفضولك الغريب !

إنّما أحذرك. إن كنت ممن يسيل لعابه لشهوات ووصفات الطبخ ولذيذه فاقتصر على مصاحبتي وطلبي ومؤانستي. اقتصر على زيارتي بعد انتهاء كل سهرات سعادة الجنرال. أعدُك بأنك ستأكل حتى التخمة إن كنت طفيليا، أو ستتذوق روائع الموائد العالمية إن كنت متذوقا عاشقا. وأنبّهك، فأنت ستأكل فتات الموائد رغم أنها مكتملة وطرية. ما رأيك؟

قد أبدأ الحديث عن حمية غذائية دقيقة وراقية. وقد تكون خيوطها مدخلا يفتح أنوار مصابيح أسراره الداخلية. ما يشتهيه بحسب الفصول والأماكن الجغرافية التي يتنقل لها، وما يشترطه في طريقة طبخها، وما تطوّر في تذوّقه فأصبح توازنا خاصا به ملائما لكيانه، وما يفرط فيه حتى إنك تصبح متهما بتسبّب تسمم أو إسهال أو حمى أو زيادة ضغط... وما يرضي ضيوفه وسهراته حتى إنك كذلك تركب متن شيء من حتى، لأنّ تورطك هذا في كل وضعية، لا بد لك أن تسأل معه عن مدى إعجاب أو قَبول، ومدى ملاءمة ذوق أو قياس، ومدى كفاية

الطلبات. والحديث عن الضيوف حديث عن مدارس عالمية في الطبخ والذوق والعرض والتقديم. فلك إن كنت طبّاخا أن تنجح خلال كل هذا.

ولأن المشترك في الطعام قطعة من الجنة أو النار، فإنك تكون على صلة بمائدة الأسرة وسهرات المساء والإفطار... وأخطر ما في الأمر أن يصبح الطباخ ضرورة في مرافقة الجنرال في كل الأسفار. فعن أي موطن تريد الحديث فيه عن الجنرال؟

يعيش الطباخ مراحل تاريخ قصره، في مجده وأفوله، صحته وسقمه، أفراحه وأحزانه، عزلته واحتفالياته الجماعية الباذخة. يلامس نِعم الدنيا ولذائذ فواكهها وخضرها ولحومها وسمكها، يصنع العجائب بالوصفات، ويخضع لتكوينات مستمرة قد يموّلها من جيبه الخاص لأنها سرُّ عطائه واستمرارية قَبوله وإزاحته لكل منافس له في المنصب والمهمة. وقد تكون الثقة والدربة والتعوّد أكبر ما يضمن له البقاء مع الولاء والهناء مع الصمت في العطاء." ولأن الحديث مع طباخ الجنرال قد يأخذ طابع المذكرات أو اليوميات، فما الذي سيميزها ويعطي الاختصار في بلوغ مراميها؟ سيشوقنا بأخذنا معه في رحلته الأولى:

". طيب. سآخذك إلى ضفاف بحيرة سد مائي. ولكي تعلم، فإنه أُريد لها أن تكون مكانا ترفيهيا للسياح ولجذب المستثمرين في مجال الصناعة السينمائية بمخرجيها وممثليها وتقنييها ذكورا وإناثا. أوَ تعلم بكم بيع

المتر المربع؟ بعشرين درهما. أوَ تعلم من استفاد من العملية؟ علّية القوم. أوَ تريد أن تعرف أكثر؟ ابحث في الميدان جازاك الله خير أجرك.

هكذا كانت الإقامات الفاخرة والممتدة مع منبسط الرمال، تُسقى خضرتها الجديدة برشاشات وتخترقها قنوات مجاري مياه لتملأ المسابح وتنعش أرضيا لعب الغولف والحدائق المحيطة... جنة منفلتة من قحولة خصوصا إذا كانت الطريق إليها بحرارة أشعة الشمس الحارقة والصخور اللافحة، والتي تقعسك وتخوفك، لكنها تدعوك للتحدي والمغامرة مع كل منعرج أو أفق منفلت مع سراب، ولو كنت آتيا من المطار القريب، ولو رافقك نجوم ونجمات السينما في الرحلة، ولو... إنك تشعر بمكان عالمي جديد يجمع الأجناس والمشهورين والمشهورات فنيا وسينمائيا. فكيف لعلّية القوم أن تضيع فرصة هذا التجاور، لكي تشعُر وتشعِر بالتفاخر؟"

أرى أن خيالك قد سافر مع هذه الصورة، فلكي تعلم بأن طبّاخ الجنرال يسبقه في الرحلة بسويعات لكي يرتب داخل إقامة السدّ بما أحضره واستحضره وطلبه كل ما يشتهيه سعادة الجنرال.

سأدهشك !

"مواسم الصيد في هذا السد الشريف تناسب زيارات سعادته له خلال فترات مفرقة في السنة. وسأفاجئك بقولي إن ساحله الممتد طولا

يجاور ساحل شيخ صوفي كبير الشأن في السياسة والمعارضة، وساحل وإقامة مخرج أمريكي اشتهر بأفلامه بمواقع وأطلال وهندسة مدينتنا السينمائية. وإذا زامن حلول الشيخ حلول الجنرال يكون اللقاء الخاص بين من يمتلك قوة العسكر ومن يمتلك قوة الروح. يَتبَع الشيخ لخلوته الرفيعة قوم كثير من الرجال والنساء وهم من الأتباع. يقيمون الخيام وينتظرون برنامج الاصطياف الذي يسطّره الشيخ الكبير ."

- لكن قل لي: كيف يتزود هذا من ذاك؟ أو.. حدّثني عن الشيخ أكثر. ماذا تقول؟

".أحمد الله أنني معفي من تحضير طلباته. لكن ما أعلمه وهو أكيد، هو أن فندقا مصنفا بخمسة نجوم يتكلف بإطعامه وشرابه وطلباته. تُحضّر الوجبات يوميا له ولأتباعه. ولا أخفيك أمرا وعجبا، فإن أتباع الشيخ كثر بحيث يصبح اصطيافه أو تخييمه قِبلة لهم كأنه موسم مبارك، حتى إن الأمن بجميع أجهزته يوضع للخدمة والأمن والأمان وتوفير النظام، فلا إزعاج حينئذ".

- مبارك؟

- " تصوّر أن الماء الذي يستحم به أو يتوضّأ به الشيخ يوّزع بين الأتباع الذين يتهافتون على التبرك به والاستحمام به أو التوضأ والاغتسال.

وأنا أقول دائما مع نفسي: تلك عادات الجهلة مع الأضرحة، فإذا هي مع الأحياء كذلك ! وبعودة الجنرال من جلسة الشيخ تتغير السهرة وبرنامجها. أطباق سمك وكؤوس من أثير".

- ماذا؟

- "انتظر حقك في الآخرة، أو اذهب للذكر مع الشيخ، أفضل لك. أكون مطالبا خلال إقامته ببحيرة السد بنوعيات خاصة من التحضير. تجد رحلات جوية خاصة بها وأنواع سمك مطلوبة فيها، وجلسات شراب مغلقة إلا على البحيرة والشاطئ ونجوم السماء. فأكون الساهر على المراحل، لا أنام حتى تنتهي مقامات كل ليلة. وكل ليلة لها شأن خاص."

- كم من إقامة يمتلكها الجنرال؟ لا جواب.

- " دعني أكلمك الآن عن حكايات **المسدس الذهبي**:

(يوم استدعاني لمكتبه الرئيسي، حيث عاد من رحلة علاج مستعجلة، نقل خلالها على وجه السرعة خارج البلاد، طمأنني على صحته وعلى لائحة الأطعمة التي حظرها الأطباء عنه، يومها وجدته فاتحا علبة حمراء يقوم بتنظيف محتوياتها. لم تكن هذه المحتويات

سوى مكونات مسدس ذهبي صغير وبعض رصاصات إحداها فقط ذهبية.

لاحظ سعادة الجنرال اندهاشي وفمي المفتوح والمفرغ من الهواء. ابتسم ونبّهني بقوله:

- اسمع يا طبّاخنا العزيز، أنت فرد من العائلة ومن جلساتي وسفرياتي كذلك. سأسألك سؤالا لأرى إن كنت تحبّني فعلا: هل يمكنك ذكر ممتلكاتي كلّها؟

وجدت في السؤال حرجا، وكل محاولةِ جوابٍ تطاولٌ هي. بدأت بذكر أن مَن أحبه الله تعالى فتح له خزائن الأرض وبحارها وحتى طيور سمائها، وجعل رزق العباد على يده أيسر وأفضل من أن يكون بيدها، ونحن كلنا نعيش بكرمك وفضلك وجودك علينا.

دعوت له بالرزق الوفير والصحة والعافية، وشكرت الله على أنه جعلني طبّاخ سعادة الجنرال، أهلا للكرم والجود والصفح. يومها منحني بقعة أرضية قريبة من ضيعة موطن ولادته ونشأته الأولى. لكن كل هذا لم يشفع لي في التهرب من الجواب. عددت ضيعاته بأسمائها العزيزة عليه: يطو، الغالية، الكبيرة، شامة، فيلاته وقصوره، ذكّرتُه بالصغير منها فكاد يبتسم لكونه قد نسيَها وأهملها...

- أهذا كل ما تعرف يا طبّاخنا الماهر؟ اِعلم أن ممتلكاتي بالخارج كما بالداخل، وأن أولادي وأقربائي جحظت عيونهم هذه الأيام فارتسمت خرائط طمع على محياهم، حتى ابتساماتهم أصبحت عريضة وأصواتهم تخونهم معها فتكون في ضحكاتهم غليظة... قد لا يجدون تفسيرا لكوني أغضّ الطرف عن كل صغيرة أو كبيرة يقومون بها، وعن كل سلطة يمارسونها باسمي، فيتطاولون على كبار المناصب ويقضون ما يريدون من المصالح. قد يحاول بعضهم التماس عدم الإشارة لأفعالهم في حضوري أو حين مهاتفتي من طرف البعض. لكن ما لا يعلمونه أن كل صغيرة وكبيرة تدون باسمي وترفع معها التقارير إلى مراكز عليا وقيادات أعلى، ثم تعود إليّ في شبه إشراك لي في كل قضايا البلاد، حتى لا تكون قراراتي حيادية أو انحيازية، وحتى أعلم أن كل ما وصلت إليه هو بفضل هذه النياشين التي قد أستحقها أو لا أستحقها. ربما في يوم ما سأقف بقامتي هذه وتنزع مني بالتدريج فأجرد من هذه وتلك أو تعود لي إقامة إجبارية كما كان لشيخنا صاحب الكرامات، جارنا في البحيرة. وما لايعلمه البعض أن الجنرال قد تخونه قوته فتكون أول ما يلقنه الدرس الذي علّمه في البداية للآخرين، درس التصفية ببرودة دم أو أوامر عليا. والعالم مليء

بهذه الأمثلة. لذلك ترى هذا المسدس الذهبي أمامك. فأنت أول من يراه أو آخر من يراه. أنظر إلى هذه الرصاصة الذهبية! فهي لها لغتها الخاصة بالجنرال. تقول لي ساعتها: إذا كنت شجاعا، فأنا خلاصك وأنا رصاصة رحمتك ومرافقتك إلى قبرك ومثواك الأخير إن أرادوا لك قبرا ودفنا وتشريفا. رصاصة تذوب أشلاؤها بسرعة اختراقها فلا يعود لها أثر إلا ما كان من ثقب ولوجها وزيارتها لجسدك. وهي أصدق زيارة وأكبر حقيقة واضحة حينئذ. وإذا لم تكن شجاعا فاختر إحدى هذه الرصاصات، تشلك ولا تقتلك، وتجعلك لا تعيش الألم الخارجي لأن ألمك الداخلي حينها يكفيك. لكن وعيَك لا محالة يقرأ المذلة. فما الذي تختار بين الشرف والمذلة؟ حينها، قد يكون فضولك في معرفة أسرار ما آل بك لكل هذا هو الذي سيجعل وعيك يريد أن يعيش هذا الألم لكي يتعرف على أسرار الحكاية.

أية أملاك يا طباخنا العزيز. كلها لا تساوي شيئا أمام مثل هذا المصير. ربما صنعت لحاشيتي ودائرتي مراتب ومناصب، وممتلكات، فأصبحوا من طبقة الأغنياء أو في طريقهم إليها، لكن الجنرال لا يهمه شيء من هذا، فمنصبه هو كل ما يملكه وهو سرّ قوته وهو غناه الحقيقي. إنني لم أبُح لك بهذا سوى لتعلم بأنك المقرب الوحيد لديّ والذي يصنع طعامي ويحضّر لي شرابي ويضمن لي سلامة ما أتناول

وقاية من كل تهديد وأمنا من كل انتقام. ها أنا الآن بعد تجربة المرض هذه أكتشف الحقيقة الطبيعية التي تبقّت لي. لقد منع عليّ الأطباء احتساء المشروبات الكحولية، والسيجار الكوبي العزيز. وهل هذا المجد الذي بنيناه حُقّق بدونهما. ستكون سرّي المستمر في عدم سماع توصيات الأطباء والمقربين متى قررنا مخالفة نصائحهم. اِبقَ على عهدك مع الجنرال، حتى لو استطعت بنصف مشروباتي ووصفاتي).

"سيتصبّب هذا الطباخ الجالس معك الآن عرقا، ويندّ وتشتعل حرارته وهو يشعر بانكماش متسارع لذاته وأعضائه وخلاياه في كرسيّه، سامعا، مطيعا، مؤيدا، وملبيا. كل من سيعيش وضعية طباخ الجنرال سيشفق على حاله. أصبحت الأسئلة سهاما تخترقني فتقتلني وتفتتني إربا، وتجعلني أتمنى أن أموت قبل موت الجنرال، فذلك أهون. ماذا لو مات الجنرال؟ ماذا لو اتهموني بقتله؟ أأحاكم على كل هذا؟ ! رغم أنني في مهمة، إنما شعور الطبّاخ هنا هو الذي يتكلم ويكتب ويجيب.

رأس السهم وقد انغرس في أحشائي فبدأت أعدّ ما تبقى لي في حياتي."

"الفلاحون الصغار:"مصائب قوم عند قوم فوائد"

أصاب القحط والجفاف مناطق عدة من البلاد. ضاع الناس في مجهودهم كل سنة. ذهبت ماشيتهم التي لم تجد ما ترعاه فبيعت بأزهد الأثمان. هاجر بعضهم إلى المدن القريبة أو البعيدة وترك فلاحته وأرضه. الأولاد والزيجات تزداد أفواههم لهفا واتساعا وظمأ وجوعا، كأشجار ازداد طولها وانعدم سقاؤها، تواجه زرقة السماء باحثة عن جرعة وعن أمل...

كانت أرضا منسية فعلا فوق هضبة ممتدة وبعيدة عن النهر الكبير. كانت مهمتي التي ائتمنني عليها سعادة الجنرال دون غيري فجعلني الوسيط الرئيسي في كل صفقة. طلب مني عدم ذكر صفته وشخصه في كل واحدة منها إلى أن يأتي يوم الكتابة للعقد ويفسر الكاتب له الأمور ببساطة لا تضر ولا تغير شيئا مما اتفقنا عليه. فعلا تم "عُرس" الشراء للأراضي الفلاحية المهجورة من طرف أصحابها.

هناك من باع ولو بنصف ثمن أو أقل، وهناك من جعلها طريقا لإدماج بعض أولاده في الخدمة العسكرية ومجالها، وقد أصبح يوم كل سوق هو يوم اللقاء مع الفلاحين الصغار. أكون أنا المدير العام للصفقات حيث لا مشكلة مطروحة في السيولة المالية ولا في الأوراق الإدارية ولا في الحلول الإدماجية. فأن يضمن الأب توظيف ابنه براتب خير له من بقاء أرض أصبحت لا تدر نفعا.

كل شهر آتي بملف يتضمن أسماء البائعين ومساحة أراضيهم ومواقعها وثمنها المقترح، كذا لائحة الراغبين في ولوج حياة العسكر. اكتشفنا خلال هذه العملية أن هناك من يغتني بالارتشاء باسم الجنرال دون أن يعلم هذا الأخير، فيعده بتقديم الطلب في الإدماج للجنرال مقابل مبلغ معين من المال. ولسذاجة الناس وظروفهم وخوفهم من كل خطإ ينصاعون لابتزازات هؤلاء السماسرة.
ولأنها القبيلة عموما فلا يتم الزجر بأساليب قاسية.

يوافق سعادة الجنرال على كل أو على جل ما في الملف ثم تكتمل العملية بإدماج الأرض الصغيرة في الأرض الكبيرة كحُوت يبتلع سمكة شريدة. بينما ابتلع التجييش أو المدن المجاورة زحف المهاجرين من الهاربين من قساوة الجفاف والفقر فارتموا على شواطئها الهامشية في انتظار تحسين الوضعية. بعد سنتين ونصف تقريبا أصبحت الضيعة ما شاء الله تعالى شاسعة وكبيرة، وبدأت الورشات الكبرى فيها المتعلقة بالفواكه وتربية الأنعام والبقر والماشية... (الله يعطينا شيئا من حتى هذه).

لا أخفيك أيها الفضولي في المعرفة، كلما قرأت أو سمعت آية القرآن حول صاحب الشاة الواحدة وصاحب التسع والتسعين، أتذكر هذه القصة. لكني أصارحك القول أنه لم يكن هناك ظلم في ما وقع."

- ربما نتحدث عن استغلال الظروف؟

- ربما. لكن نية الظلم فيها لا توجد. وأنت تعرف بأن أي مفلس يبيع بأبخس الأثمان.

- أراك مقاولا في العقار والأراضي ولست بطباخ يا طباخ الجنرال.

- أنت تريد أن تعرف وأنا أعطيك المفاتيح حتى أرتاح من عبء الذكر والتذكر والرواية. حمل كبير أفرغه الآن. ما تحمله هذه الجمجمة يحتاج إلى رصاصة ذهبية لكي أستريح.

- ماذا سيفعله سعادة الجنرال بأراض قاحلة؟ كيف يستطيع تحويلها إلى ما قلت من خصوبة وإنتاج؟ ولا ماء !؟

- بل قل لي: ماذا سيفعله بأموال طائلة؟

- من أين له هذا؟

- اِسأل البرلمان. لماذا تسألني أنا؟ اسمع لدروس التاريخ واستفد !

بلدنا الحبيب معتادٌ على سنوات الجفاف، وخلالها يفتقر البعض ويغتني البعض الآخر. تم التخطيط لمشروع بناء السد قبل هذه المحطة الزمنية بسنوات، ومنه سترسُم الخريطة كما فوق أرض الواقع قنوات مائية اصطناعية بحيث إن المنطقة لن يعود فيها خصاص في الري أو السقاية. وكما تعلمتَ في دروسك في الجغرافيا فإن هذه الأراضي بعيدة

عن النهر الكبير. حتى قنوات الري مكلّفة... لم يكن للفلاحين الصغار علم بما سيكون عليه الأمر بعد خمس أو ست أو سبع سنوات. كل الأمور تم التخطيط لها داخل الإدارات وداخل مراكز القرارات.

هكذا اشترت علية القوم الهكتارات الكثيرة بأبخس الأثمان. هم يعرفون كيف تدار عمليات المراهنة والمزايدة والمناقصة. يدركون قيمة شراء الأسهم وانتظار صعود قيمتها في السوق. عندهم أموال فائضة زاحفة على كل فكرة مشروع آت.

هاجر الفلاحون الصغار إلى مراكش وأغادير وبني ملال وإلى بعض المدن الصغيرة التي يستطيعون بدء إغاثتهم فيها بالتدريج. انخرطوا في العمل اليومي والبيع بالتقسيط والسكن الهامشي والتسول وأشياء أخرى. بُني السد خلال عامين، وفي العام الموالي اخترقت قنوات الري التراب الأحمر الذي لم يبخل ولم يخن عهده ومهمته. إذا ذهبت الآن إلى الهضبة ستلاحظ جنات وغزلان ونعام وفواكه دانية. يمكنك الآن أن تنظر إلى كفتي الميزان وإلى رقاص الزمن الذي يتلاعب بهما. رقاص الساعة يسبقه رقاص الدقيقة، وهذا يسبقه رقاص الثواني.

أي ساعاتي هذا يستطيع أن يكون مهندسا بارعا ومتقنا لمثل هذا الإخراج !؟"

- ما الذي سيمثّل دور الجنرال؟ أقصد أي رقاص؟

يضحك الطباخ حتى استبانت نواجذه واختلطت كحة مع تسرب الهواء الغزير لشجرة رئتيه. أدمعت عيناه حتى إنه احتاج إلى منديل ورقي لكي يوقف زحف هذا الانزياح السلوكي:

- " الشكوى بك لله تعالى. أضحكتني حدّ البكاء. كثرة الهمّ تضحك، وكثرة الضحك تنذر. أوَ تعلم ذلك الديك الموجود داخل صفحة الساعة والذي ينقر كل ثانية برا لا ينضب؟"

يشعر لطف الله بأن الكلام من بدايته لنهايته موجّه إليه، وكأن هذا الحوار أو هذه المذكرات قد كُتِبت معه ولأجله قبل لحظة قراءتها بمدة زمنية سابقة.

يستغرب في عجائبية كبيرة لتداخل الحكي بين شخصيته الجديدة وتجربة هذا الطباخ الفريدة. تُرى، هل ستكون مهمته صعبة وأطول وأخطر من مثل هذه المهمات التي قام بها طباخ الجنرال؟

- لقد جعلته يوما فيما مضى داخل طنجرة ضغط وأقفلت عليه في غرفة خاصة.

يستحضر لطف الله مزحته مع صديقه عبدالله بودحان. يضحك السيد صالح للمفارقة ويسأله عن السبب، فيجيب لطف الله بما أوتي من مزاح حول هذا الديك:

- إنه طريقة إعدام بطيئة في بعض الأحيان. قد يسبب الأرق لصاحبه.

- وهل أصبح طازجا وصالحا للأكل داخل الطنجرة؟ يمازحه السيد صالح بدوره.

- هه... بقي هناك يتكتك من جديد. إنما بعيدا عن حقول آذاننا.

يعود لطف الله لما بدأه طباخ الجنرال لكي يسأله:

- نعم ! ما علاقة الديك بسؤالي حول الرقاص والعقارب؟

- الجنرال هو ذلك الديك. اعفِنِي من زيادة توضيح.

- ألم تلعب دور الرقاص يا طباخ الجنرال؟

- أنا؟ أنا مجرد أداة تتحكم فيها يد سعادة الجنرال الذي يُحكِم قبضته على كل شيء. كنت أداة تنفيذ فقط. أروي لك ما أرويه هنا لكي تعلم أن الاستفادة من الكعكة تحتاج إلى حسن اختيار الكرسي وحسن استعمال الفورشيت والسكين دون ترك بقايا وآثار فوق الطاولة تخدش بلمعان المجال.

- وماذا امتلكت أنت وكسبته في كل هذا؟

- أكيد لم أقبض على الرصاصة الذهبية، لكن ما أقوله لك هو أنه فضول في السؤال لا يعنيك جوابه الآن.

- من أنت حقيقة؟

- بدايتي كانت جامعية. حصلت على الإجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها. تطلّعتُ لمباراة بوزارة الداخلية. خضعت لمراحل التدريب والمهامّ. حظّي الذي لم أختر فيه ما أريد، لأن ما أردتُه حينها ليس هو ما كنتُ سأريده الآن، جعلني في خدمة الجنرال. كنت أحلم بمتابعة الدراسة بأنجلترا أو الولايات المتحدة الأمريكية. لكن مسار الحياة تحدده لقمة العيش وضمانها .

منذ بداية عملي، مِلتُ للطبخ. ساعدني التكليف في مرافق القنصليات التي تنقّلت عبرها، على إتقان بعض مهامه، وعلى الترشّح لتكوينات وتدريبات مرتبطة به. ازداد تعلقي الدراسي مع تعلم الطبخ. بزغت عبقريتي ونباهتي التي اندهشتُ لها كمَلَكَات في دواخلي. أصبحت طبّاخ الجنرال برتبة متألقة ومتطلّعة بعد ذلك، انتقلت للعمل في مرافق أجهزة متعددة الاختصاصات، أو قل هي الخاصة جدا.

بعد تناول وجبة العشاء بمطعم الفندق، بقي الثلاثة جالسين في زاوية منه ومتابعين لإيقاع عزف على آلة الكمان. طرب حيّ يتوزّع داخل فضاء أمسيتهم محدثا تأثيره الساحر الذي يجرد الفرد من كل

امتدادات ماضي الذات والأمكنة، ويجعل الذهن مشرقا لأفكار جديدة. وكعادتها كانت ماريا في فستان وردي شفاف جميل جدا استطاع جذب أنظارٍ أو سرقتها في التفاتات متفرقة. ست طاولات شغلت زبائن الفندق في هذه الأمسية. وبين لحن وآخر كان الحوار يأخذ مجراه مع خيوط ما سبقه. مثّل السيد صالح ذلك الحكيم الذي خبر الأزمان والأشخاص والأماكن. امتلك من التجارب ما يكفي إلى درجة بدئه في تدوينه لمذكراته الخاصة. ومنها ما قدّمه للطف الله كي يطّلع عليه أو ما سرده شفهيا خلال هذه المدة بمدينة فارو وفي حضرة ضيفه الرباطي لطف الله.

يتابع هذا الأخير بهدوء وحذر، وترافقه ابتسامة مقيسة تفي بحقه في الإحساس بأنه في سفر سياحي وبكونه كذلك ناجح في ديبلوماسية التواصل مع مضيفيه.

- هل يمكنك سيدة ماريا أن تحدّثينا عن عملية مكتب الأمم المتحدة؟

كان هذا سؤال السيد صالح وهو يوضب ياقة قميصه المطرز بطريقة تقليدية والمميز لثقافة لباس موطنه من حيث أتى، ومن حيث أتى ثلاثتهم لزيارة وسياحة وعمل بالبرتغال. قميص أبيض ناسب الشيب الذي غزا شعره ولحيته. نظرت إليه ماريا متوجسة من طلبه ومتأنية في

بداية الحكي. ربتت بنعومة على كتف لطف الله بما يكفي لكي تجعله يسترخي. فقد لاحظت تشنجا ما في حركاته وفي إطباق نظراته خلال التواصل. تختبر خجله من خوفه، وهي على دراية بنفسية الشخص في مثل هذه الوضعية. فقد تبدو معالم من طفولته وتجاربه فيها طافية فوق سطح السلوك. لا تعلم إن كان خجولا في صغره، لكن، ما بدا لها الآن جزء منه وخوف كبير مما سيأتي. فكل حكي عن الماضي يورّطه في ما سيأتي:

- طيب. العملية بدت صعبة في البداية. لكن الحظ حالفنا في إنجازها. وقد قمت بها مع السيد صالح. هو الطبّاخ، وأنا مساعدته. ما رأيك يا لطف الله، هل أصلح لكي أكون طباخة وأتقن فن الطبخ؟

ابتسم من جديد. وغلبت قسمات الابتسام على الكلام. انتظر الاثنان استرساله في الكلام وجوابه على مستملحة السؤال.

- أظن أنك طباخة ماهرة. ربما أفضل من السيد صالح.

ضحك الثلاثة لدرجة توافق ضحكتهم مع تصاعد وتيرة الكمان المعزوف مع مقطوعة جديدة كانت هي the lonely shepherd. تبع طلعة الضحك صمت مفاجئ انقطع معه صوت كل واحد منهم بغتة. بقيت الأعين مترقبة بشكل غريب لمن سيكسره ويخرج الذوات من

هروب وشرود غير مرغوبين في جلسة وأمسية جميلة مثل هذه. مفارقات لم تحتج للغة لكي تترجمها كلاما في ما بين الثلاثة. اغرورقت عينا ماريا فسارعت معتذرة للذهاب إلى حمام المطعم. ومع استغراب لطف الله الحنفي تدارك السيد صالح الموقف بشرح النازلة واعتبارها عادية: - لاتقلق سيد لطف الله. هذه المعزوفة تذكر سامعها ببراءة طفولته وصغره كما بجمال لحنها كذلك. معزوفة الراعي الوحيد من أجمل مالحنه الموسيقي العالمي (جيمس لاست). كل الناس تحبها بجميع لغاتها وأجناسها. تستطيع الموسيقى أن تخترق طبقات لاشعور الإنسان وتجعله شخصا جديدا بسرعة ونجاح كبيرين. سيدة ماريا لها قلب كبير. تحب الحياة كما تحب الناس والقلوب الجميلة والصافية. هذه المعزوفة تذكرها بما أرادته يوما: سعادة وبراءة وهناء عيش داخل مناخ حب وأسرة وأولاد. لكن، كما ترى حياتنا هنا، فهي بعيدة ومستأصلة ومجتثة.

لا تظن أننا سعداء بشكل تام وكامل. كل واحد منا له اجتراحاته وجروحه الذاتية والخاصة. ولهذا وجدتني أكتب هذه المذكرات. طبعا ستسأل: كيف لعميل مخابراتي أن ينشر أدبا وثقافة؟ ربما أجيبك بأننا وجدنا حلا لتطوير عملنا في الاستعانة بالخيال والتعبير عنه بلغة وكتابة. هناك دراسات نفسية تعمل على تفكيك شيفرات الكلمات

والعبارات، ونحن نخضع لتشخيصها وتحليلها واستنتاجاتها. مثلما يقوم النقد في مرافقة الأعمال الأدبية.

تحولت حواس لطف الله إلى درجات خشوع في السمع والمتابعة بنظرات أصبحت مملوءة بالتقدير والاعتبار للكلام الذي يسمعه من السيد صالح، والملقب بطباخ الجنرال. ربما لأول مرة منذ لقائهم الثلاثي أخذ يشعر بأنه يجالس الإنسان والمثقف والمبدع والمرهف في كل هذا. حينما عادت السيدة ماريا، اعتذرت عن تأخرها وباشرت الكلام بابتسامة طهّرتها الدميعات التي فرت بها إلى حمام المطعم:

- كنا في مهمة أنا والسيد طباخ الجنرال. ارتقينا في مهنتنا الجديدة مباشرة لكي نعد وجبة عشاء بمطعم فاخر تنزل فيه بعثة أممية. هي لوائح أسماء وجب علينا أن ننسخها لكي ننقلها كمعلومات للجهات المختصة. كانت المهمة على طريقة الأفلام التجسسية. استراق سمع واختلاس نظر وتسلل لغرف وفك رموز حقائب وتصوير لأوراق... كل ذلك بدقة وسرعة متناهيين وغير مثيرين للارتياب. وطبعا ترقّينا أنا والسيد طباخ الجنرال لمرتبة عليا في عملنا وأجرنا. إنما سيد لطف الله، سأعود بك لقضية وملف السيد عمر بدوي الآن. لابد من تجلية الحقيقة والوضع أكثر.

(أكثر) ! كلمة رنّت في مسمعه ووجدت طريقها للتحليل المناسب. استنتج وجود درجات في المعرفة والمعلومة. كل ما يتلقاه هو بمقاس

مناسب ولا يمثل كل الحقيقة. استراح لانتباهه الجديد مبتسما كالعادة ومتسلّحا بهذه الابتسامة في متابعة حكي السيدة ماريا.

كان حكي السيدة ماريا نسجا لخيوط مختلطة في فوضى مشتبكة. أعادت فسخها وحياكتها بما يناسب المراد الوصول إليه:

. بالنسبة للسيد عمر بدوي، فقد كان دليلنا في قضايا عديدة، ومحاولة اغتياله كانت لها علاقة بما تسرب من شكوك حول عدم وفائه لتدبيرات مجموعة من المافيات داخل وخارج المغرب وليس لمجرد عدم تسديد عمولات. مجموعة من العمليات تم إجهاضها في مراحلها الأخيرة من الإنجاز. يكفي أن نتحدث عن مئات الكيلوغرامات من الكوكايين وكم تكلف من مليارات الدرهم. أو نتحدث عن فضح تهربات ضريبية متقنة يتم استرجاع ما كان سينفلت منها إلى خزانة الدولة. كلها ستكون خسائر فادحة لهذه العصابات المنظمة. . إنما الأخطر الآن هو إصابة السيد عمر بدوي بسرطان متقدم نخر حنجرته ودمر خلايا مهمة في جهازه العصبي. هو الآن في مرحلة موت سريري تم كتمان حقيقتها حتى نتدبر مرحلة ما بعد وفاته. سنحتاج من يبدأ العمل معنا وبتنسيق مستمر في الميدان. نضمن لك الحماية والأمان إذا التزمت بالاستشارة والإخبار الدائمين. هذا ما في الأمر. لك أن تستريح ولنا أن نتمتع معك

خلال هذه الأيام القليلة بالتجوال في هذه المنطقة الجميلة من بلد البرتغال، رغم تقلبات الطقس وهذه التساقطات المتفرقة.

هل احتاج السيد عمر بدوي لتلك الجرعة القوية من مشروب الويسكي؟ سؤال حيّر المحققين مثلما حيّر لطف الله حينما سمع الخبر. كان لطف الله قد عاد لتوه من رحلته السياحية. هذه المرة لم يكن المبرد هو الطاعن والقاضي بإنهاء مشوار العمر. كان قرارا فرديا، رغم توصية الأطباء، ورغم طلب المخبرين العناية به وبمن سيزوره أو يتصل به خلال هذه المراحل الأخيرة المتبقية من عمره. وكأنها ملفات منفلتة كان على السيد عمر بدوي أن يكشفها قبل رحيله الأخير.

لم يترك رسالة. لكن الإشارات التي التقطها السيد لطف الله أصبحت بعمق توغله الجديد في مشوار محفوف بمخاطر الطريق. يشعر بأن الاختيار قد يأتي في يوم من الأيام. بمجرد تلقّيه الخبر من طرف حياة النفوس بزغت ألوان قميصه الأبيض وسرواله الأزرق، ساعته اليدوية المذهبة وحذاؤه اللامع.

الصورة الأولى التي التقطتها عيناه قبل كاميرا هاتفه المحمول. بزغت مفرقعات حمراء مشتتة على لوحة اللباس. هي الحياة تهبنها جميلها ونجترح بأشواكها المدمية. نظر لطف الله إلى ألوان لباسه حينها. على الأقل كان ذلك الأزرق السماوي المفتوح حاضرا وموقّعا المشترك والشبه

بين الشخصيتين. موقّعا كذلك قراره الزواج من حياة النفوس حيث أصبحت القضية المستقبلية مرتبطة بوجدان ماضوي حاضر وبقوة.

أي رهان جديد هو؟ لم يمتلك الجواب، وربما لم يعِ حضور السؤال بصيغته هذه. هو اللاشعور حيث مكمن هذه الحروف الجامعة لاسمَينِ انبثقا من حي المحيط ليعمّرا حي الرياض والحياة في العاصمة الجديدة لمدينة الرباط:

لطف الله، وحياة النفوس، ورحلة حياة جديدة يتقاسمانها كتجربة فريدة !

كنتم مع الجزء الأول

من رواية

الساعاتي.

تأليف حسن إمامي